عبد اللطيف شرارة

حكمة التاريخ

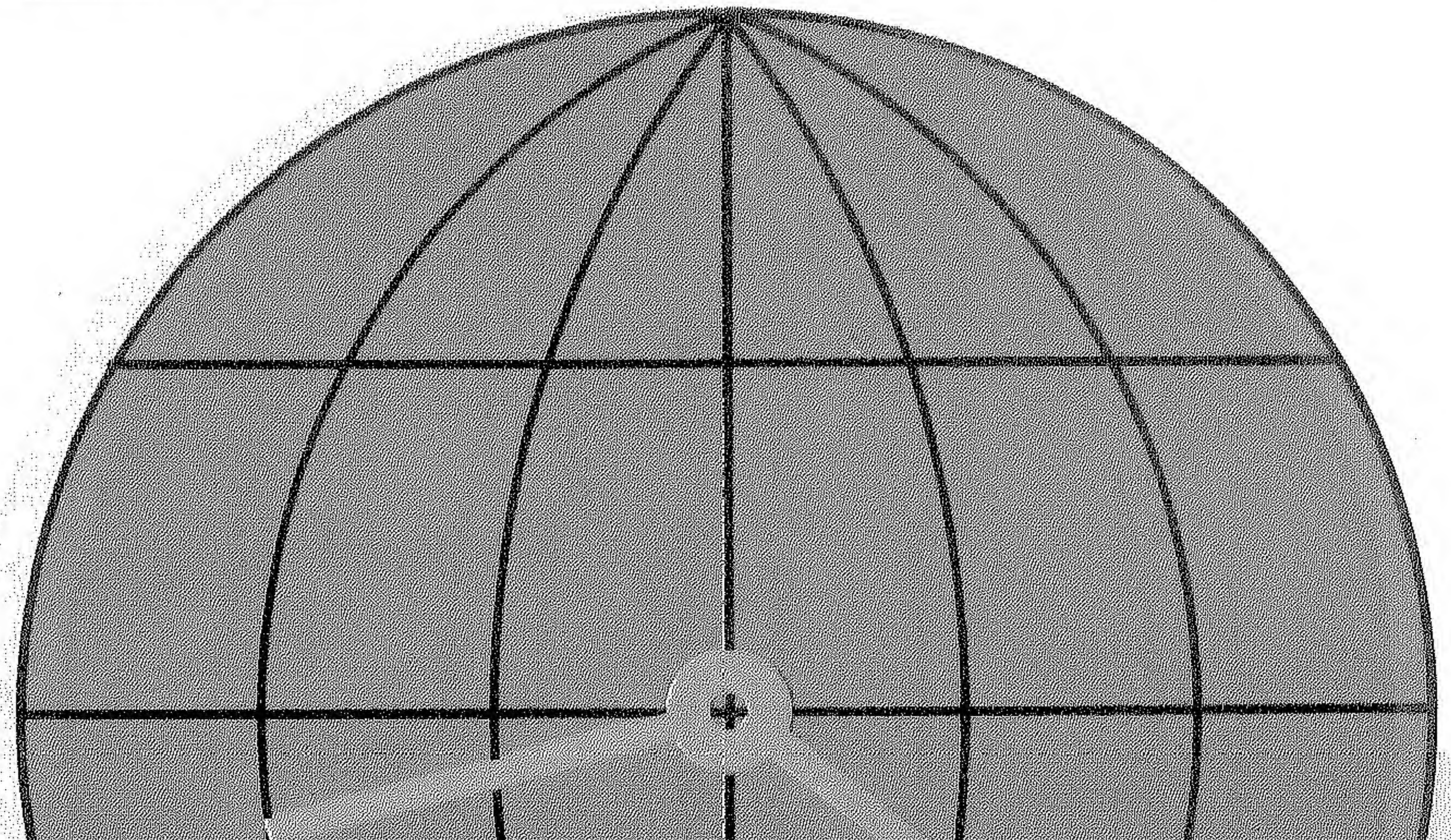

ؤال • محاورات مع التاريخ • نحو المستقبل

Bibliotheca Alexandrina
01590081

الشركة العالميّة للكتاب ش.م.ل.
مكتبة المدرسة دار الكتاب العالمي

٩٥١
سدا
ح

حِكمَة التَاريخ

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية
رقم التصنيف
رقم التسجيل

عبد اللطيف شراره

حكمة التاريخ

- أحوال وأقوال
- محاورات مع التاريخ
- نحو المستقبل

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل
الدار الإفريقية العربية
دار الكتاب العالمي

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

الشركة العالمية للكتاب ش م ل
طباعة - نشر - توزيع

مكتبة المدرسة

دار الكتاب العالمي

الدار الافريقية العربية

الادارة العامة
الصنائع - مقابل الاذاعة اللبنانية
هاتف ٢٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٣٧٠ - ص ب ٣١٧٦
تلكس LE ٢٢٨٦٥ - برقياً: كتالبان
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

١٩٩٠

مقدّمة

ما أكثر العِبَرَ وأقلّ الاعتبار!»

هـذه الكلمة التي قيلت قبـل قرون وقـرون، تنـطبق اليـوم بحـذافيرهـا على كل بلدٍ ومـدينة وقـريـة، في كـل قـارةٍ من قـارات المعمورة الخمس، وتجـد صحتها في كـل جانبٍ من جـوانب الحياة الإنسـانية التي يتنـاولها التـاريخ، حتى ليكـاد المرء يحسب أن انتشار الثقـافة على تعـدّد آفاقهـا وفروعهـا، وتقـدم العلوم، وازدهـار الفنـون، ورواج التقنيـات واللغـات والآداب، كل ذلك لم يثمـر في دفع الإنسـان، على العموم، نحـو ما فيـه راحة بـاله، وإزالـة قلقه، وحمله على السيـر في سُبُـلِ التعـايش والتعـاون، والانصراف إلى نشـدان الحقيقة، وتوطيد الحق، وعمل الخير، وتشييـد السلامين: الاجتمـاعي والدولي.

يمكن تلخيص هذا الواقـع الكئيب في عبارةٍ واحـدة، هي ضآلة الإفادة من التاريخ في جميع الحقول.

هناك سرّ وراء هذا الواقع لا بُدَّ من كشفه، ولا مناص من الغوص في أعماقه، وعرضه بكل عُريه وخفاياه، حتى يتمكن الناس، كل الناس في مشارق الأرض ومغاربها من الاطلاع عليه، وتجنب ما يمكن أن ينجم عنه من شرور، وإلا كيف يمكن فهم هذه الحالة العجيبة الغريبة، وهي ارتطام الإنسانية، رغم علومها وفنونها وآدابها وتطورها، في أوضاع سياسية واقتصادية وأخلاقية، تكاد تشبه أوضاعها منذ عشرين قرناً، فهي لا تزال تشكو الشكوى نفسها من الذين جعلوا «بيت الرب مغارةً للصوص»، ولا يزال المستضعفون، شأنهم شأن المحرومين والمعذّبين والبائسين، يعانون البلاء نفسه الذي حول الأرض إلى «وادي دموع»، وكأن أحداً لم يعرف التاريخ، أو سمع بالتاريخ، أو فهم التاريخ!..

كان ابن خلدون قد أوضح بما لا مجال لشكٍّ بعدُ فيه أو ضياع، أن في «باطن التاريخ نظرٌ وتحقيق، وتعليلٌ للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيلٌ في الحكمة عريق، وجديرٌ بأن يعدّ في علومها وخليق».

لا جدال أن هذه النظرة إلى «باطن التاريخ» وحدها، توجز ما ينبغي للإنسان، كل إنسان، أن يتعلّمه من الحوادث

والأحوال والأخبار والأقوال، في حاضره وماضيه ليأخذ في هندسة مستقبله، حين يصبح قادراً على الشروع في هذه الهندسة. وما ينبغي للفرد في هذه الحال، جديرٌ بسعي الجماعة أيضاً، بالغاً ما بلغ عددها من القلة أو الكثرة.

ولا جدال كذلك، أن هذه النظرة تُغْني ببساطتها، وسهولة الأخذ بها، عن آلاف المجلّدات التي تناولت قضايا التاريخ، وأوغلت بعيداً في فلسفته، وطريقته، وفائدته وقيمته، منذ ظهر هيرودوتس إلى أيامنا هذه، فخير الكلام ما قلّ ودل. وليس لعامّة الناس من جدوى ذات بال، في الاطلاع على نظريات هيغل، وآراء ماركس، وكونت، واشبنغلر، وتوينبي، وكولنغوود، وغيرهم وغيرهم ممن أفاضوا وأسهبوا، وماجوا وهاجوا في الهجوم والدفاع عن أفكارهم، فللتاريخ ظاهر وباطن، كما بيّن ابن خلدون، وعليك أن تدرك ما في باطنه، لتبلغ فكرة يطمئن إليها قلبك، وحقيقة ـ أو جملة حقائق ـ ترشدك في نياتك وأعمالك.

* * *

التاريخ ينبوع الحكمة العملية:

ذلك ما يصح الأخذ به في بدءٍ من كل تفكير. والحكمة المنشودة في كل عصر ومصر، إنما هي العملية. أما النظرية،

فقد تعثر عليها في التاريخ، تاريخ الفكر خاصّة، ولكنها ليست من شأن المجموع، ولا هي موضع اهتمام الجمهور. وإذا كان هذا الجمهور قد أقبل ويقبل على القصص بمختلف أنواعه (الأسطورة، الأمثولة، الحكاية، الأقصوصة، الرواية المسرحية) فلأن هذه الأنواع تشبه التاريخ في سرد الأحداث، وعرض الوقائع الخيالية والحقيقية، وتعنى ـ وذلك هو الشائق فيها ـ بتصوير العواطف والأحلام والتمنيات والأوهام. وكان أحد المفكرين قد بيّن: «المؤرّخ الذي يجهل عالم العواطف، أي عالم الطموح السياسيّ، والتعصب الديني، والصراع الاقتصاديّ الاجتماعي، يعطينا تجريداً جافّاً للأحداث التاريخية... التاريخ تاريخ عواطف، ولكن إن حاول أن يصبح عاطفياً، بَطَلَ أن يكون تاريخاً».

ها نحن نقترب من «السر» الذي يمنع الناس في هذا العصر من استلال العبرة الصحيحة، والسير بمقتضاها، والعمل على الأخذ بها في كل حقل ومجالٍ وميدان، ولا سيما في حقول السياسة، ومجالات الاقتصاد، وميادين الأخلاق، فمن الملاحَظِ أن أفراد الجمهور، أي جمهور، يرتجلون من أنفسهم «مؤرّخين» في معظم الحالات والمواقف والاجتماعات والمناقشات، ولكنهم مؤرخون عاطفيون، وبذلك ينزلقون في منحدرات الأباطيل والأضاليل، ويظهرون

متأثرين، على غير وعي منهم، بهذه أو تلك من الدعايات.

بقي أن نشرح القول الذي أيدناه، وهو أن التاريخ تاريخ عواطف. وهنا، لا معدى عن الاستعانة بنظرةٍ علميةٍ حديثة ترى أن «الحياة الفكرية تجد تفسيرها في الحياة العاطفية، فإن في نقطة المركز من كل فكرة، تختبىء عاطفة».

ثم لا معدى عن الإشارة إلى تبويب العواطف وتصنيفها، وتركيزها على قواعد لا يهدينا إليها سوى التاريخ، والعواطف تدور بين نقيضين: الهدم والبناء، أو البغض والحب.

العواطف الهدّامة تجد خلاصتها أو جملتها في البغض وما يرادفه ويتفرّع عنه كالانتقام والحقد والسَّفَهِ والشحّ والغيرة والاستبداد، وما أشبه...

والعواطف البنّاءة تجد أيضاً خلاصتها أو جملتها في الحب وما يرادفه ويتفرع عنه كالتسامح، والعطف، والإحسان، والتحلّي بالأدب، ونبذ العنف، وحسن المعاشرة والمعاملة، وما أشبه...

وتلك هي الحكمة التي ينجلي عنها التاريخ، تاريخ الإنسان في كل مكان وزمان.

* * *

وللتاريخ طريقته في الإفصاح عن حكمته.

لقد تبين بعد إنعام النظر، وتأمل الأحداث، والبحث في الأسباب والمسببات، أن ثمة أحوالاً نفسية واجتماعية وسياسيّة، دفعت الناس - والمفكرين منهم خاصّة - على أقوالٍ تنيرُ الواقع في كل شأنٍ وحالةٍ وموضوع. وقد سجّل التاريخ تلك الأحوال، وحفظ هذه الأقوال، وإن فاته الكثير مما لم يستطع تسجيله، ولم يتمكن من حفظه، وظلت الحكمة تقضي الأخذ بهذه القاعدة: «ما لا يدرك كله، لا يترك جُلّه».

ثم إن الأحوال تتشابه، وإن اختلفت مكاناً وزماناً، والأقوال تتكرر، وإن تنوّعت لساناً وبياناً، فلا غنى عن إعمال الفكر، في وجوه الشَّبَه، وتلاقي الخواطر، وتدبُّر المعاني التي تفيض بها الحياة الإنسانية، في كل شعبٍ وجيل وبلد.

ولقد كان من شأن هاتيك الأحوال والأقوال، وهي مما يستعصي على الحصر والجمع، أن تحدِث ضروباً من الخلاف في الرأي، والشعور، والاتجاه، مما أفضى إلى نشوء محاورات - ومجادلات أو منازعات - عبر التاريخ، بين مختلف الآراء، والمشاعر، والاتجاهات. وكانت هذه المحاولات أو المجادلات تشكّلُ إحدى الطرائق التي يفصح بها التاريخ عن حكمته.

و«القيمة الحقيقية للتاريخ ترجع لأثره في التربية، بحثِّ الناس على التفكير في الماضي، وتوسيع عقولهم، وتهيئتها لفهم الأحداث الجليلة، والعطف على أنواع الطبائع الإنسانية التي لا حصر لها».

ولكن التربية المستندة إلى التاريخ، عمليةٌ لا تتأدّى بمجرد الحثّ على التفكير في الماضي، وإنما تقوم، أكثر ما تقوم، على ملاحظة ما جرى في التاريخ نفسه، من تلاقي الأفكار، وتحاورها، وتنازعها، بحيث يشارك القارىء، وهو يتابع الحوار، في ذلك التلاقي والتنازع. وذلك هو الجديد في هذا الكتاب.

وثمة لحاظ آخر، هو أن التربية، سواء استندت إلى العلم، أو الفن، أو التاريخ، إنما تواجه، أكثر ما تواجه، أوضاع المستقبل، وتعدّ الإنسان للمستقبل. والمستقبلُ ينظر إليه من خلال الفكر، ولا سبيل إلى الحديث عنه أو الإعداد له، إلا انطلاقاً من تصورات، ومفاهيم، وتأويلات، وطرائق فهم...

* * *

هذه الحقائق بجملتها ـ وكلّها مستقاة من التاريخ ـ أملَتْ عليّ، وضع هذا الكتاب في ثلاثة أقسام:

أولاً ـ أحوال وأقوال.

ثانياً ـ محاورات مع التاريخ.

ثالثاً ـ نحو المستقبل.

والأقسام الثلاثة هذه، كتبت أول ما كتبت، في أحاديث أذيعت، ونشر بعضها، وكان لها صدى محبّب ـ ومدوٍّ أحياناً ـ في مختلف الأوساط التي استمعت إليها، أو اطلعت عليها.

هل تُوفق إلى أداء المهمة التي تسعى في أدائها؟

آمل ذلك... والله وليّ التوفيق.

٢٤/١٢/١٩٨٨ **عبد اللطيف شرارة**

القِسمُ الأوّل

أحـوال وأقـوال

الحكمة

أصبح الناس هذه الأيام في حاجة إلى أشياء كثيرة قد يعرفونها وقد لا يعرفونها، وهذا موقف يبدو غريباً في منتهى الغرابة، إذ كيف يشعر الإنسان بحاجة إلى شيء ثم لا يعرف هذا الشيء الذي يحتاج اليه..

ذلك هو الواقع، أو تلك هي حالنا في هذا العصر، وضمير الجمع المتكلم في لفظة «حالنا» يعود إلى المعاصرين، إلى أبناء هذا الزمان، أينما حلّوا، ولا يقتصر على جنس أو لون أو ملة أو بلد.

ولن يكون من المبالغة أو الغلو في شيء إذا لحظنا هذه الظاهرة، وهي أن بلدنا لبنان يوشك أن يكون، حتى في حالته الراهنة التي ينعتونها طوراً بالأزمة، وطوراً بالمحنة أو المأساة، فَذّاً، فريداً في عالميته المتميزة، فهو لا يزال يمثل على نحو من الأنحاء، حياة العالم الراهن برمته. وهو يعاني اليوم ما يعاني لا لأنه لبنان وحسب، وإنما لكونه صورة

مصغـرة لما يعتمـل في العالم من شؤون التـاريـخ، وقضـايـا الاجتمـاع البشري، وتـلاقي الثقافـات وتفـاعلهـا، واصطراع الإيديولوجيات وتعاونها وانـدماجهـا في الحياة الإنسـانية على كل صعيد.

وليس في ظهور هذه الحالة الفريدة ما يدعـو إلى العجب، ولا سبيـل فيها إلى اتهـام بالغـرور، أو اندفـاع مع خيـال، أو تصور لوجود غير قائم في الوجـود، وإنما هي حقيقـة عاريـة، مـاثلة للعيان، يسـتطيـع أن يلمسهـا كـل من تلمس الحقـائق المماثلة، وأن يدركها كل من يبذل الجهد الملائم لإدراكها.

وهنـاك، في كل عصـر من عصور التـاريخ، أشيـاء تخفى على الذين لا يفكرون فيهـا، حتى إذا أتيح للنـاس من يلفت انتباههم، أو يوقظ عقولهم، رجعوا إلى أنفسهم وأعادوا النظر فيما حولهم من شؤون تبعثهم على الشكـوى، أو تحرك فيهم بـواعث القلق، أو تمنعهم عن رؤية وجـه من وجوه الـواقـع، وإذا بهم يقولون، وكأنهم أفاقوا من حلم: «هذا صحيح».

لقد كان غبريل مـارسيل، الفيلسـوف الفرنسي المعـاصر، أول من التفت في أيـامنـا هـذه إلى ذلـك الهبـوط في قيمـة الحكمة. وهو لم يلتفت لهـذا المعنى إلا من خلال مـلاحظة أثـارت انتباهـه، وهي زوال احترام الشيخـوخة من النفـوس، فقد تبين له ـ وكان على صواب ـ أن الحكمة امتياز الـطاعنين

في السن، ومذ كانت الحكمة قد هوت عن الأريكة العالية التي احتلتها من قبل، زالت بالتالي هيبة الشيوخ. . .

غير أن الازدراء بالحكمة في هذا العصر يفيد من جهة أخرى، تعلقاً غير مبرر بالرعونة، واستسلاماً للطيش، وانسياحاً مع النزوات، والشهوات، وانزلاقاً في العثرات. وليس هذا هو ما يريده هؤلاء الذين سخروا من الحكمة والحكماء، واسترسلوا مع العبث وقالوا بعدم الاكتراث، وتصباهم اللا معقول، وانداحوا في دائرته وهم سادرون.

تلك حالات عرفها الأقدمون ولم تكن وقفاً على جيل أو أمة أو بلد. كان المتنبي مثلاً يقول:

لا تلق دهرك إلا غير مكترث

ما دام يصحب فيه روحك البدن

فما يديم سرور ما سررت به

ولا يرد عليك الفائت الحزن

وتلك بالضبط حالة نفسية عابرة، تبعث عليها ظروف خاصة، وليست حقيقة ثابتة، يمكن الاطمئنان إلى صحتها، لأنها على طرف النقيض من حركة الحياة، وبالتالي من الحكمة المنشودة فإن الحكيم الحقيقي كما بين (ديكارت) يحاول أن يغلب نفسه، أكثر مما يحاول أن يتغلب على القدر

ويسعى في تبديل رغباته لا أن يغير نظام العالم.

وإذا كان للمتنبي أن يُقْنِعَنا بأن السرور لا يديم ما نُسَرُّ به، والحزن لا يردّ علينا الفائت، فإنه لا يستطيع اقناعنا بالاستمرار في عدم الاكتراث، لأن هذا الاستمرار مخالف لنظام العالم، فضلاً عن استحالته، وخروجه عما هو في إمكان الإنسان، فلا يبقى إلا أن نعمل على تغيير أنفسنا بما يلائم قوانين الطبيعة، وينسجم مع الإمكانات المتاحة..

وتلك هي الحكمة الصحيحة. ولا غنى عن هذه الحكمة في هذا العصر خاصة، لأن الثابت من أحوال النفس والمجتمع والطبيعة شيء واحد، هو إمكانية التغيّر. وتغير النفس يجر معه تغير الفكر أو العقل. وذلك هو الواقع الذي لحظهُ الأقدمون وقرروا انطلاقاً من هذه الملاحظة، ما يشف عن قولهم: «لله خواص، في الأزمنة والأمكنة والأشخاص».

هذا المعنى الذي يحتم ضرورة الأخذ بالحكمة حتى في التصرف بالقانون ومع القانون، هو الذي أدركه المفكر الروسي الكبير (نقولا بردیایف) حين بيّن أن (القانون لا يعترف بشيء اسمه (المأساة) ولا يعرف إلا مقولتي الخير والشر. ومن هنا كان الحل القانوني للمنازعات المأساوية مستحيلاً).

إزاء هـذه الحقـائق التي لا نملك تجـاوزهـا أو إغفـالهـا، يصبح من الحكمة أن نعيد النظر في الأحوال، ونتتبع تغيراتها ونتعرف إلى تجارب الأقدمين والمحدثين، ونفيد من أفهـامهم وأقوالهم. وهذا ما نحاوله في هذه الأحاديث

العلم

رأينا في الحديث السابق أن الحكمة تقتضي صاحبها، أي الحكيم، أن يضعَ في اعتباره، أول ما يضع، قابلية التغيّر التي تتسم بها النفس، والطبيعة والمجتمع على السواء فلا غنى للإنسان كائناً من كان عن اللجوء إلى الحكمة في كل شاردة وواردة من شؤون الحياة العملية.

ننتقل الآن إلى أفق فكري رحيب هو الآخر، إلى العلم الذي قضت الإنسانية عمرها، وهي تفكر فيه: تمجده تارة وتنقم عليه تارة. تقيم له المعابد والمعاهد في آن، وتنصرف عنه ساخطة، حانقة في آن.

علينا، حيال هذه التناقضات في المواقف التي نتخذها من العلم أن نتذرع أيضاً بالحكمة، وسنجد أن البرم بالعلم، والتذمر منه، والسخط على ما أنتج وقدم - في حالة الحرب مثلاً - كل ذلك لا يجدي، ولا يقطع دابر الشر، ولا يمنع الأذى، وأن لا غنى عن الأناة والروية في تدبر هذه الحالات وما يشبه هذه الحالات.

ذلك بأن النفور من العلم والنقمة على العلماء، يسوقان حين يبلغان آخر مداهما إلى القول بأفضلية (الجهل). وليس في العالم كله، على رحابته، عاقل يقول بذلك عن اقتناع وإيمان.

لا فائدة إذاً من (نرفزة) كهذه. تلك النرفزة التي جعلت مفكراً مثل جان جاك روسو يرد العلوم كلها إلى الأنانية والبخل والطمع، إلى سوء الأخلاق بكلمة.

كان رينان يقول: (نعم، سيأتي يوم لا تؤمن فيه الإنسانية بعد ولكنها ستكون على علم، يوم تكون به على معرفة بعالم ما وراء الطبيعة والأخلاق، كما قد أصبحت على معرفة بعالم الطبيعة..

عندما قاله رينان ـ وهو الذي عاش ردحاً من الزمن في لبنان ـ قبل أكثر من قرن كامل وفي حسبانه انه كان يتنبأ، وأن اليقين فيما تنبأ إذ أورد كلاً من هذا في كتاب (مستقبل العلم). وجاءت الأيام والأحداث من بعد لتبيّن أن مثل ذلك الكلام وما أكثره ـ لا يخرج قيد شعرة عن(حيّز الظن)، والسائد في ديارنا أن الظن لا يغني من العلم شيئاً.

ها نحن نمسك بطرف الخيط الذي يؤدي بنا إلى الحقيقة، وترضى به الحكمة، وهو أن نُفَرّقَ على الدوام

تفرقةً واضحة بين الظن والعلم، لأن الظن ينبع من داخل النفس لينصب على أشياء غير منظورة ولا معروفة من نفوس الآخرين،ويحملها على تصور ما قد يجري أو لا يجري، بينما العلم ينصب على أشياء خارجية يستطيع الآخرون التعرف إليها،ولا مجال للتصور في شأنها.

وذلك ما أوضحه باسكال أروع إيضاح في قوله: (العلم بالأشياء الخارجية لا يعزيني عن الجهل بالأخلاق في زمن الاكتئاب، ولكن العلم بالأعراف الخلقية يعزيني دوماً عن الجهل بالأشياء الخارجية).

إذا بلغنا هذه المنطقة من الحكمة التي نفرق فيها دائماً بين الظن والعلم، أتيح لنا أن نفهم فكرة باستور الآتية: (ليس ثمة علوم تطبيقية فإن الجمع نفسه بين هاتين الكلمتين شيء مزعج، وإنما هناك تطبيقات للعلم ـ وهي شيء مختلف تماماً).

وهذه فكرة تبدو غاية في الخصب، لأن التفرقة بين العلم وتطبيقاته ذات خطورة كبرى، لا تقل عن خطورة التمييز بين العلم والظن، لأنها تمكننا من الرد على روسو وإفحامه ساعة نبين له، وعلى يد عالم متنور مثل باستور، أن العلم شيء وتطبيقاته شيء آخر، وأن مآخذه على العلوم ترتدّ على

مطبقيها فلا يجوز ولا يصح اتهام العلم بما هو منه براء . .

والظاهر أن المبدأ العام الذي أخذ به الأقدمون في تراثنا، لا يزال كما أثبتت التجارب ـ هو الأقوى والأفضل والأرسخ، وأعني به وحدة الذات الذي يجعل العقل مندمجاً بالعاطفة والإرادة مندمجة بالعقل، على نحو ما نجد في معظم المؤلفات المعنية بالإرشاد والتوجيه مثل (محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء والبلغاء) (للراغب الأصفهاني)وكتاب (المستطرف في كل فن مستظرف) للابشيهي . .

إنا لنقع في أول فصل من كتاب (المحاضرات) مثلاً على هذه العناوين الفرعية: حاجة الفضائل إلى العقل، حاجة العقل إلى الأدب، ضياع العقل يفقد التقوى، ذم من له أدب بلا عقل.

ثم نقع على هذه القصة الطريفة: (كان ابن المقفع والخليل يحبان أن يجتمعا ثم التقيا ثلاثة أيام يتحاوران فقيل لابن المقفع: كيف رأيته، فقال: هذا رجل عقله زائد على علمه. وسئل الخليل عنه فقال: هذا رجل علمه فوق عقله).

والمراد في هذا العصر، هو المراد في كل عصر: أن يرافق العلم عقل راجح وخلق رفيع، كي تتحقق وحدة الذات الإنسانية لدى كل إنسان.

المعرفة والثقافة

كانت الأمثال ترد على الألسنة في ديارنا اللبنانية والعربية عامة، وحتى العامّية منها بصيغة السجع: (لا تقول فول حتى يصير بالمكيول)، فإذا رجعت إلى القديم في هذا الشأن، وقعت على غرائب الأفكار ونفذت إلى عالم يوشك أن يشكل ثقافة متكاملة، مترامية الأطراف يعجب واحدنا لِما هي عليه من سعة ودقة وصفاء تعبير:

- من أفشى سره أفسد أمره.
- سوء التدبير، سبب التدمير.
- إذا ملك الأراذل، هلك الأفاضل.
- أشرف الغنى، ترك المنى.
- من حلم ساد، ومن تفهم ازداد.

لا أستطيع أن أخوض بالشرح والتفصيل في هذه الأمثال الخمسة فإن كل واحد منها يتعلق بعلم أو آخر من العلوم التي خصصت لها المعاهد والكليات والجامعات كعلم النفس،

والحقـوق والاقتصـاد والسيـاسـة وكلهـا متـرابـطة فيمـا بينهـا متشابكة، متداخلة.

غير أني مضطر إلى الإفاضة في الحديث عن المثل الأخير (من حلم سـاد، ومن تفهم ازداد). لأنـه يتنـاول هـذه العلوم جميعها، بنسبة مـا يكشف ترابـطها وتـداخلها، أي انـه يبسط أمام عقلك وقلبك ونشاطك حقول المعرفة على أنواعها وآفاق الثقافة العامة من أيسر السبل وأقومها وأوضحها.

ولا غنى باديء ذي بدء عن توضيح الجانب اللغوي، فـإن لـدينا في العـربيـة كلمتين: (حَلَمَ) بفتـح الـلام. و(حلُمَ) بضمهـا: الأولى تعني: (رأى في منامـه والثـانيـة تفيـد (ملك طبعه وغضبه وصفح وستر، فهو حليم).

هكـذا. . . تبدأ الثقافة، أي بمعـرفة اللغـة في أول منـزلـة ودلالات الألفاظ والعلامات.

ثم إن لكل شيء في هذا العلم المتنوع المتعدد، المتغير تـاريخه، فللعلم، لأي علم تـاريخ، وللفن تـاريخ، ولـلأدب تـاريخ ولا بـد للمثقف أن يلمّ ببعض من تاريـخ الأشياء التي يوليها اهتمامه ولا سيما لذوي الثقـافة السيـاسية أو المشتغلين بشؤونها.

ولا تحسبن الأمر وقفاً على الذاكرة، أو حفظ المسمـوعات

والمقروءات، وإنما هو تحول المعرفة في ذهن المثقف إلى ينبوع لا ينضب يمُدّ صاحبه بالخيال الملائم والفكر الملائم والشعور الملائم في كل موقف وحالة ومسلك. وهذا ما أوضحه إدوار هريو الذي قضى ردحاً طويلاً من عمره رئيساً للبرلمان الفرنسي حين قال: (إنما الثقافة هي ذاك الذي يبقى حين ينسى كل شيء).

وكان جي لوكليرك قد زاد المسألة وضوحاً بقوله: (ليست هنالك ثقافة بالمعنى الحقيقي إلا عندما يمتد الفكر إلى البعد العالمي).

وثمة من يرى أخيراً مثل غوستاف باشلار، وغيهينو، أن الثقافة تتمثل أكثر ما تتمثل في ضرب من الاستعداد للمعرفة وتجاوز ما هو متغير، والأخذ بالحقائق القابلة للنمو والازدهار في كل مكان وزمان.

هنا نعود إلى المثل الذي أشرنا إليه: (من حلم ساد، ومن تفهم ازداد) فنجد أن الثقافة في مفهومها الحديث انقلبت إلى هذه المحاولة المستمرة التي يبذلها المرء ـ والمرأة أيضاً ـ للتفهم، وكلما تفهم في ظرف، ازداد استعداداً لتفهم أكثر في ظرف آخر. وهلم جرا. . إلى ما لا نهاية.

أصبحت الثقافة إذاً، معنى يتصل أوثق الاتصال بحياة

النفس ودوام النمو في هذه الحياة، رغم تقدم في السن، وتبدل في الأوضاع لأنها تعتمد أكثر ما تعتمد على سعة الصدر ومرونة الذهن في تقبل المتغيرات، والصبر على القسوة أو المرارة التي تتسم بها الوقائع والحقائق في كثير من الحالات والأحيان، أي أن الثقافة والجمود الفكري لا يلتقيان بعد أبداً ولا يجتمعان في ذات إنسان.

وهؤلاء الذين يفرغ صبرهم ويضيقون أشد الضيق بما يشهدون من تقلبات وتناقضات، ويرتاعون حيال ما يحسبونه غير معقول أو غير مقبول دون بذل له أدنى جهد للتفهم، إنما يقفون بذلك ضد أنفسهم، ويرفضون التغير والتغيير. وهذان حاصلان، قبلوا ذلك أم لم يقبلوه. .

الثقافة الحديثة هي التي تسعى بمفهومها الحديث في جعل الإنسان مرناًأولاً ،وقبل كل شيء.

إنها تقاوم الجمود في الفكر والشعور والعمل وتمكن الإنسان من التحرر والتفهم وتتركه يجرب، ويتحمل تبعات حريته وتجاربه.

نستطيع الآن وقد عرضنا بعض الجوانب الفكرية من الحكمة والعلم، والمعرفة والثقافة، وذكرنا بعض ما قيل في شأن كل منها ـ نستطيع أن ننظر في هذا السؤال: على مَ كانت تلك الجهود المضنية التي بذلها الإنسان، ولا يزال يبذلها في سبيل هذه الأشياء؟

ـ السؤال هذا لا يورده حكيم ولا يخطر ببال عالم من العلماء أو عارف بالحياة ومشكلاتها، فضلاً عن أن يطرحه مثقف، أياً كان الفرع الثقافي الذي يعتمد عليه اهتمامه. .

ولا بد مع ذلك من الإجابة عن هذا السؤال الذي ينطرح على كثير من الأذهان دون أن يفكر طارحوه أو يحاولوا الإجابة من تلقاء أنفسهم قبل أن يطرحوه.

وأول ما ينبغي لفت الانتباهِ إليه أن للحياة مستويات: منها ما هو عال، ومنها ما هو متوسط ومنها ما هو أخيراً دنيء أو منحط، أي أن المجرم واللص والمتسكع والمُتسول والطفيلي،

ومن إليهم. . أناس يعيشون أو يتمرسون بالحياة، ولكن على نحو يختلف كل الاختلاف عن النحو الذي يمارس به العمال والفلاحون وأصحاب الحرف اليدوية حياتهم، وشتان بين الحياتين: أولئك فقدوا إنسانيتهم وهؤلاء احتفظوا بها. أولئك تحولوا إلى كائنات تشبه البهائم وهؤلاء ارتفعوا عن هذا المستوى، وشقوا طريقهم إلى المضي في هذا الارتفاع أو متابعته.

إذا أشرفت على هذا الأفق وأنت تنظر في شؤون العالم والحياة ينفتح ذهنك على فكرة (المصير)،فإن أحداً لا يرضى لنفسه أن يكون لصاً أو مجرماً أو متسكعاً أو متسولاً. . . وتلك هي الغاية من هاتيك الجهود الجبارة التي بذلت وتبذل في سبل المعرفة والعلم والحكمة والثقافة أي رفع المستوى لدى الفرد والمجتمع معاً تلافياً لمصائر السوء وتحقيقاً لإنسانية الإنسان.

كتب هرمان ده كايزر لنغ يقول: (إنما يستطيع الإنسان أن يبلغ مستوى أعلى في حالة واحدة، هي حين يتعلم، أن ينظر إلى نفسه كما هو، وينطلق من ثمة إلى تجسيد مثله العليا بما هو قائم في وجوده الراهن، بدلاً من أن يمضي في إثبات وجود ليس له وجود).

هذا القول يجرنا إلى التفكير في ذلك الشيء الغامض البعيد الشاق الذي نسميه (المثل الأعلى) ونحن نسعى إليه في أعمال إيجابية ونتفادى في ظله المصير من الناحية السلبية.

هنا، نعود إلى ما بينه أحد المفكرين المحدثين: (يمكن التمييز بين ثلاثة أشكال من المثل الأعلى الشخصي، أو ثلاثة طرز من الحياة: الحكيم والبطل والقديس، وهذه المفاهيم الثلاثة تلتقي عند شيء واحد مشترك فيما بينها هو أنها تضع الأخلاقية كلها في إطار القيمة الداخلية. علينا أن نجهد في إنقاذ قيم الحياة الداخلية، شرط أن نضع في حسابنا في الوقت نفسه، ضرورات الحياة العصرية والجانب الاجتماعي للأخلاقية التي تفرضها علينا).

لا يمكن أن يصبح الناس كلهم أبطالاً أو قديسين، غير أن في إمكانهم جميعاً، أن يكونوا حكماء، لأن لكل مستوى وكل موقف، حكمة تختص به ويختص بها، فهي تقوم على الذكاء من جهة ولها أن توجه النشاط الداخلي من جهة أخرى وأن تستنبط أسلوباً في العيش ينسجم مع كل حال للانتقال من مستوى أدنى إلى ما هو أعلى منه. وهكذا... إلى ما لا نهاية.

وإذا لحظنا فكرة (التوبة) في الأديان ـ وهي فكرة شائعة

ومعمول بها ـ نتبين على وجه الدقة، أن التحكم بالمصير الشخصي معنى وارد من أقدم العصور إلى اليوم، وأن القضاء أو القدر المحتوم لا يتنافى بحال من الأحوال مع الحرية الداخلية.

ولا ندحة عن إيضاح بعض الحقائق في مواجهة هذه الإمكانية، إمكانية التحكم بالمصير وعلاقتها بما هو مقدر أو محتوم فقد ورد لدى حكمائنا الأقدمين كثير من الإرشادات التي تمس هذه الناحية كقولهم: (الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأي، والرأي بتكرار النظر وتحصين الأسرار).

ذلك معناه أن الوقوف أو الجمود عند كلمات غامضة الدلالة كـ (المصادفة) و (القدر)، واعتبارها وقائع نبني عليها تفسير ما يُصيب الأفراد والجماعات من كوارث لا يقومان ـ أي ذلك الوقوف وهذا الاعتبار ـ على أساس فكري سليم، فهما من نتاج الكسل العقلي وضعف النفس أو الهمة.

الصواب في جانب بول برنتون حين بين: (إننا إذ نحول ما يحدث إما إلى (المصادفة) وإمّا إلى (الضرورة)، نطرد من حياتنا إمكانية نشوء تحليل تاريخي يتسم بالجد والرصانة).

لم يبق إلا أن ينشط الإنسان لتحقيق إنسانيته وتوجيه فكره، واستخدام الحكمة ليرفع مستواه ويتحكم بمصيره.

الفكر

يكاد الإجماع، إجماع المفكرين القدامى والمحدثين، ينعقد على أن قضية المصير تجد حلها الحقيقي في عالم الفكر، ولا سبيل إلى حلّها إلا عن طريق الفكر.

والفكر، إذا نحن أعملنا الفكر السليم، غير الخيال، وغير العاطفة، وغير الرؤى التي تعرض للنائم، وغير الوساوس أخيراً التي تستولي على ذهن الخائف والمحزون والناقم والمتعب والثمل والمرح. ما هو الفكر إذن؟ وكيف يكون؟ وأين نجده؟ ومن أين يرد أو ينبع؟

- لا بد في الإجابة عن هذه الأسئلة من الرجوع إلى الوقائع والاعتماد عليها، وتدبر وجوهها وملاحظة نشوئها وتناميها وترابطها، لأن الفكر ينبع من الداخل، داخل الذات الإنسانية وهذه الذات عرضة للكثير من العلل والآفات والأسقام التي ذكرنا بعضها قبل لحظات من الخوف إلى الحزن إلى النقمة، إلى التعب إلى المرح الطاغي، إلى . . .

مما حدا بعضهم على القول: (الواقعة الخارجيّة هي (جهد) الحالة الداخلية، وعلامتها دفعة واحدة. ولكن علاقتهما تفلت من قبضة الوعي).

الوقائع الخارجية هي الأساس والمعيار والدليل إلى صحة الفكر لأنها قادرة على إظهار الأوهام بمجرد حدوثها في الخارج، ودحض الأكاذيب لأنها (وقائع). . .

وكان مارسيل ديشو قد اتبع طريقة موفقة فريدةً في كشف الأوهام بأن يعقد مقارنة بين الأفكار والوقائع، ثم بين الوقائع وأحوال الرجال وصفاتهم. وتبين له بعد البحث والتفكير أن الأوهام ليست سوى (أفكار) ولدت في رؤوس أشخاص يعوزهم الفهم، أو ينقصهم الصدق، وأن التخلي عن السذاجة، عملية ضرورية ومبدئية في عقد مثل تلك المقارنات.

يقول ديشو: (انهم جدّ ساذجين أولئك الذين ينتظرون وفاق الناس حول رؤية أخيرة وموضوعية لحقيقة تنكشف للجميع بلا تشويه).

ذلك لأن في الناس من يعوزهم الصدق، ولا وجود للموضوعية في نظر هؤلاء الذين هم غير صادقين، ولا يكفي أن يكون لهم عيون ليبصروا بها).

ما العملُ إذاً مع هؤلاء وأمثالهم؟

- قد يخيل إلينا أن للمنطق سلطة يمكن الإفادة منها في تقويم الفكر أو تصحيحه، عند بعض الناس. ولكن ديشو يرد قائلاً: (المنطق لن يقنع أيضاً أولئك الذين هم صُمٌّ أمام كل عقل لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء الاصغاء لجرس صوتهم نفسه). وهذا مرادف كل المرادفة لما كان المتنبي يردده:

ومن البلية عذل من لا يرعوي
عن جهله، وخطاب من لا يفهم

وحريّ بنا في هذا المقام، أن نلفت الانتباه إلى ناحية غير جلية في تكوين المنطق من جهة، وتكوين بعض النفوس من جهة أخرى، وهي أن المنطق ذو صفة إنسانية خالصة بمعنى أن الحيوان لا يشارك الإنسان فيها بشيء أبداً... ولذا عرف الأقدمون الإنسان أول ما عرّفوه، بأنه (حيوان ناطق). والنطق دلالة على الفكر. والفكر فيما خطر لديكارت، علامة الوجود، كما يتضح من مقولته الشهيرة: (أنا أفكر، إذن أنا موجود).

ويظهر من بعض الحالات، لدى البعض من الناس، أن تكوينهم العقلي أو النفسي لا يسمح لهم بإيلاء المنطق ما يستحق من إذعان أو قبول.

ويظهر كذلك أن ثمة أفراداً ـ وجماعات أيضاً ـ لا يجدي فيهم الفكر، ولا سبيل إلى حملهم على التفكير، كما لاحظ ديشو والمتنبي قبله، وعند ذلك يصبح الإنسان إزاء حالة يضطر معها إلى التخلي عنهم، وتركهم لمصيرهم، فقد جاء في قول مأثور: (ستة لا تخطئهم الكآبة: فقير قريب العهد بالغنى، ومكثر يخاف على ماله، وطالب رُتبة فوق قدره، والحسود، والحقود، وخليط أهل الأدب وهو غير أديب).

هؤلاء الستة الذين لا ينفع فيهم سوى التخلي عنهم لمصيرهم ـ وقد عرفهم التاريخ في كل عصر ومصر ـ تجمعهم ميزة واحدة، هي أنهم استغنوا عن بذل كلّ جهد لفهم واقعهم، وغدوا في موقف لا يحسنون معه تفسير الصمت. وكان شارل روهمر، أحد المفكرين الأفذاذ قد بيّن هذا المعنى بقوله: (إذا كان الآخرون لا يعرفون ترجمة السكوت فإن الكلام نفسه يغدو معهم أيضاً عديم الجدوى).

وهنا ننتقل إلى أدق وأخفى وأقوى ما تنجلي عنه دراسة الفكر في العصر الحديث، ألا وهي قيمة (الفكر الصامت) التي لا يملك البيان بيانها، وإنما تظل معنى يلتقطُهُ الحس، ولا يخطىء في التقاطه، رغم خفائه ودقته. وقد أوضحه برانتيس ملفورد في هذه الكلمات: (الفكرة الصامتة تحدث تأثيراً أوكد، وأعمق من الكلام).

ذلك بأن الفكر ـ كما بيّن فيفيكاناندا حكيم الهند في العصر الحديث ـ (قوة كما هي الحال تماماً في الجاذبية أو الدفع، إذ إن في احتياطي الطاقة الذي تختزنه الطبيعة، أداة تسمى بلغة الهند القديمة (شيتا) (المحتوى الذهني). وهذه الأداة تستقي ضرباً من القوة في شكل فكر. والقوة يمدنا بها الغذاء، والجسم يستل قوة التحرك وغيرها من الأغذية أما القوى الأخرى الأشد خفاء، فإنها تنبت في الشكل الذي نسميه فكراً..).

والحقيقة الكبرى والنهائية أن أحداً لا يملك أن يحسّن المصير ـ فردياً كان أم جماعياً ـ إلا باللجوء إلى الفكر السليم القائم على أساس من واقع الحياة والطبيعة والمجتمع. وكل من يضرب صفحاً عن هذه الحقيقة، يعني أنه يهمل التفكير في المستقبل، ويهزأ بنتائج أعماله وعواقبها ينتهي دوماً إلى وضع أقلّ ما يقالُ فيه: إنه خالٍ من الفكر.

وذلك ما لا يرضى به إنسان.

الفهم

يُـروى أن أحد الحكمـاء قال ذات مـرة: الناس يـرتكبـون الأخـطاء، لا لأنهم لا يعـرفـون بـل لأنهم يفتكـرون أنهم يعرفون).

هـذا القـول الـذي لا يخلو من جمـال، كمـا لا يخلو من حقيقة، يعيدنا إلى تأمل الأشياء والتصـورات التي ينهيها إلينا التفكر. وعودتنا إلى التفكير في نتـائج التفكيـر، تحدونـا إلى مراجعة الأساس الذي أكدنا عليه، وتشدّدنا مراراً وتكـراراً في بيانه، وهو الواقع الثابت الذي ننطلق منه في عملياتنا الفكرية أو الذهنية الخالصة.

والواقع أن الـذهن لا يستطيـع بلوغ اليقين ـ وهذا مـا قرره أساطين الفكر القديم والحديث إلا بفعل حب، والحب الذي يمـازج التفكير، أو التفكيـر الذي يمـازجه حب، هـو المعنى الـذي تعبـر عنـه كلمـة (فهم) ولا سبيـل إلى فهم شخص أو شيء أو مـوضوع أو فكـرة إلا بضرب من التعـاطف مع ذلـك

الشخص أو الموضوع الذي نسلط عليه الفكر.

قد يكون الفكر نفسه عبارة عن (ضوء) ينير لنا الأشياء التي تلامس حِسّنا على نحو من الأنحاء أو تتأثر بها حواسنا، غير أنه يظل كفكر، محكوماً بما لدينا من معلومات وطرائق تعبير، وأدوات بيان، وتظل هذه الأدوات والمعلومات قاصرة بجملتها عن الأداء الكافي.

هنالك على وجه التأكيد حالتان: التفسير والفهم. وكان برلنتي قد بيّن: (نحن نفسر الطبيعة ونفهم الحياة النفسية)، أي أن الفهم يتناول ما هو غير منظور، والتفسير ينصبّ على الظواهر.

ارجع الآن إلى معاجم اللغة العربية تجد هذا التفسير الرائع العجيب الذي ينسجم مع أحدث النظريات الفلسفية (الفهم: معرفتك الشيء بالقلب) مما يفيد أن المعرفة تكون مرة بالقلب ومرة بالدماغ. والمعرفة بالقلب تنطوي على نوع من العطف لا يعرفه الرأس مما يجعلنا نتأمل ونطيل التأمل في قول أوغست بريال: (محاولة الفهم تعني غالبا التعلم أن لا تبغض، وأحياناً تعني التعلم أن تحب). ويوضح ذلك جان روستان العالم البيولوجي الشهير: (الفهم يردنا إلى التسامح مع أولئك الذين يقفون خارج الذين نحبهم).

غير أن هذه المعلومات التي تبدو حديثة، تخالف ما هو شائع في ديارنا اللبنانية ـ والعربية عامة ـ من أن (حبك الشيء يعمي ويصمّ)، وتنسف ما تواضع عليه الجمهور، وتؤكده بعض النظرات مثل:

وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلةٌ
كما أن عين السخط تبدي المساويا

لا غنى في هذه الحالة عن تمييزين واضحين: الأول، تمييز الحقيقة من الخيال، والثاني تمييز السويّ من غير السويّ.

هذان التمييزان يحتمان فصل الحب داخل الذات مع الاحتفاظ به والابقاء عليه، عن رؤية الحقيقة، لأن الفهم لا يتحقق بإدخال ما نتصور أو نريد أو نكره على الوجود القائم في الخارج.

هذا من جهة، ومن جهة مقابلة ليس الإنسان ـ والمرأة خاصة ـ شيئاً يمكننا التصرف به على هوانا، ولنا أن نحذف منه ما لا يرضينا ونضيف إليه ما يروقنا دون أن يكون فيه، وإنما هو عالم قائم بذاته متكامل الأجزاء والحالات والنزعات، فلا يتاح فهمه باتخاذ موقف واحد معين لا نتزحزح عنه سواء كان موقف العالم أو الشاعر أو الحكيم أو السياسي

بل ينبغي مزج هـذه المواقف دفعـة واحدة بغيـة الاقتراب في تكوين فكرة أو مقارنة الأقـوال بالأعمـال، والأعمال بـالوقـائع القائمة خلفها، والأفكار التي تستند إليها.

ثم إن ذوي الصفات المتباينة ـ الشاعـر، الحكيم، العالم، السياسي الخ.. ـ يمكن أن يكونـوا ذوي أهـواء تضـاف إلى صفاتهم المميزة. والهوى بطبيعته أداة غلو أو مبالغة فإذا بـولغ فيـه انحرف صـاحبه عن سـواء السبيل، أيّـةً كانت صفتُـهُ من السمو والعظمة.

لقـد تساءل أحـد المفكرين في عصـرنا قـائـلاً: السيـاسي والعاشق، والصوفي الذي يتحول هـواه إلى فكرة ثـابتة، هـل يظل سويّاً؟

وكـان الجواب: (هؤلاء جميعـاً أسويـاء حين ينطلقـون من واقـع، ولكنهم حين يخلعون على واقعهم أهميـة غير عـاديـة ويخرجون منه بأعمال غير متناسبة، يصبحون غير أسوياء).

الخلاصة: الفهم يحتاج أكثر مـا يحتاج إلى طبـعٍ سويّ، وعقـل نيّر، وقلب ذكي ولا يستقيم بـالسخط، ولا يصلح مـع الرضا.

الحقيقة

أود أن أطلعكم على هذه الحكاية التي قرأتها في أحد الكتب القديمة: (خطب الحجاج ذات يوم فأطال خطبته حتى ملّ السامعون. وعند ذاك نهض شاب توجه للحجاج بقوله: (الصلاة يا حجاج! فإن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك) فأمر الحجاج بحبسه.

وجاء أهل السجين وسألوا الوالي أن يخلي سبيله باعتباره مجنوناً لا يدري ما يقول• ولا يحمل تبعة ما يفعل وكان جواب الحجاج: (إن أقر على نفسه بالجنون أطلقت سراحه).

وحين روجع السجين في ذلك انتفض وقال: (معاذ الله أن أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني). وبلغ الحجاج قوله، فعفا عنه لصدقه.

إذا أخذنا الآن في تحليل هذه الحكاية التاريخية وأردنا النفاذ إلى المعنى الذي ينشده الناس كلهم من أقدم العصور

حتى اليوم في هذه الصفة أو الفضيلة أو الخلق الذي يسمونه (الصدق) فماذا نجد؟.

ـ نجد بكل بساطة أن المراد من الصدق: قول الحقيقة والحقيقة أنواع: منها ما يتعلق بالنفس بالذات، بالأنا ومنها ما يتعلق بالآخر، بالسوى، ومنها ما يتعلق أخيراً بالمعرفة سواء كانت الذات هي الموضوع أو الآخر، أو شيء خارج عن الأنا والآخر معاً.

هل يفيد ذلك أن الحقيقة ترتبط بالمعرفة؟

ـ الأكيد أن المعرفة شيء والحقيقة شيء آخر، الحقيقة واقع قائم بذاته لا سبيل في تغيير صفته هذه إلى الجهل به أو معرفته، بمعنى أنه حقيقي سواء لديه عرفته أم لم تعرفه، واعترفت به أم لم تعترف.

ولنا أن نوضح ذلك عن طريق ذكرى من الذكريات، فإذا روى لك أحدهم (حادثة) جرت معه، وخالجك الشك في صدقه فكيف لك أن تحكم أنها (حقيقة) مثلاً أو خيالية؟

هنا في مثل هذه الحالة نجد أن الحقيقة تحتاج إلى ضمانات، ولا يمكن أن ترسخ في الأذهان أو تؤثر في المجتمع إلا بما يحيطها من ضمانات. وهذه الضمانات هي ما يسمونه (الأسانيد) التي يذكرها رواة الأحاديث النبوية مثلاً،

ويدرسها علم الرجال ويبحث في صحتهـا أو ضعفها أو قـوتها أولئـك الذين تخصصـوا بها وأصبحـوا يتميزون بـالقدرة على المقارنة وتركيز كـل رواية في إطـارها الصحيـح والمعقول من الأشياء الموثوق بها.

وكـل حديث من أي نـوع، ذكرى، وكـان آلان قد أفصـح عن هـذا المـوقف الـدقيق بقـولـه: ليست حقيقـة ذكـرى من الذكريات مضمونة في نظرنـا ولا يمكن أن تكون مضمـونة إلا بـواسطة نـظام متماسـك ومعقول يشكله مـع سـائـر الأنـظمـة الأخرى.

ها أنت ترى بكل بساطـة أن الحقيقة لا سيمـا في مسائـل الاجتماع وشؤون السياسـة وتقلبات الأحـوال والظروف ليست على شيء من السهـولة بـل هي في منتهى العسر. والـوصـول إليهـا يقتضي من المشقة مـا لا يقوى على تحمله سـوى القلة من الناس في كل زمان ومكان.

وليت الأمر يقف عند هـذا الحد من المشقـة في الوصـول إلى الحقيقة إذ إن هناك بكل تأكيد، حقائق يكتشفهـا الإنسان بنفسـه لنفسـه، وحقـائق يؤمن بهـا الجمهـور عن غيـر وعي، ويسعى في فرضها على أكبر عدد من أفراده. وكان أندره جيد يقرر أن الحقائق التي نكتشفها أو نعيد اكتشافها بـأنفسنا، هي

الحيّة، وهي الفاعلة، المؤثرة، أما تلك التي سرت في حياة الناس، وتحولت إلى (تقاليد) فإنها (جثث حقائق).

ها نحن على مفترق طرق إزاء هذا الموضوع الخطير: الحقيقة، فالإنسان في هذا العصر بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يعيش مع الحقائق الحية، وإما أن يكتفي بجثث الحقائق. وبعبارة أوضح: إما أن يعتمد على نفسه في الدرس والبحث والتجريب، حتى يشارف منطقة الاطمئنان ويستقر عند حق توصل إليها بجده وتعبه، وإما أن يظل تابعاً لغيره في تفكيره، متخذاً من سواه قدوةً واضعاً (رأسه بين الرؤوس غير مبال بالفؤوس).

ولكن علماء الحياة ـ ومنهم جان روستان ـ يرفضون (الجمود) عند أشياء تسمى (المبادىء) ويحثون الناس على الدوام أن يسعوا ما أمكنهم السعي في سبل التأكد، والتثبت ومواجهة الحقائق جديدة كانت أم قديمة برضاء وإقبال ورحابة صدر.

وعلماء الحياة أيضاً كالحياة نفسها يأبون الانسياح مع كل جديد، ونادر وغريب. فلا غنى عن المرونة والهدوء والتعقل، ونبذ التطلعات إلى ما يسيء، والإقرار بضرورة الوعي الذي يؤدّي إلى السلام، وإحياء السلام.

الوعي

إذا كانت الحقيقة معنى يلتقطه الحس السليم فإن الوعي يفيد الإحساس بالحس، أو إدراك المحسوسات ونقلها من ظلام الخفاء إلى نور الوضوح، أو هو شعور الإنسان بذاته وأحوالها وما يدور فيها، وعن طريق هذا الشعور الخفي بحقيقة الذات يستطيع المرء ـ (والمرأة) ـ فهم غيره، والنفاذ إلى ذات غيره.

لقد رأينا الحجاج ـ وهو الحاكم المتفرد بذكائه وقوة وعيه ـ يأمر بحبس فتى اعترض على إطالة إحدى خطبه حتى إذا ادعى أهله أنه مجنون في محاولة منهم لاخلاء سبيله، أخبرهم ذلك الحاكم انه على استعداد للعفو عنه إذا هو أقرّ على نفسه بالجنون، وحين فضل المتهم السجن على الكذب وزَعْم حالة لا يعرفها في نفسه، عفا عنه الحاكم تقديراً منه لصدقه، وما صدقه سوى مظهر من مظاهر وعيه ذاته، وإدراك واضح منه لحقيقة موقفه.

وكـل مـوقف في كـل حال، يعبـر عن وعي أو عن غفلة. والـوعي أو عدمـه هو المشكلة الأسـاسية الكبـرى التي تقض مضجع المربّين والمفكرين والحكام والساسة وسائر المهتمين بشؤون المجتمع وإدارة مؤسساته وتوجيه أفراده وجماعاتـه في كل حقل وميدان.

والمشكلة فيه أنه يتنوع ويتعدد، وأنـواعه تتـرابط وتتداخـل وتتشـابك؛ فـلا يتـاح حصـره، ولا تمكن الإحـاطـة بجـوانب أنواعه من جميع وجوهها وروابطها، فهناك الـوعي الاجتماعي والـوعي السيـاسي والـوعي العلمي والـوعي الفني، والـوعي الاقتصـادي. ومن هنـا كـان للتجـربـة قيمتهـا ولمـا يسمـونـه (الخبـرة) أو (الحنكة) أهميتهـا، فـالـذي لم يمارس يـومـاً من الأيـام ركوب الخيـل مثـلاً أو قيـادة السيـارة لا يملك أن يعي مخاطر الفروسية، أو معضلات العمل الميكانيكي.

جـاءني مـرة أحـد المتعلمين وتـلا عليّ عبـارة للجنـرال ديغـول، وردت في كتـابـه (حدّ السيف) وطـرح عليّ هـذا السؤال العجيب: كيف يمكن أن يهتـدي الإنسـان إلى مثـل هذا الكلام؟؟.

أمـا الكلام الـذي أذهل ذلـك المتعلم فهذه تـرجمـة لـه: (وأحياناً يعطي الرئيس العاجز عن القرار نفسه، مظهر النشـاط

ووهمه، بما يبدي من هيجان واضطراب، إذ يعلق ببعض تفصيلات ثانوية وغير منتظمة يستهلك خلالها نفسه، رغبة منه في التأثير، مع ذلك، على الأحداث).

فكرت ملياً في الأمر وكان جوابي هو الآتي:

ـ الجانب الذي خفي عليك في هذا القول هو صفات قائله أو ميزاته، وتفصيل ذلك: أن الجنرال ديغول كان يتمتع بأربعة أنواع من الوعي، يندر اجتماعها إلاّ في أفذاذ التاريخ وهي: الوعي العسكري والوعي التاريخي والوعي السياسي والوعي الأدبي. وإذا أنت أمعنت النظر بعيداً في هذه العبارة التي وردت على قلمه، أدركت صحة ما أبين وعرفت أنه يصدر بكلامه عن خبرة خاصة ومعرفة ببواطن أمور لا يتاح لغيره أن يختبرها ويعرفها.

ذلك يردنا إلى ناحية قل أن يفطن إليها الناس في عصرنا هذا، وهي أن الاختصاص في مادة أو علم أو فن لا يكفي ليجعل صاحبه من (أهل الرأي) في الشؤون العامة، والقضايا الإنسانية فإذا كان لرجل دين مثلاً أن يعطي رأياً في الأخلاق أو أسلوب الوعظ أو أصول اللغة أو قواعد الشرع فذلك لا يجعله بحال من الأحوال قادراً على النفاذ إلى دقائق معضلة عسكرية أو مشكلة ايقاعٍ موسيقي، إذا لم يكن قد تمرس بشيء من ذلك.

هذا من جهة، والجهة الأخرى التي لا بد من لحاظها في دراسة الوعي هي علاقته الوثيقة بالذاكرة بمعنى أن ضعف الذاكرة واضطرابها أو إصابتها بآفة من الآفات تؤدي إلى خلل في الوعي أو إلى نقص فيه، حتى ليصح القول: إن الوعي بمعناه الشامل يتميز في القدرة على التذكر، وكان نابليون قد أوضح قيمة الذاكرة في حياة كل إنسان وانتظام سلوكه بقوله: (رأس بلا ذاكرة إنما هو موقع بلا حامية).

والحقيقة أن كثرة السهو وغشيان النسيان وسوء التذكر أعراض ينعدم بها الوعي في كثير من الحالات والأوضاع، والذي يمعن بها أو تغلب عليه لا يختلف عن الأبله أو الغافل أو المخبل أو (المهستر) في شيء.

إذا نحن فكرنا في هذه الحالات: البله، الغفلة، الخبال، الوسواس، نلاحظ أنها تتسم جميعها بغياب صاحبها عما يدور في نفسه من رغبات ويخالج ذهنه من أوهام وتصورات ويخامره من عواطف وشهوات، أي أنه غائب عن وعيه بكلمة واحدة والحكماء القدامى كالمحدثين يبينون بكل وضوح أنه لا يمكن تفسير الحياة أو تأويل ظواهرها على نحو مرض ومعقول، حين يستعيض الكائن البشري عن وقائعها بتخيلاته وأوهامه.

ثم إن علماء الأمراض العقلية والعصبية متفقون عند تشخيصها على أنها تجد جذورها في العطف الشديد على الذات، والغلو في حب الذات، وتفضيل الأنا على كل ما عداه.

ذلك يعني أن استعادة الوعي النير، الصاحي السليم إنما تتحقق بالتخلص من كل رغبة في النفوذ والوجاهة، والتّحلي بالواقعية، والانصراف نحو العمل الجاد المثمر الذي ينتفع به صاحبه وينفع غيره . . .

المنطق

الحديث عن الوعي كالحديث عن الحقيقة، لا يصل إلى غايته المنشودة إذا ضربنا صفحاً عن (المنطق) لأن هذه المقولات الثلاث الحقيقة، الوعي، المنطق، مترابطة متكاملة فلا يصح البحث في واحدة منها، دون بيان روابطها مع الاثنتين الباقيتين. والوعي لا يكون ولا يتم إلا بالسعي وراء الحقيقة وتمييزها من الكذب والخطأ والضلال. فإذا لم يرافق الوعي شيء من هذا المسعى أو التمييز فقد صفته كوعي وحلت الغفلة محله.

والمنطق على نحو ما أوضح القدامى كالجرجاني مثلاً: آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر. وكان الغزالي قد دعاه (معيار العلوم) لأنه يظهر مدى ما تتصف به المعرفة من صحته واعتلاله.

وأبرز ما يتفرد به المنطق من خلال النظر إليه كأسلوب في التفكير أنه يرفض (التناقض) ويتحرى تماسك الأفكار فيما

بينها بحيث تشد كل فكرة ما يليها وتتوافق مع ما يسبقها وهـذا لا يتحقق إلا إذا كـان العقـل ـ لا الخيـال، ولا الـرغبـة ولا العاطفة ـ يمسك بزمام الأمور في الفكر ويوجهه ،ولذا يصعب أن يعثر على فرق في المعنى بين كلمتي (منطقي) و(معقول).

جاءني أحدهم مرة وقال: (هل لك أن تفهم هذا البيت من الشعر لجبران وتفهمني إياه:

سكـوتي انشـاد وجـوعي تخمـة
وفي عطشي ماء وفي صحوتي سكر

هدأت طويلاً أفكر.. ثم قلت لصاحبي:

ـ ما الذي لم تفهمه في هذا البيت الشعري؟

ـ لم أفهم كيف يكون السكوت إنشاداً والجوع تخمـة ولا كيف يستقر الماء في العطش ولا يبدده، والسكـر في الصحوة ولا يقضي عليها.

وكان ردّي هكذا:

ـ أنت هنا تطالب الشاعر بـالمنطق وهـو يصدر عن خيـال. إنه يتحدث عن رغبة جامحة لا تتقيد بشيء، وأنت تملي عليه أن يتقيـد بـدلالات الألفـاظ ومعـانيهـا، فـلايمكنـك بعـد أن تفهمه.

لم يقتنع صاحبي وآثر الصمت على متابعة الحوار، والمسألة في جوهرها أن ثمة منطقاً قائماً في الأشياء وعلاقات الأشياء والنفس تنفر نفوراً طبيعياً أيضاً من مخالفة هذا المنطق الضمني ولا يمكنها أن ترتاح للتمرد على ما ألفته أو تألفه في معاني الكلمات مثلاً، ولا يتاح لها أن تتصور الشمس في الليل، والنجوم في النهار، لأن مثل هذا التصور يناقض واقع الطبيعة ويشبه التناقض في إنشاد السكوت وتخمة الجوع.

ثم إن المنطق المألوف أي الطبيعي، ذو صفة اجتماعية خالصة في إجتماعها. والاجتماعي من الأحوال يتطلب الذوق واللياقة والتأدب وملازمة العقل في القول والتصرف بينما الخيال والتوهم والأحلام والرغبات والتمنيات، إلى الفردية أقرب. وهي تتنافى جملة وتفصيلاً حين تنطلق بلا رقابة من تلك القيود والمتطلبات.

وكان برتراند راسل وهو من أدمغة العصر قد أوضح هذا الموقف بقوله: (لقد غدا المنطق رياضياً أكثر من ذي قبل، وغدت الرياضيات أكثر منطقية ونتيجة ذلك أن أصبح الآن من المستحيل أن ترسم خطاً فاصلاً بين الاثنين. والواقع أنهما شيء واحد، ولا يختلفان إلا كما يختلف صبي عن رجل. المنطق صبا الرياضيات والرياضيات رجولة المنطق).

غير أن اتجاهاً جديداً نشأ مع الحرب العالمية الثانية، واستمر بعدها إلى أيامنا هذه في كثير من الأوساط. وهذا الاتجاه يتميز بالانسياح مع اللامعقول والإشادة بالتمرد والعبث والتهكم والانصراف عن الجد مما يندرج تحت عناوين الهبّيّة، والوجودية والخنافس، وما أشبه. وكلها تصدف عن المنطق وتتحامى الأخذ به، والانصياع له وحتى البحث فيه، ولا توليه شيئاً من الاهتمام أو الاحترام.

والسر في ذلك الجو الذي يهيمن على نفوس العابثين وأمثالهم، هو افتقاد الحس بحقيقة الطبيعة، مادية كانت أو بشرية أي عدم الوعي للنتائج التي يفضي إليها سلوك التمرد والعبث والهزء بالمنطق وأدواته وموجباته.

وليس أسهل من تبين تلك النتائج على الصعيدين: الفردي والاجتماعي في أن تضع العابثين وأمثالهم أمام الحساب لأن الحساب أول العلوم الرياضية التي قامت عليها صروح الفيزياء والكيمياء والميكانيك والديناميك والصيدلة، وهي أدوات الحضارة، ووسائل التقدم العلمي والرقي العقلي. فالتنكر للمنطق الذي يقوم عليه الحساب، والرياضيات كلها، إنما يعني في واقع الأمر التنكر للحضارة والارتطام بأوحال الهمجية، وقذارات السخف والاهمال والتفاهة.

أجـل، هناك سـوء استعمال لنعم الحضـارة وسوء تـوزيع، يبرر بهما الناقمون والعابثون والمتمردون مسالكهم، ولكنهم لا يـدركـون ولا يخـطر ببـالهم أنهم بمسـالكهم هـذه، يسيئـون استعمال المنطق، ويشـاركون بـالتالي في إحـداث المساوىء التي يشكون منها، وهم لا يشعرون. . .

النقد

رأينا أن المنطق يرتكز على الوعي والفكر السليم، لتمييز الخطأ من الصواب والكذب من الصدق، والحقيقة من الزيف. ولكن ثمة جانباً آخر من الأحوال والأقوال، يتجاوز الخطأ والصواب، ولا يحسب فيه للصدق أو الكذب حساب. وهو انصباب الذهن على الشعور بالجمال أو القبح. فأنت إذا طرقت مسامعك أغنية لا يهمك أن تتبين ما في كلماتها من خطأ أو صواب، وإنما تجد لها تأثيراً في نفسك أو في إحساسك تحاول أن تعبر عنه بطريقة من الطرق. وكذلك هي الحال، حالك مع كل أثر فني.

وإن من شأن الآثار الفنية ـ الصورة، والأغنية، القصيدة، التمثال، المنظر الطبيعي، المشهد التمثيلي، القصة الخ . . . ـ أن تبعث في النفس ضروباً من الأحاسيس والأفكار والخيالات تحتاج بطبيعة انبعاثها إلى التعبير عنها. وهذا التعبير يتم مرة على نحو عفوي خالص في عفويته، كمن يهتز لأغنية، أو ينفجر بالضحك لدى سماع نكتة، أو تنطلق يداه

بالتصفيق وهو يصغي لخطاب. . ومرة يكون بعد تـأمل وتـدبر ودرس وبحث.

وحين يكـون التعبيـر عن تـلك الأحـاسيس والأفـكـار والانطباعات التي يبعثها الأثـر في النفس نتاج تبصـر ودرس، يتحـول - أي التعبير ذاك - إلى هـذا الذي نـطلق عليـه كلمـة (نقد) بشكل عام.

وثمة حالة ثالثة تتوسط هاتين الحالتين من التعبيرات النقدية، وهي التي تأخذ من الأولى عفـويتها وانـدفاعهـا، ومن الثانيـة هدفاً أو غاية تسعى وراء تحقيقها، بتوجيـه من (نية) خـاصة، إما لتأييد نزعـة أو فكرة أو شخص، وإمـا للنيل من شخص أو فكرة أو نزعة.

وهناك. . تبعاً لهذه الحالات الثلاث ما تواضع المفكـرون المحدثون على تسميته مرة بالحس النقدي وآناً بالفكر النقدي وطوراً أخيراً بالروح النقدي.

أصحاب الحس النقدي هم الذين يشعرون على نحـو ما، بما يحوي الأثر الفني من جمال أو قبح، وما يتسم به من نقاط ضعف أو قوة ولا يملكون طاقة الإنشاء أو الابتكار، فـإن ذوي الحس النقـدي الأكثر تيقـظاً هم أغلب الأحيان أولئـك الأقـل قدرة على الإبداع، كما وصفهم لويس لافيل.

أما (الفكر النقدي فهو الذي يجهد في تمييز الصحيح من المزيف) (آ. كارتول) والروح النقدي أخيراً، هو الذي يتجه نحو الانتقاص والهدم، والازراء والتمزيق أكثر مما يعمل على تحقيق أغراض خيرة وبناءة فقد جاء في كلمة لجان روستان هذا التوضيح: (لا يفرغَنَّ صبرك حيال الانتقادات التي توجهها إليك المرأة، فهي لا تسعى إلى الحط من شأنك إلا بمقدار ما تجدك شامخ العظمة في نظرها).

نشأ الفكر النقدي حين انتشر التدوين وكثر عدد المتعلمين. وكان هذا الفكر ينصب أكثر ما ينصب في مستهل نشوئه لدى جميع الشعوب المتحضرة على (البيان) في أول منزلة، ويلاحظ في الكلام، أول ما يلاحظ تطابقه مع ما تواضع عليه متكلمو اللغة الأولون من معان وقواعد وأساليب، وينظر إلى الألفاظ ودلالتها ومواقعها في الجملة وقربها من الافهام وبعدها عنها، ثم يدقق في سائر ما يتصل باللغة كأداة مثلى يعتمدها الإنسان في كل ما يحتاج في علاقاته وأحواله وأعماله. وهذا ما تؤكده الأبحاث والدراسات التي وضعها رواد الحضارة والإنسانية الأقدمون لدى الهنود والأغارقة والرومان والعرب.

وكان الفكر النقدي يتنوع بتنوع الموضوعات والمواد التي ينصب عليها، ويصبح النقد تبعاً لذلك أنواعاً، ينتسب كل

نوع منه لموضوعه. والظاهر أن النقد الاجتماعي كان ولا يزال يسبق جميع أنواع النقد. وذلك فيما أحسب، لأن المجتمع غير الفرد ولا بد في جميع الأحوال من خلاف ينشب بين هذين، رغم انتماء الثاني للأول، فإن لكل مجتمع تقاليده وعاداته واعتقاداته الموروثة، وآراءه الناجمة بجملتها عن ذلك الموروث كما أن للفرد في كل مجتمع ميوله الخاصة ونزعاته المستجدة وله أيضاً ذوقه وتطلعاته وآراؤه التي تتصادم بحكم حداثته في الزمن، وفي الأعم الأغلب من الحالات، مع تقاليد مجتمعه وأوضاعه الموروثة.

لذلك، يلوح لنا بكثير من الوضوح، أنّ الفرد هو الذي يبدأ باتخاذ موقف من الحياة والكون والطبيعة والإنسان يخالف مجتمعه، ثم يمضي في نقد هذا المجتمع، مبيناً ما يراه فيه من أخطاء وعيوب وآفات، استناداً منه أول الأمر إلى مزاجه وتطلعاته وأحاسيسه الجديدة التي تغاير ما لدى الجيل القديم.

وقد استطاعت المجتمعات الديمقراطية آخر الأمر أن تتفادى الأضرار التي تنشأ عن اختلاف الأجيال، وانتقادات الأفراد للمجتمعات التي ينشأون فيها، وتلك هي ميزة العصر الحاضر..

الفن

ليس للمبادىء العلميّة، ولا لقواعد المنطق أن تنير الطريق أمامنا، حين نسعى في فهم الإنسان..

ولنضرب مثلاً على ذلك في مبدأ السببيّة. هذا المبدأ العلمي لا يستطيع ـ كما بيّنت إحدى أديبات أميركا الشمالية ـ ساعة نطبّقه في دراسة الإنسان، أن يكشف لنا شيئاً من حقيقته، لأنه يحدو على النزول به إلى مستوى الأشياء. وهذا هو كلّ ما يفعله.

لا جدوى إذاً من العلم في محاولة التعرف الحقيقي إلى الإنسان، وإلى معرفة المرأة، على نحو خاصّ.

يقول راسين الشاعر، على لسان نيرون، وهو يتحدّث عن إحدى الفتيات: «إذا كنت لا أعرف السرّ في إدخال السرور على قلبها، فإني أعرف الفن في معاقبة منافس متهور، على الأقل».

هناك نشاط آخر، أو فعاليّة أخرى غير العلم، لا غنى عن

اللجوء إليها في معظم الحالات المتّصلة بالحياة الإنسانية. هذا النشاط هو ما نسمّيه «الفن».

ولقد كانت وظيفة الفن، على الدوام، أن يخلق عالماً تشعر معه الروح أنها في بيتها، وأن هذا البيت شيّد على قياسها. ذلك ما بيّنه ده لاكروا، وهو أحد أعمدة الفن في القرن الماضي. قد يكون الشعر أقدر الفنون على خلق هذا العالم الذي تطمئّن إليه الروح. غير أن المشكلة في الشعر أنه عسير التذوّق، فلا يتاح النفاذ إلى جماله إلا بحيازة أوضاعٍ روحيّة وفكرية خاصّة.

وكان القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، قد أوضح، خلال قيامه بالوساطة بين المتنبي وخصومه، هذه الحقيقة: «والشعر لا يحبّب إلى النفوس بالنظر والمحاجّة، ولا يحلّى في الصدور بالجدال والمقايسة، وإنّما يعطفها عليه القبول والطلاوة، ويقرّبه منها الرونق والحلاوة. وقد يكون الشيء متقناً، محكماً، ولا يكون حلواً مقبولاً، ويكون جيّداً وثيقاً، وإن لم يكن لطيفاً، رشيقاً».

وهكذا.. نحن مع الفن، والتفكير في مجالي الفن، إزاء موقف دقيق، بالغ الدقة، إذ لا يجوز النزول بالإنسان إلى مستوى الأشياء، كما لا يجوز إهمال الحقائق الأساسية

التي يصرّ عليها العلم في تصوّر وقائع الحياة وتصويرها.

وقد أوضح لافيل ميزة الفن الخاصّة انه «يمنع عالم الإمكان الذي نحمله في قرارة وجداننا، شكلاً. وبهذا المعنى يكون كلّ فن بالضبط، خلّاقاً». فإذا لم توفق القصيدة، أو الأغنية، أو الصورة، أو التمثال، أو أيّ أثر فني بكلمة واحدة، إلى إيجاد حالة جديدة في نفسك، أو فكرك، أو قلبك، يكون الفن قد أخفق في أداء مهمته.

ذلك بأن الفن كصناعة، غيره كحياة. الفن لا يصنع ـ والكلام للشاعر أندره شينيه ـ سوى أبيات منظومة، والقلب وحده هو الشاعر، وليس القلب هنا، سوى الحياة الغنية بالعواطف، الزاخرة بالأحاسيس من كل جنس ولون. وفضل ذوي الفن، كل فضلهم أنهم يحسنون الإخراج، إخراج ما يعتمل في سرائرهم، وتتفتق عنه قرائحهم بحيث ينقلون حياتهم الداخلية، غير المنظورة في أشعار وألحان، وتصاوير، وتماثيل، و. . . يتيحون لغيرهم بذلك أن يطلع، ويستمتع، ويعتبر، ويتصوّر ويتذكر، وكثيراً ما يعرضون ألواناً من الأخيلة والأفكار والعواطف، يحلو بها وجه الحياة.

والطرافة الكبرى التي تميّزت بها العصور الحديثة، إنّما هي هذه النزعة إلى العثور على ضرب من الفن، في كل

منحى، وعمل، وحالة ونشاط. فالتحدث إلى الآخرين مثلاً، فن. والاصغاء فن. وتهذيب الصغار فن. وتربية الكبار فن. والسياسة نفسها تحوّلت إلى فن..

وكان النصف الثاني من القرن الثامن عشر، منطلق هذه البدع في تفريع الفنون وتكاثرها. ها هو روسّو يخاطب المعلم، قائلاً: «أيها المعلّم الفتى.. ها أنا أبشرك بفن صعب، ألا وهو أن تحكم بلا تعاليم، وأن تعمل كل شيء بأن لاتعمل شيئاً».

وها هو فولتير يثير الفضول والدهشة بقوله: «الفن الأحفل بالبراءة إنما هو ذاك الذي ينال بالخبث».

وحين ننتقل إلى القرن التالي - التاسع عشر - وهو الذي عرف بولعه بالعلم، وإقباله على العلم وتعبّده للعلم، نجد أنه يميل إلى ازدواج كل علم بفن، وإذا بالأخوين غونكور يحسبان التجارة فناً، ويعرّفانها بقولهما: «التجارة هي الفن في إساءة استعمال الرغبة، أو الحاجة التي يبديها شخص ما في شيء ما».

ولكن الحكمة تقتضي على الدوام، أن لا يسيء أحد استعمال رغبة أوحاجة كي لا يفضي المجتمع إلى تمزق أو

انحطاط. والسياسة كفن، هي التي ترفع النفوس، وتحملها على الألفة والمحبة والتعاطف. وبذلك تحول دون تفسخ المجتمع وانحلاله.

الذكاء

وصف أبو الطيب المتنبّي أحد ممدوحيه بقوله:

تعــرف في عينيــه حقــائقــه   كــأنــه بــالـذكــاء مكتحــل
أُشفق عنــد اتقــاد فكــرتــه   عليـه منهــا، أخــاف يشتعــل

أظن أن من العسيــر أن تجــد في آداب الأمم الأخــرى، وصفاً للذكاء يفـوق هذين البيتين أو يشبههمـا في بيان التـأثير الذي يحدثه الشعور بذكاء إنسـان في حياة آخـر، فإن للذكـاء تأثيراً يوقظ الآخرين، ويحرّك عواطفهم ويهزّ كيانهم النفسي. ويردّهم ألى حال لا يعرفونها من قبْل في آفـاق وجودهم.

هذا الذكاء، أو هذا التأثير الـذي يحدثـه الذكـاء في نفس من يشعر به، يستدعي تعريفه، والإفاضـة في بيان عـلاماتـه، وإظهـار حقيقته، لأنـه الصفـة الـوحيـدة التي ينشـدهـا الآبـاء والأمهات في أولادهم، ويصبو إليها الكبار والصغـار، وتشكل

المنطلق الحقيقي نحو الحالة الاجتماعية المنشودة في حياة كل مجتمع، والركيزة الثابتة لكل وضع سياسي متزن، والمظهر الأوفى والأسمى لكل حضارة، وتقدم، ورقيّ.

يقول غيتون: «أن تكون ذكياً لا يعني ذلك أن تكون ذا عقل وحسب، وإنما أن تضيف إلى العقل هذه السهولة، هذه المرونة التي تتيح لك أن تتلاعب بدورك بين الكائنات، وأن تنفذ ألى سرائرهم أغلب الأحيان، على نحو أفضل مما يعرفون هم أنفسهم».

هناك إذن مجموعة صفات إنسانية، لا صفة واحدة، يفرض فيها أن تتجمّع وتتلاقى وتترابط فيما بينها، ليصح وصف امرىء ما، وامرأة ما، بالذكاء، فإذا فقدت واحدة من هذه المجموعة، توقف انطباق الصفة ـ ذكي وذكية ـ على الموصوف، وفرغت الألفاظ من معانيها، ومن جدواها بالتالي.

وأولى هذه الصفات «العقل» والعقل في حياة الإنسان يشبه النور الذي يضيء طرق السائر، ويوجه سلوكه، إذ ورد في مأثورات العرب، هذه العبارة: «لو صوّر العقل لأضاء معه الليل، ولو صوّر الحمق لأظلم معه النهار».

والصفة الثانية التي يتألف منها الذكاء، هي «الاصابة

بـالظنّ» أو القـدرة على تصور الـواقـع قبـل وقـوعـه، أو قبـل مشاهدته، وهذا ما أوضحه ابن الرومي حين قال:

وظنون الذكي أنفذ في الحق وأنفذ سهاماً من رؤية الأغبياء.

وزاده البحتري إيضاحاً:

وإذا صـحـت الـرويـة يـومـاً

فـسـواء ظـن امـرىء وعـيـانـه

أما الصفـة الثـالثـة التي لا يتحقق ذكـاء بـدونهـا، فهي «المـرونة» ومعنـاهـا استعـداد النفس لقبـول الـواقـع، وحسن تصـرفهـا بـه ومعـه، دون أن تتخلى مـع ذلـك القبـول عن الكرامة، أو الوعي، أو حسها الإنساني، أو عن معنى يتميز به الإنسان عن الحيوان والأشياء. والأصل في المـرونة، أن يلين الإنسان في صلابة.

هـذه الصفات الثـلاث: العقل، والنفـاذ إلى الحقيقـة من خـلال الظن أو التصور، والمرونـة إزاء تغيّر الـواقع، هي التي تشكـل جوهـر الذكـاء بتجمعها وتمـازجها وتـوحـدهـا قـولاً، وعملاً، وسلوكاً مستمراً.

بيد أن ثمة شبهات علقت بالأذهـان حول الـذكاء وحقيقتـه ومظاهره لا بدّ من تبديدها وإزاحة العوائق دون فهمها.

وكبرى هذه الشبهات أن الذكاء شيء والطيبة شيء آخر بمعنى أن من الطبيعي والممكن أن يكون الإنسان ذكياً ولا يكون على شيء من سلامة الطوية، أو كرم الخلق.

هنا، لا غنى عن التفصيل، والتشدد في إيضاح ثلاثة معان يخلط الناس بينها خلطاً عجيباً في آن واحد، وهي: البساطة والسذاجة والطيبة.

البساطة تعني تناول الحياة على الطبيعة، دون إضافة شيء بالفكر إليها، أو حذف شيء منها.

والسذاجة قصور في المعرفة ترافقه نزعة إلى التصديق وبهذا، تقف على طرف النقيض من الذكاء، بينما الطيبة تفيد تجاوزاً متعمداً للسوء أو القبح أو الشر في عمل ما أو فكر ما أو نيّة من النيات سعياً وراء ما تصبو إليه النفوس من راحة وسرور وسلام.

الطيبة كالذكاء، تحتاج إلى صفاء نفسي وهذا ما أشار إليه الخليفة المأمون وهو الفيلسوف، بقوله الرائع: «لا تتقد مصابيح الأذهان إلا بصفو مواردها» بل هذا هو ما نبّه إليه ذلك الأعرابي، وهو ينصح ابنه، حين قال له: «يا بنيّ لا يسرّنك أن تغلب بالشر، فإن الغالب بالشر هو المغلوب».

الطيبة إذن علامة الـذكاء الأولى، لأنها وسيلته المثلى إلى تجاوز السوء وبها يتذرع الأذكياء الحقيقيون إلى صيانة الحيـاة العامة والدفاع عنها.

السلام

هناك مفكر عربي اسمه أحمد المرزوقي، وضع قبل نحو من عشرة قرون، كتاباً عنوانه «الأزمنة والأمكنة».

هذا الكتاب لفت نظر صاحب العظمة المغفور له الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني أمير قطر، قبل نحو من ثلاثين سنة، حتى إذا تخلى عن الإمارة، صرف همه واهتمامه إلى إحياء ما استطاع إحياءه من تراث العرب في عالم الفكر والأدب والشعر.

وقدر لي منذ عشرين سنة أن أطلع على ذلك الكتاب النفيس، وأن أكتب له مقدمة طويلة في جزأيه: الأول والثاني.

وكان آخر ما ورد في المقدمة التي وضعتها للجزء الأول، فقرات عنوانها «قضية السلام»، ها كم بعض ما جاء فيها:

«وإذا كان لنا أن نستنتج في هذا العصر من هذا الكتاب النفيس ما يصح أن ندعوه «المنهج العلمي» لتركيز قضية

السلام على قواعدها الصحيحة، أمكن التقاط النقاط الآتية:

١ ـ السلام على الأرض منوط بالإيمان بوجوب العمل على تحقيقه.

٢ ـ الوطنية القويمة أساس في حياة كل شعب وأمة.

٣ ـ طبائع الأمم تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة.

٤ ـ لا بد من مقاومة الضلال بفروعه الثلاثة الجهالة، والحيرة، والمعاندة، في حياة الفرد، وسلوك الأمة، والمجتمع الدولي.

٥ ـ لكل شعب دوره الذي لا غنى بحال، عن أن يقوم به هو نفسه، في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ليصبح السلام في حيز الإمكان، وذلك لأن لكل شعب أمكنته الخاصة (وطنه) على أديم الأرض.

٦ ـ تعاون الشعوب والأمم والدول فيما بينها، من أجل الحق، والحقيقة والسلام ضرورة ملحة، ليتمكن كل شعب من اكتشاف دوره الحقيقي وأدائه في بناء السلام العالمي.

وليس الحديث عن السلام وقواعده وموجباته في هذه الديار أو في غيرها بغريب، ولا هو بجديد في هذا العصر أو غيره من العصور، فقد كان يعاد ويتكرر، ويتنوع، في كل مكان وزمان.

ولكن. . لا غنى عن لفت الانتباره هنا، إلى ملحمة شعرية، هندية، قديمة، موغلة في القدم هي «الغيتة» التي نقلها إلى العربية شعراً عن الإنكليزية المرحوم وديع البستاني الذي نسيه اللبنانيون والعرب، في أيامنا هذه.

يقول وديع في شأنها: «ولعل تعريبي للغيته شعراً هو أول ترجمة نظمية لها. وهي، ولا ريب، أنفس أثار الأدب الهندي كافة». ونفاستها تتحيز ـ كما يبدو ـ في دعوتها الحارّة إلى نبذ الاقتتال، وبيان مساوئه، وتأثيره المدمر في حياة النفس والمجتمع.

ثم لا بد من الإشارة إلى الشاعر الإغريقي الساخر أريستوفان في مسرحيته الشهيرة «ليزاستراتا» في القرن الرابع قبل المسيح، حيث تحدث عن تجمع النساء، ومقاطعتهن للرجال إذا استمر هؤلاء في متابعة الحرب، ولم يعملوا على إنهاء سفك الدماء بين أسبارطة وأثينا.

هذا في إطار العصور الوسطى، والقديمة. فإذا انتقلنا إلى هذا القرن الذي شهد أخطر ما عرفت الإنسانية من أهوال الحروب، نجد الحديث عن السلام يتخذ منحى جديداً، وتنشأ حوله المؤسسات، والمنظمات، والجمعيات، والندوات. . . ولكن دون أن تصل إلى نتائج عملية، توطد للحق سلطانه، وتزهق الباطل وأعوانه.

وهكذا . . . لم تعد قضية السلام، في هذه الأيام، بحاجة إلى دعاية، ولا إلى حماسة، ولا إلى كتابة أو خطابة وإنما انحصرت حاجتها الحقيقية في «الصدق»، صدق الرغبة في السلام واتخاذ الخطوات العملية الآيلة إلى السلام.

ذلك بأن السلام أنواع: النفسي منه والاجتماعي. والاقتصادي والاجتماعي والسياسي ولا يقوم الواحد منه إلا بدعم وتأييد من الآخر.

وكان اللورد دايفز قد وضع في الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الأخيرة سفراً في غاية الإيجاز، ولكنه في غاية الإفادة، سماه: «أعمدة السلام السبعة».

وهي: ١ ـ عمود الأخلاق. ٢ ـ عمود العدالة. ٣ ـ عمود القوة. ٤ ـ عمود الحرية. ٥ ـ عمود الديمقراطية.
٦ ـ عمود الفدرالية. ٧ ـ عمود التربية.

وقد يكون هذا السفر خلاصة ما انتهى إليه الفكر العصري الحديث في دراسة هذا الموضوع الجليل.

والمسألة الحقيقية في الخطو العملي نحو السلام، هي الحكمة، والذكاء، والأخذ بمنطق الكرامة الإنسانية، واعتماد الوعي والصدق.

ولن تعود الحرب على الراغبين فيها إلا بالهوان والخسارة، مهما طال الزمن.

الجديد في هذه الأحاديث، أنها تحاول إيضاح العلاقة غير المنظورة، أو غير المعروفة في الموضوعات التي تتناولها، بين الفكر القديم، وتوجّهات الفكر المعاصر، فهي ليست مجرد عرض لأحوال قديمة، أو تكرار لأقوال جديدة، إنها ضرب من «تنقيب» عن آثار فكرية، وبعثها في الوجود على ضوء الحياة العصرية.

وحديثنا الآن عن الحب، وهو من أقدم الموضوعات، وأمتعها وأخصبها، يبيّن صحة هذا الذي نقوله في شأنها.

ويبدو - أقول: «يبدو» - إن الأقدمين كانوا أقدر من المعاصرين على فهم الأوضاع والحالات النفسية - الاجتماعية، وأوفر تمرساً بوصفها والتعبير عنها.

والحب مثال لا يدانيه مثال في هذا المضمار، إذ جهد الأقدمون أن يضعوا له «تعريفات واضحة موضحة، وأن يبيّنوا أنواعه، ودرجاته وبواطنه، وظواهره، ثم تغلغلوا بعد ذلك في

التفاصيل، متكئين على الأحاسيس التي أفصح عنها الشعراء والمفكرون في أدق الأحوال وأبلغ الأقوال.

لقد كتب أحد المؤلفين، قبل نحو من ثمانية قرون يقول: «الحب اسم مشترك يجمع ضروباً من ميل النفس كحب الولد، وحب المال..» ولنا أن نضيف إلى هذين: حب الوطن، وحب الحكمة وحب العلم وحب الفن وذاك ما قامت به المعاجم الفلسفية في أيامنا هذه.

وكان ابن حزم الأندلسي قد بيّن قبل نحو من عشرة قرون، في كتابه «طوق الحمامة» الذي درس به هذا الموضوع دراسة وافية مستفيضة، قائلاً: «الحب ـ أعزك الله ـ أوله هزل، وآخره جد، دقت معانيه لجلالتها أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكر في الديانة، ولا بمحظور في الشريعة».

أما درجاته، فهي فيما رشح من أبحاث اللغويين ودراساتهم، تبلغ العشر عدّا، نذكرها حسب تسلسلها الصاعد:

١ ـ العلاقة
٢ ـ المحبة
٣ ـ الهوى
٤ ـ المودة
٥ ـ الصبابة
٦ ـ العشق

٧ ـ الوله		٩ ـ التدله

٨ ـ الهيام		١٠ ـ التتيّم.

وما دامت معاني الحب لا تدرك إلا بالمعاناة ـ كما رأينا في كلام ابن حزم، فإن لكل من يمر به كتجربة خاصة، طريقته الخاصة في وصفه.

سئل شاعر أعرابي عن الهوى فقال: «هو أظهر من أن يخفى، وأخفى من أن يرى، كامن كمون النار في الحجر، إن قدحته أورى، وإن تركته توارى».

ويمكن أن نذكر بعض أعراضه، في أحاسيس عبّر عنها بعض الشعراء، كابن المعتز:

ما أبالي بظنو		ن وعيون أتقيها
لي من ذكراك مر		آة، أرى وجهك فيها

وابن فوقة:

إذا أومض البرق من أرضها
تمثل لي أنها تبتسم
وأذكرها في المحل الجديب
فيخصب من دمعي المنسجم

وابن أميّة:

إن نفسي بالشام إذ أنت فيها
ليس نفسي نفسي التي بالعراق

والبحتري:

أعيذك أن تمني بشكوى صبابة
وان أكسبتنا منك عطفاً على الصبّ
ويحزنني أن تعرفي الحب بالجوى
وأن نفعتني فيك معرفة الحب

لا نستطيع أن نمضي في بيان هذه الأحاسيس إلى ما لا نهاية لأنها أوقيانوس لا ساحل له، ولا سبيل إلى الإحاطة به.

وننتقل إلى المفكرين المحدثين، وهنا نقع على ثلاثة تيارات واضحة: الأول الحب الوجودي، حيث نجد سورين كيركيغارد - زعيم الوجوديين في هذا العصر، يضع حداً فاصلاً بين حبّين، السعيد والتعيس، وهو يعتقد أن الحب التعيس هو الذي اخترع الشعر، ويبيّن ما يلي: «لكي يكون ثمة حبّ تعيس يجب التسليم أولاً بأن للحب وجوداً، وأن ثمة قوة تمنعه من الظهور بشكل سعيد في اتحاد العاشقين «ثم يخلص إلى التقرير أنه ليس في مقدور الحب أن يزيل العوائق التي تقف دون الشاعر وسعادة غرامه،

وهكذا. تصبح تعاسة الحب متصلة بوجود نفسه كحب، ولا يبقى أمام العاشق إلا أن يتخيل. . . ويندب حظه.

لم يقف الفكر المعاصر، حيال هذا المأزق الوجودي في إدراك الحب وفهمه، مكتوف اليدين، وإنما لجأ إلى علم النفس تارة، وعلم الحياة تارة أخرى، فوجد لدى الأول أفكاراً لا يزال يعمل فيها أبحاثه وتجاربه حول الغريزة، والخيال، والعاطفة، والإرادة، وعثر لدى الثاني ـ علم الحياة ـ على حقائق مدهشة، تتمحور حول علاقة النفس بالجسد، وتأثير كل منهما في الآخر، وإمكانية تغيير الإنسان كفرد في جماعة، أو حلقة في سلسلة، انطلاقاً من هذه العلاقات وإذا به يهتدي إلى حالات استقطبت اهتمام الأفراد والجماعات، وتمثلت في الولع بالصحة، والرياضة البدنية والتربية وأحوال المناخ والبيئة، وأزياء اللباس، ووسائل التجميل، وتوجيه السياسة إلى آخر ما هنالك من أنواع الولع.

وأخيراً نصل إلى بدعة «كيمياء الحب» وهذه عنوان كتاب ظهر في الولايات المتحدة الأميركية بتوقيع الدكتور ليبوغيتز ـ وهو طبيب نفساني تملّكته الحماسة الطاغية للمكتشفات الحديثة في الكيمياء الحيوية ـ العصبية، وبدأ متأكداً من الحصول على نتائج باهرة من خلال العقاقير والأدوية في

معالجة أوصاب الحب التي لم يوفق الأقدمون إلى شفائها.

وكيمياء الحب شيء غير «حبوب السعادة» تلك المسكنات التي جرت البلاء والوبال على جانبي المحيط الأطلسي (أوروبا وأميركا) ولم تؤد إلا إلى قتل الشعور بالقلق وعلى نحو مؤقت، غير أن الدكتور ليبوفيتز ينطلق مما يدور في الدماغ لدى الشعور بالسعادة أو التعاسة في الحب.

والحقيقة أن للحب قوانين، لا غنى عن معرفتها والتقيد بها، أهمها أن يكون شاملاً، يتحرّى أكثر ما يتحرى سعادة الآخرين وصيانتها، بحيث يمتنع المحب عن التفكير في إيذاء غيره، مهما أصابه، أو ساءت ظروف حياته، وهذا الحب الحقيقي الصادق ينعكس على حياته، ويزيل ما يعتورها من أسباب السخط ودواعيه.

* * *

الحرية

حديث الحرية كحديث الحب، يظل مهما أعيد وتكرر، جديداً وممتعاً وغنياً، وقد خاض فيه الأقدمون، على نحو ما خاض فيه المعاصرون، ولكن الأوائل ارتطموا بجملة من الآراء والعقائد أساءت إلى عامتهم، ولم يدر كيف يخلص منها خاصتهم، كالقضاء، والقدر، والجبر، والاتكال، وما أشبه مما نجد له ظلاً واضحاً لدى كل مفكر، أو لدى كل إنسان بكلمة واحدة، حتى في هذا العصر على الأخص، لأن عصرنا هذا يتباهى بهذه الكلمة ـ الحرية. . ـ وكأنه هو الذي أوجدها واخترع معناها، وجعلها امتيازاً له يتفوق به على سائر العصور.

والواقع أن هذا العصر لم يأت بجديد في هذا المضمار، فقد كان الإمام الحسن بن علي يقول: «من حمل ذنبه على ربه فقد فجر» وهذه شنشنة، أعني التهرب من التبعة، وحمل الذنوب على الآخرين، تميّز بها أبناء العصور المتأخرة أكثر

من غيرهم، إذ عمدوا إلى حمل ذنوبهم مرة على المناخ، ومرة على البيئة، وتارة على المجتمع، وطوراً على التربية، وآناً على الظروف، وآناً على الموقع الجغرافي، وأخيراً على الموقع التاريخي.. وهكذا. يخدعون أنفسهم، وفي وهمهم أنهم يخدعون الآخرين، حين يتهمون القدر، والمناخ، والتربية، والمجتمع، والمواقع التاريخية والجغرافية، وهذه الأشياء كلها بريئة مما يرمونها به، وهم يلقون عليها تبعات أعمالهم.

لقد بيّن أفلاطون قبل أربعة وعشرين قرناً أن «الذي اختار الفضيلة أو الرذيلة هو المسؤول، وليست السماء مسؤولة».

ها نحن نصل إلى الحقيقة الأساسية الأولى، في أعظم قضية من قضايا الحياة العصرية ألا وهي أن الحرية لا تنفصل عن التبعة (المسؤولية) أي عن الشعور العميق بحمل العاقبة التي تعقب العمل، أياً كان حظه من الضآلة، أو الخطورة، فإذا أقر المرء عن اقتناع ذاتي خالص أنه مسؤول، كان معنى اقتناعه ذاك أو إقراره أنه «حر» وإذا ادعى أنه حرّ، وهو يتهرب من تبعة أعماله، أفاد بذلك، أنه لا يزال خاضعاً لواحدة أو أكثر، من العبوديات النفسيّة.

والمفكرون المعاصرون يبيّنون بجلاء يبلغ حدّ الإشراق،

أن الحر هو الذي يملي قراراته على نفسه بنفسه، أخذاً منه بأسباب أو دوافع مستقلة عن كل اقتسار خارجي، بل حتى عن قوى داخلية غير عقلانية كالهوى، أو الانفعال. والحقيقة أن الإنسان بوصفه كائناً ذا عقل، تعتبر هذه القوى التي تشل فكره وإرادته خارجة عنه.

يقول لايبنيتس: «كلما تصرّف الإنسان تبعاً للعقل، كان حراً، وكل تصرف يتبع فيه أهواءه يعتبر معه أكثر عبودية».

ويوضح آميل هذا المعنى بما هو أقرب للذهن، في قوله: «لست حراً إلا بالنقد وبذل الجهد، أي بالتخلي عن أنانيتك، وحكم هذه الأنانية، مما يفترض قيام عدة دوائر متداخلة في الأنا يحيط بعضها ببعض ويكون أكثرها مركزية، أعلى من الأنا».

هذا معناه أن الحرية كفاح، ذاتي، غايته، قمع الأهواء، والسيطرة على النفس، وليست شيئاً آخر.

وتلك هي الحقيقة الأساسية الثانية، في شأن الحرية التي عبّر عنها الأقدمون بأنها جهاد النفس، ووصفوها بأنها «الجهاد الأكبر» إزاء الكفاح الخارجي الذي يمثل في مقاومة الأعداء، والتغلب على افتراءاتهم وادعاءاتهم وتشهيراتهم المزيّفة، الكاذبة.

ولم يكن شيئاً عجباً، أن يهتدي المفكرون المحدثون إلى هذا المعنى نفسه، في دراساتهم الطويلة المعمقة لكل ما يتصل بالحرية، وحقيقتها، وقيمتها، إذ نقع لدى الباحث الروحاني الكبير ليكونت دونوي - على هذه الالتفاتة الرائعة: «الحرية ليست امتيازاً وإنما هي محنة» بمعنى أن من يختار الحرية، يضطر إلى معاناة ضروب من الكفاح النفسي، يفضي به إلى التغلب على الكسل، والغفلة والرعونة، والاسترسال مع الأهواء والنزوات ولا سبيل إلى مثل هذه الغلبة إلا بالمجاهدة وتنمية الوعي، والتبصر وتوقّع المكاره وحسن التصرف في مواجهتها ومجابهتها.

ها نحن نصل إلى الصورة الأخيرة التي يطالعنا بها وجه الحرية في أبهى مجالاته، وأبدع معانيه ومراميه، ألا وهي التحكم بالمصير من خلال التحكم بالأهواء، ومجاهدة النفس وقمع الشهوات ونبذ الأوهام والتفاهات والانصراف عن القشور إلى اللباب، ويصبح تعريف الحرية كما بيّن بوجيه - إنها «القدرة على صيرورة ما يجب أن نكون».

إذا رسخت هذه الحقائق المتصلة بالحرية ومعناها، وحقيقتها، في النفوس والعقول والقلوب، وتحوّلت إلى أحاسيس وأفعال وتصرفات ومظاهر نشاط، أمكن التأكيد أنها تؤدي إلى حياة النفس، وراحة العقل.

هذه الحقائق الثـلاث، وهي أن الحريـة شعور بـالتبعة، أو استجابة عمليّة للشعور بالتبعة، وكفاح ذاتي متواصل، وتحكم بالمصير، تفضي مجتمعة، متعاونـةً إلى المعنى الذي تنـطوي عليه فكرة السعادة.

* * *

السعادة (١)

السعادة «فكرة» تعلّق بها الأقدمون في تصور ما ينبغي أن تكون عليه حياة الفرد، في مختلف الحالات والأوضاع. ثم تناولها الفلاسفة ورجال الدين وأعملوا فيها الفكر، كل حسب ذوقه ومزاجه واتجاهه، وكان لأرسطو اليد الطولى في نقلها من المستوى الجماهيري إلى سماء العقل الفلسفي.

وتناولها بعد أرسطو، معظم الباحثين في شؤون الدين والأخلاق والاجتماع، وكان لأقطاب الديانتين الكبريين: النصرانية والإسلام، ولع خاص في شرحها، وتحديد معناها، وسبل الوصول إليها.

النصرانية عنيت، أكثر ما عنيت، بـ «الفرح» وحقيقته، باعتباره أظهر مظاهر السعادة، وأقبلت على توجيه الفكر البشري نحوه، ونشره وتحليل عوامله، وتعميمه، وهذا هو الجانب الذي أغفلته الحضارات القديمة ولم تُوله شيئاً من اهتمامها.

أما الإسلام، فقد أولى فكرة السعادة ـ وقد انقلبت إلى كلمة «النعيم» ـ الكثير من عنايته ورعايته، لأنه دعا إلى مقاومة النفس أو «الجهاد الأكبر» مبيّناً أن من يجاهد يعيش، إذا عاش، سعيداً، وإذا مات، مات شهيداً، حتى جعل الحبّ مع العفة، ضرباً من الجهاد، حين أوضح الرسول العربي، في حديث له شهير، أن «من أحب فعف فمات، مات شهيداً».

هذا في مطلع الرسالة الإسلامية وبواكر ظهورها، حتى إذا انصرف التفكير إلى الجوانب العلمية، وجدناه يعمّ، ويشمل، ويتغلغل في كل شاردة وواردة من حالات الأفراد والمجتمع، فنجد الإمام أبا حامد الغزالي مثلاً ـ حجة الإسلام، وزين الدين ـ يضع رسالة، عنوانها «كيمياء السعادة».

وهكذا.. انتقلت فكرة السعادة هذه من حيزها الفلسفي الأخلاقي الخالص الذي وضعها فيه أرسطو إلى حيّز العلم، وتحوّلت إلى أفق آخر، مستعيرة ثوب الكيمياء على يد الغزالي، وظلّت تدور، خلال القرون الوسطى، متنوعة الأسماء والأشكال، بين الفرح، والغبطة، والنعيم، حتى تناولها عصر التنوّر في أوروبا ـ القرن الثامن عشر ـ وراحت تشغل نساءه ورجاله، على نحو يجعل المرء في ذهول من

شدة الإقبال على حديثها، فقد ألّف أحد الباحثين الفرنسيين، سفراً ضخماً، عنوانه «فكرة السعادة في القرن الثامن عشر» ذكر به نحواً من ألف كتاب - ٩٤٧ على وجه الدقة - في هذا الموضوع.

وحين نصل إلى القرن العشرين، نجد العناية نفسها لدى معظم الباحثين والمفكرين، نشير بوجه خاص إلى كتاب «فتح السعادة، لبرتراند راسل، و«طريق السعادة» لفيكتور بوشيه، وكلاهما نقلا إلى العربية، والأخير كتاب توجته بتقديرها الأكاديمية الفرنسية.

لننظر الآن، بعد هذا العرض التاريخي الموجز، إلى المنطلقات الأساسيّة في تفهم هذا الشأن الإنساني، الخالص في إنسانيته:

كان أرسطو يميّز بين فضيلتين بشريتين: الحكمة النظرية (صوفيا) والحكمة العملية (فرونيزيس) - الأولى ضرورية لسعادة الإنسان لأن هذه السعادة لا تعدو أن تكون فكرة، وليست شيئاً منظوراً، فلا بدّ لتحققها من موقف فكري يسبق العمل من أجلها، ولا بد للعمل من وسائل ومناهج، وإمكانات، وهذه تحدّدها الحكمة العملية، حسب الظروف والطاقات الخاصة.

ويعتقد أرسطو أن اللذة شيء، والسعادة شيء آخر، رغم أنه لا يمكن أن تتحقق سعادة بغير لذة، والنشاط المرتكز على الفضيلة، أي الذي يراعي الأخلاق الفاضلة في وسائله ومناهجه، هو الذي يؤول إلى سعادة صاحبه، ومراس العقل وحده في تناول الحياة وشؤونها الخاصة والعامة، هو السعادة الكبرى لأن العقل وحده هو الإنسان، ولا إنسانية، أي لا سعادة إلا بالعقل.

ذلك هو ما أفضى إليه أرسطو، حتى إذا وصلنا إلى أبي حامد الغزالي، بعد فاصل زمني يربو على أربعة عشر قرناً، نجد القلب يحل محلّ العقل في نشدان السعادة. والقلب هنا، يعني التمرس العاطفي والعملي معاً بشؤون الحياة، ابتغاء الوصول إلى «الصفاء» الذهني والروحي، مما يعني ضمناً، إعمال الفكر أو العقل في توجيه الحياة داخل النفس، أولاً. ومن ثمة في خارجها.

يقول الغزالي: «الواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة، حتى تدري أي شيء أنت، ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأي شيء خلقت، وبأي شيء سعادتك، وبأي شيء شقاوتك».

ذلك بأن «العقل خادم القلب» في نظر الغزالي، و«القلب

مخلوق لعمل الآخرة، طلباً لسعادته،» ثم عليك أن «تعلم أن ما من أحد إلا ويدخل في قلبه الخاطر المستقيم. وبيان الحق على سبيل الإلهام وذلك لا يدخل من طريق الحواس، بل يدخل في القلب، لا يعرف من أين جاء».

والغزالي يستند، في هذا الموقف من العقل والقلب، وهو يأخذ بيدك نحو السعادة، إلى الواقع التاريخي في جانب والتجارب الإنسانية في الجانب الآخر، ذاهباً في أقصى ضميره، إلى أن السعادة رغم ارتدائها ثياب العلم، أو الكيمياء، إنما هي فيض من رحمة الله سبحانه وتعالى، لعباده» وهو الذي أرسل إليهم مائة وأربعة وعشرين ألف نبي (١٢٤٠٠٠) يعلّمون الناس نسخة الكيمياء، وكيف يجعلون القلب في كور المجاهدة وكيف يطهرون هذا القلب من الأخلاق المذمومة وكيف يؤدونه إلى طرق الصفاء».

السعادة (٢)

أخذت المجتمعات الأوروبية في أواخر القرن السابع عشر، تنحرف رويداً رويداً، عن المبادىء العقلانية التي دعا إليها ديكارت، إذ كانت هذه المبادىء تتسم بالصلابة في مقاومة الأهواء والصرامة في نشدان الدقة الرياضية، وأخذ حبّ الذات ـ الفردية والقومية ـ يستعيد اعتباره، بوصفه أحد معطيات الطبيعة البشرية التي لا جدوى في معاندتها، ولا معنى للتمرد الأرعن على حقائقها.

وليس من شأن هذا الحبّ، حبّ الذات، أن يشوّه صفاء العواطف، بل أن يمدّها بالطاقة ويزود حياتنا بالحركة والنشاط الفعّال المنتج، كما أنه ليس للعقل من وظيفة سوى إعطاء شكل لتلك الحركة، وتقنين ذلك النشاط.

وفكرة الخلاص ليست انتصاراً على حبّ الذات، وإنما هي، حين تتحقّق، نتيجة طبيعية له.

وإذا كان على الإنسان أن يقوم بواجبات معيّنة تجاه نفسِهِ،

فإن من أول هذه الواجبات، وأفضلها أن يعمل على تحقيق سعادته، والتحلّي بالكمالات والشمائل التي تؤول إلى هذه السعادة.

ذلك هو المبدأ الأساسي الذي انطلق منه القرن الثامن عشرُ في أحاديث لا نهاية لها ولا قرار، عن السعادة وشروطها، وأدوات افتتاحها والإبقاء عليها، ودراسة أضدادها وعلاقاتها بالأوضاع الاجتماعية والسياسيّة، ثم في تعقّب أنواعها، وصلات كل نوع منها بالعقل، واللذة، والفضيلة، حتى أفضى إلى قاعدتين فكريتين، كانتا في منتهى الخصب والغنى: الأولى، حياة النفس، والثانية راحة الضمير.

لا سعادة لنفس بلا حياة، ولا حياة مع ضمير متعب، أنهكته المخاوف وزعزعه الندم وعصفت به الذكريات الأليمة والأعمال المشينة.

وكان لهذا الاكتشاف الرائع، أن للنفس كما للجسم حياة خاصة، وشروط حياة، وأن للوجدان راحة هي الأساس في كل شعور بالفرح، أو الغبطة، أو السعادة - كان لذلك كله نتائج بالغة الأهمية في عالم الفكر خاصة، إذ انتقل الفكر الأوروبي بجملته إلى الجوانب العلمية، وانصرف عما عداها، فما كاد القرن التالي - التاسع عشر - ينتصف حتى توجه الأوروبيون

قاطبة إلى علمين: علم الحياة وعلم النفس، وإذا برائد الرواية الحديثة في روسيا نيكولاي فاسيليفيتش غوغول - يصدر عام ١٨٤٢ الجزء الأول من «النفوس الميتة» وكانت أول عمل أدبي يوجه الناس نحو التفكير في حياة النفوس، ويتحدث عن استغلال الموتى، ثم يتلو هذه الرواية كتاب «أصل الأنواع» في علم الحياة، لتشارلس داروين عام ١٨٥٩.

غير أن ذلك الولع الشديد بالعلم وتعليق الآمال كلّها عليه، أدّيا إلى نفي الحس الإنساني عن مسرح الحياة العامة، والارتطام في أوهام نشأت عنها فتنٌ كثيرة، وحروب راحت تتسع وتتسع، وطفقت المنافسة بين الشعوب والأمم ترتدي طابعاً مأساوياً شاملاً، وتتحول المنازعات الأوروبية إلى عالمية، وهذا هو السر في نشوء حربين عالميتين خلال النصف الأول من هذا القرن.

كان أن نسي الناس، مع الكشوف العلمية، وانتشار وسائل اللهو والترف، وامحاء المسافات وسهولة المواصلات، وتقدّم الطب، وانهيار الحواجز، التي كانت تحول دون تبادل العواطف والأفكار والمعلومات - نسوا في هذا الجو فكرة السعادة، ولم يبق لها ذكر في قليل أو كثير مع إطباق الهموم

وتسرّب العبوديات النفسية في جوّ الكلام الفارغ، عن الحريات الخاصة والعامة.

ذلك هو المناخ الفكري الذي أوجدته الحرب العالمية الثانية، وهو مناخ أغبر، داكن، بغيض، يشعر الفرد معه، أيّاً كان عمله، وأدبه، وشعوره، وتفكيره، أنه «عاجز» عن دفع البلاء المحدق بالناس من حوله، وأن المعضلة الكبرى التي يعانيها في نفسه، كما يعانيها غيره، خارجةٌ عن مطارح جهده، وأنها فوق طاقته، بالغة ما بلغت هذه الطاقة من القوة والسعة والتأثير. ما العمل؟.

- لا سبيل في مثل هذا المناخ إلا إلى شيء واحد، هو - فيما نحسب - العودة إلى فكرة السعادة، وإحياء البحث في سعادة المجموع، ارتكازاً على المعطيات العلمية الجديدة، دونما نظر والتفات إلى منابع الخلاف، ودواعي الشقاق، ومظاهر التهافت والانحلال، فإن من شأن العذاب حين يصبح شاملاً، أن يصرف الناس إلى التفكير في الخلاص منه. ولكن انصرافهم هذا يزيد عذابهم اشتداداً ويمد في عمره، ويغري الذين أفادوا، منه، ويفيدون، بالتشبث به.

الأفضل - وتلك هي الحال - أن يتعلق الناس بما هو إيجابي، بما يستهوي العواطف، ويستقطب الفعاليات،

ويجدّد نشاط العقول والمطامح، مثل البحث الجاد عن سعادة الفرد، وكيف تتحقق في هذه الأيام، من خلال سعادة المجتمع.

وذلك يعني أن نفكر أولاً في صحة المجموع، والوسائل التي تؤدّي إلى صحة الجسد والعقل، والنفس في كل بيئة، وبلد، وننتقل من ثمة إلى بث الحياة في كل نفس من النفوس القريبة منا، والبعيدة، على السواء حتى نصل أخيراً إلى بعث الأمل في راحة الضمائر، بما يبذل كل ضمير من جهد في إراحة غيره، والحدب عليه.

صحيح أن هذا يحتاج إلى وقت، ولكن هذا شيء كالحب أو الغرس، والحب ينمو، والأغراس تنمو، والنمو لا يكون إلا مع الوقت. فلنجرب، وتجربة الإسعاد بطبيعتها، مقبلة على نتيجة سعيدة.

* * *

الصداقة (١)

سمع المأمون أبا العتاهية ينشد:

واني لمحتاج إلى ظل صاحب
يروق ويصفو، إن كدرت عليه

فقال له: خذ مني الخلافة، وأعطني هذا الصاحب».

تلك هي العقدة الكبرى في الصداقة، ونشدان الصداقة، وهي أن تروق وتصفو، حين ينالك الكدر ممن تحسبه صديقاً لك، والمنصف الكيّس من الناس هو الذي يطالب نفسه بما يتمنّى أن يكون لدى غيره تجاهه.

إذا بلغت هذا الأفق النيّر الصاحي من التفكير، تجد أن في استطاعتك أن تحل كل عقدة، وتتغلب على كل عقبة في علاقاتك مع الآخرين.

بيد أن الجو الفكري الذي يسود الحياة الاجتماعية في كل مكان وزمان، هو الذي يملي، أغلب الأحيان، على الفرد

وجهة سيرة في شؤون الحب والصداقة، وكثيراً ما يتحكم بآرائه، ويقولب تصرفاته، فلا سبيل معه للاستقرار على حال، والوقوف عنده.

ولقد كان النظر إلى الصداقة، وفهمها، والتصرف بها، معايير دقيقة لما يخامر الناس في مجتمع ما من العواطف والنزعات والاتجاهات. فكانت المرأة في كل عصر ومصر، أقدر من الرجل على إدراك ما يرسب في اغوار المجتمع، والتغلغل إلى ما وراء الظاهر من حقائق.

يحكى أن امرأة قالت ذات يوم لزوجها: «أما ترى أصحابك إذا أيسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك».

أجابها:

ـ هذا من كرمهم، يأتوننا في حال القوة منا على الإحسان إليهم، ويتركوننا في حال الضعف عنهم..

ذلك جواب امرىء يحب الناس ويحاول أن يسبغ من روحه على الظواهر والأحداث، ما يصدف بالنفس عن السخط، ويجعلها دوماً في نعيم من الهدوء والرضا، وحسن الفهم.

ويحكى أيضاً أن بعضهم لقي مغنية ـ ونحن اليوم نقول: مطربة ـ وكانت عابسة متجهمة، فبادرها بقوله:

مرحباً ثم مرحباً بحبيب تغضّبا

فأجابته قائلة:

أنت كالريح لا تدوم جنوباً ولا صبا

المسألة كلها تدور حول إقبال النفس على الحياة وموقفها من الهم والكدر، فإن المتشائم لا يملك الاعتراف بشيء اسمه «الصداقة» مثل أبي حيان التوحيدي في تراثنا العربي ولا «روشفوكولد» في الأدب الفرنسي، وكلا هذين مر بتجارب قاسية مريرة جعلته ينزع إلى الكآبة والضيق بالناس والحياة.

وهناك من يحاول استغلال الحقيقة التي يقدمها الواقع من غير زيادة أو نقصان، فنجد شانفور مثلاً يقول: «تخليت عن صداقة رجلين: الأول لأنه لم يتحدث قط عن نفسه، والثاني لأنه لم يحدثني قط عن نفسي».

هذا يفيد أن الصداقة تقتضي على الدوام ضرباً من «التواصل» بين روحين، على أن يكون هذا التواصل مبادرة يتخذها المرء بنفسه تجاه نفسه في جانب، ثم تجاه صديقه في جانب آخر، فالذي لا يكون صديق نفسه، لا يمكن أن يكون صديق غيره، أي أنه لا بد من تفتح النفس على ذاتها، ثم على نفس أخرى نسميها «الصديق» ومشاركة هذه النفس

الثانية في تفتحها ذاك من طرفيها.

السؤال الذي يرد في هذا المقام هو: «كيف تنتج الصداقة إذاً بين كائنين بشريين، ما دامت نوعاً من تواصل حر ومشاركة في انفتاح ذي طرفين لا يمكن أن يبقى على قيد الحياة، إذا أغلقت من طرف أو قطعت من طرف؟».

المسألة هذه دقيقة في منتهى الدقة، ولا سبيل إلى حلها، على ما يبدو، إلا من خلال الملاحظة التي تنصب على عكسها، أي ملاحظة العقبات والعوائق التي تحول دون تحقق الصداقة.

هذا الموقف أوضحه وزير عباسي قديم طلب إليه زميل سابق أن ينقذه من ورطة وقع فيها، بأن يشهد شهادة كاذبة فقال له: «لا بقاء لاتفاق على نفاق، ولا وفاء لذي مين واختلاق، وأحرى بمن تعدّى الحق في مسرتك إذا رضي، أن يتحرى الباطل في مساءتك إذا غضب».

المعنى الذي يصح استنتاجه من هذه الملاحظة البالغة في أهميتها هو أن الصداقة لا تنتسج بخيوط وهمية ولا يمكنها أن تستمر إلا على أساس من الحقائق والوقائع، أي بمبادرة ذاتية من الجانبين ومشاركة فعلية في انفتاح نفس على نفس أو قلب على قلب.

هنا نصل إلى بيـان جملة من الأوهام الاجتمـاعية الكبـرى التي سادت كثيراً من الأزمنة، ولا تزال تسود كثيراً من الأمكنة وذلك من خلال تبيّننا لبعض الخيوط الوهمية التي تنتسـج بها الصداقات وتقوم على أساسهـا كثير من العـلاقات وقـد تكون رابـطة النسب أعظم هـاتيك الأوهـام ـ الاجتماعيـة ـ وأشدهـا خطراً، وإيغالاً في الضلال والجهالة.

سُئِـلَ ابن المقفـع: «أصـديقـك أحب إليـك أم نسيبـك» فـأجـاب: «إنمـا أحب النسيب إذا كـان صـديقـاً» وليس من العسيـر بلوغ المرمى البعيـد الذي يشف عنـه هذا الجـواب، وخلاصته أن النسب لا يشكل رابطة أو سبباً لنشوء الصـداقة. العكس هو الصحيح أي أن الصـداقة هي التي تصلح أسـاسـاً ومنطلقاً للنسابة.

وهنا نصل أيضاً إلى قضية العصـر الكبرى ألا وهي عـلاقة الرجال والنساء بشكل عام.

الصداقة (٢)

ما من كلمتين في العالم كله، يتداخل مفهوم كل منهما في مفهوم الآخر مثل الحب والصداقة، بحيث يعسر الفصل بينهما، ولا يملك الذهن بالغاً ما بلغ من الصفاء، أن يرسم حداً واضحاً لأيّ منهما، ولا سيما حين يتعلق الأمر بشخصين من جنسين مختلفين.

هذا التداخل في المفاهيم كان السبب في التساؤل عن إمكان الصداقة بين الفتى والفتاة، أو بين الرجل والمرأة بصورة عامة، ثم كان السبب في تعارض المواقف التي اتخذها النساء والرجال على مدى العصور كلها من هذه المسألة الشائكة.

وخطورة المسألة هذه إنما تنبع من تشابك المفاهيم الأساسية كالحب والبغض، والنفرة والألفة، والابتهاج والاكتئاب، ثم من ترابط المقولات المعروفة من عقل وشعور وخيال وغريزة داخل النفس الواحدة أياً كان الجنس الذي تنتمي إليه.

هناك حالة واحدة يصبح الحب فيها مستحيلاً، هي الشعور بالخوف، والصداقة أكثر استحالة مع هذا الشعور، فإن حبك شخصاً ما يقضي على خوفك منه. ذلك ما يقرره تيودور ريك وهو فيما يظهر قريب من الصواب.

ولكن هذا المفكر - وهو أميركي - يرى في جانب آخر، أن الحب ينشأ داخل الذات، عن استياء يستشعره المرء - أو المرأة - من نفسه، وهذا الاستياء مشروط بحالة من انعدام الأمان في قرارة السريرة ومعرفة بالإخفاق في محاولة التلبية لمطالب أثيرت في تلك السريرة.

الواقع أن مثل هذه النظريات التي تتحرى أصول الحب - أو الصداقة - في حياة النفس البشرية لا يمكن أن تؤدي إلى حقيقة راسخة، مستندة إلى ما لا يمكن دحضه، لأن الأصل في هذه المعاني الإنسانية جميعها - الحب، الجمال، الخير، الحق، الكرامة، الخ. . - واحد لا يتغير، ولا يتبدل، ألا وهو الروح الإنسانية باعتبارها كائناً غير حيواني ولم يبق لها غير صلة ضئيلة، في منتهى الضآلة، بغرائز الحياة الحيوانية، بعد أن أشبعت بالعقل وتنامت في فضاء العقل وموجباته وحقائقه.

والقول بأن الحب ينشأ عن الشعور بالاستياء، وعدم الطمأنينة، تغليب للجانب الحيواني على كل ما عداه في

كيان الإنسان، وتجاوز أو إغفال للقيم الإنسانية التي لا يعرفها الحيوان وإن بدا أنه يعطف على صغاره مثلاً، ويضحي في سبيلها، لأن مثل هذا العطف، وهذه التضحية لا ينشآن عن تفكير بمقدار ما هما استجابة لفطرة غير واعية أو غريزة عمياء.

الحيوان لا يتخيل، ونحن نعلم أن الحب، شأنه شأن الصداقة، إنما يتنامى ويزدهر ويشتد عودهُ داخل الذات عن طريق الخيال، أو التوهم أو التصور.

والحيوان لا يصادق، لأن الصداقة شعور عفوي بالانعطاف نحو كائن آخر في مستهل أمرها وصاحبه يجد سروراً داخل ذاته، بإدخال السرور على قلب ذاك الذي انعطف نحوه.

والحيوان لا يفكر والصداقة لا تكتمل إلا بتبادل الأفكار بين شخصين واتخاذ المبادرات المدروسة لتحقيق مثل هذا التبادل الفكري وتأثيره ومراقبة تأثيره في حياة الأصدقاء.

هذه الحقائق الأساسية الجوهرية تحمل الفكر الهادىء المستنير، على اعتبار الصداقة، معنى مستقلاً كل الاستقلال عن الجنس، وكل محاولة أو نظرية تربط الصداقة بالجنس أو الغريزة أو المنفعة أو بحالة نفسية غير سوية ـ الخوف، القلق، الاستياء، الاضطراب. . ـ إنما تعني بذلك، أنها

تضرب صفحاً عن ميزات الإنسان الأساسية: النفسية والأخلاقية وتلغي دور الذاكرة والخيال، والفكر، وحتى الإرادة في سيرة الإنسان مع نفسه ومع غيره.

وليس هذا كل شيء. هناك جانب أساسي في نشوء الصداقة وتكوينها، قلّ أن نلتفت إليه في مجرى حياتنا العادية وهو أنها تنشأ وتتنامى في حياة الأطراف المتصادقة على أساس من لحاظ المستقبل والتفكير فيه وبمعنى أنها كائن حي يولد، ويتغذى، وينمو، ويتوجه نحو غايات، هي نيّات ينطوي عليها كل ضمير بمفرده في إتصاله بضمير غيره.

والصداقة بذلك أحد مظاهر الذكاء البشري، وقد بين روجه مارتان دوغار أن «الذكاء البشري مشبع في جوهره بالمستقبل لدرجة أنه في اللحظة التي تلغى بها كل إمكانية للمستقبل، أي عندما تتغير أية وثبة من وثبات الروح بالموت، لا يبقى ثمة مجال إمكانٍ لفكر».

ومعنى ذلك أن الصداقة بين طرفين أو أكثر لا يمكن أن تنعقد إلا من خلال التفكير في المستقبل، وهنا تلتقي مع الحب ولا تختلف عنه بشيء من حيث النشأة والنمو.

والظاهر أن عصرنا الحاضر أخذ يتجه نحو تحويل الحب

إلى صداقة بين الجنسين متوسلاً إلى ذلك بكل ما توفر لديه من حقائق العلوم وقواعد التربية ومعطيات المسالك والطباع وليس ببعيد أن يوفق، وكل من سار على الدرب وصل.

* * *

الخيال

يلعب الخيال دوراً أساسياً في كل علاقة إنسانية، ولا يقتصر هذا الدور على الحب وحده، كما نعرفه في الأحلام والأشعار الغزلية، وإنما يمتد، ويتسع ويتنامى حتى يشمل الصداقة والتجارة وسائر أنواع الاتصال بين الكائنات البشرية.

بيد أن العلاقة بين الجنسين كانت، ولا تزال المسرح الحقيقي للخيال البشري وهو المسرح الرحب الذي نستطيع فيه أن ندرس الخيال، ونتعرف به إلى حقيقته ومظهره وجوهره، ولنا أن ننتقل من بعد إلى العلاقات الأخرى، وقد حصلنا في شأنه على زاد يمكننا من متابعة البحث والدرس دون الوقوع في أخطاء أو أخطار.

والذين يعرفون الشعر العربي يذكرون أن للغزل فيه أبواباً كثيرة، منها: التخاطب بالنظر، الرقيب، الواشي، العاذل، الأرق، الجفاء، الدلال، مما لا سبيل إلى حصره وتفصيله. وقد يكون أعسر هذه الأبواب الغزلية على الفهم وأشدها إمعاناً في الغموض هو «باب الطيف».

والواقع أن طيف الحبيب أو الحبيبة يطرح مسألة الخيال وقيمته في العلاقات الإنسانية ويحملنا على إعادة النظر في كثير من الحالات والأوضاع والمواقف التي يبعث عليها الخيال، ولا شيء غير الخيال، حتى ليمكن القول دون أدنى تجاوز للواقع أن الخيال يؤدّي دوراً مهماً في السلوك والعلم والفن والأدب، لا يختلف عن دوره في الحب والصداقة والشقاء والسعادة.

وقد جاءت النظرات الفلسفية والعلمية الحديثة، تولي الخيال أقصى ما تستطيع من اهتمام وعناية وتدبر، وتقع في شأنه على أفكار وآراء ترده إلى مقام عال، جد عال، في حياة النفس والمجتمع، وتجعل العلم والمنطق وراءه أو دونه في الأهمية والفائدة.

هكذا.. نجد فاراداي عالم الطبيعة والكيمياء الشهير، ومكتشف البنزين يقول: «لو علمتم ماذا فعلت حتى أفضيت إلى اكتشاف ما اكتشفت، لاعتبرتموني مجنوناً» وكل ما فعل أنّهُ أفاد من الخيال في الوصول الى كثير من حقائق العلم المادي المحض.

وفاراداي لا يقف وحده في هذا المضمار فإن كبار المخترعين والمكتشفين اعتمدوا الخيال في إنجاز ما أنجزوا،

وكانوا بذلك لا يختلفون عن الشعراء، وهذا ما حمل المُفكرين المحدثين والمحلّلين النفسانيين منهم خاصة على اعتبار النزعات والأهواء العاطفية، ينبوع الأعمال الفنية، ومصدر الروائع القيمة في عالم الأدب والموسيقى والنحت والتصوير.

وكان هذا الرأي الأخير سبباً في نشوء العديد من النظريات التي تحاول تفسير هذه الظواهر: الموهوم، الخيالي، الواقعي، المدرك الحسي، اليقين العلمي، وأن تحدد الفروق بين كل منها.

الموهوم صفة ما لا وجود له إلا في ذهن الواهم.

الخيالي يمكن أن يكون نسخة ذهنية عن محسوس، بنسبة ما يمكن أن يكون صورة معدلة أو مشوهة، زيد فيها أو أنقص منها، ولِكنها تظل في رأي التجريبيين منتزعة من واقع.

والواقعي هو المحسوس أو صورة عنه، تتسم أكثر ما تتسم بأن العقل يقبلها أو لا ينكرها على الأقل.

والمدرك الحسي هو ما يلج الحس من الخارج، أو ما ينفذ إليه الحس الداخلي، ويصوّرُهُ للخارج.

أما اليقين العلمي أخيراً، فهو المعرفة التي ترتكز على

الواقع المحسوس ويطمئن إليها العقل، ولا يمازجها شيء من التوهم، أو التشويه، ولا تتعارض في بعض الحالات مع الخيال لأن خيال العالم الذي ينشيء الفرضيات ويقيمها، يعيش حالة وفاق مع العقل وإقامة الممكن، عملية ذهنية من شأنها إعداد المعرفة الصحيحة أي معرفة الواقعي، والخيالي الذي يقبله العقل يصبح صورة أولية لما هو معقول في الواقع، وهو الذي تسفر عنه التجربة المكتملة الشروط والظروف.

لننظر الآن إلى بعض الحالات الخيالية التي تفيض بها الطبيعة أو الفطرة البشرية ويصفها الشعراء، يقول قابوس بن وشمكير:

خطرات ذكرك تستثير صبابتي
فأحس منها في الفؤاد دبيبا
لا عضو لي إلا وفيه صبابة
فكأن أعضائي خلقن قلوبا

ويقول ابن القطّان:

ما مر يوم عليّ لم أرك
إلا وجدت الضمير صوّركِ

ويقول علي بن الحسين المرتضى:

وزارت وسـادي في المنـام خـريـدةٌ
أراهـا الكـرى عيني، ولسـت أراهـا
فمـاذا الـذي من غيـر وعـد أتى بهـا؟
ومـن ذا على بعـد المـزار هـداهـا؟

وقالوا:

عسـاهـا بعـد زورة باطـل
تـزور بـلا ريـب، فقـلـت: عسـاهـا

هذه نماذج أوصاف لحالات خيالية تعبر عن واقع، وما أكثر أمثالها، ومنها يتبين أن الذاكرة التي تختزن انطباعات تسري في كيان الإنسان خلال حياته اليومية هي الأساس في نمو خياله واتساعه وإبداعه.

لم يبق إلا أن نتعهد هذه الانطباعات ونعمل فيها الفكر، علّها تفتح آفاقاً جديدة في السلوك والشعور والعمل.

* * *

المثل الأعلى

رأينا في الحديث السابق أن الخيال لدى رجل العلم يعيش في حالة وفاق مع العقل، وأن خيال الشاعر يعبر على نحو من الأنحاء عن واقع، وإن كان يصف حالات وأوضاعاً يمكن أن لا يعرفها غيره ولا تخطر ببال أحد سواه لأنه يتأثر بانطباعات خاصة، وكثيراً ما يحدث أن تكون عامة أو قابلة لأن تصير عامة على الأقل..

هذان النوعان من الخيال: العلمي والشعري مع ما يميزهما من توافق مع العقل أو تصوير لواقع خاص هما اللذان يكونان على التحقيق، وراء ما نسميه «المثل الأعلى» في كل جهد أو مسعى يبذله الإنسان كائناً من كان، خلال سيره على طريق الحياة نحو المستقبل. ما هو هذا المثل الأعلى وكيف لنا أن نفهمه؟؟

- قد يدعوه بعضهم «الغاية» التي تراد من الحياة جملة وتفصيلاً، أو «الهدف» الذي يود البعض الآخر أن يصل إليه

وأياً كان الاسم، فإن المعنى الذي ينطوي عليه يظل واحداً. وهذا المعنى هو الذي أوضحه لويس لافيل بقوله: «ليس المثل الأعلى شيئاً، أكثر من الشعور لدى كل لحظة، بعدم الكفاية فيما تم إنجازه».

ذلك بأن المثل الأعلى الحقيقي يبتعد كلما اقتربت منه، فإذا تصورت أنك بلغته كان تصورك هذا إنكاراً له وتنكراً لعلوّه..

هذا ما يؤكده (لاكروا) وهو على صواب في تأكيده. ونجد غبريل مارسيل يوضح الموقف بقوله: ليس النادر أبداً حب المثل الأعلى، ولا حس الواقع. إنما النادر هو الحس بمقدار المثل الأعلى الذي يمكن أن يسمح به الواقع، لأن المسألة هنا تتحرك إلى مقادير، ويؤدي تمازجها إلى نتيجة منشودة أو مرجوة كما هي الحال تماماً في تركيب دواء من عدة عناصر فإذا لم تكن المقادير متوافقة ولم يحصل المرجوّ من تدامجها، تصبح إعادة النظر في العناصر ومقاديرها، وفي النتائج، ضرورة لا ندحة عن مراعاتها وأخذها بعين الاعتبار..

هنا لا بد من اللجوء إلى تجارب المجربين والاطلاع على آراء الخبراء والمفكرين..

ها هو موريس ميترلنك يوضح بكل دقة: «ليس أجمل

المثل العليا سوى مثل مؤقت ما دام لم ينفذ ككامن نألفه ويألفنا إلى جميع الأعضاء، ما دام لم يجد الوسيلة إلى التسرب حتى أطراف أصابعنا كما يعبرون».

وها هو رينه لوسيلك يبين أن الإنسان يسيء أحياناً إلى الأخلاق الحميدة بالاستعفاء، إذ يتوانى عن رفع مثله الأعلى إلى مستوى كاف، ولكنه يقوم كذلك بالإساءة نفسها من خلال التهرب، حين يعمد إلى ملاحقة مثل أعلى لا يمكن تحقيقه..

المسألة كما ترى في منتهى التعقد والحساسية إذ لا يصح ألا يكون مثلك الأعلى دون كفاءاتك كما لا يصح أن يكون موغلاً في البعد وعسر المنال لدرجة يغري معها باليأس من السير نحوه، فضلاً عن الاقتراب منه.

هذه الاعتبارات التي تحيط بالمثل الأعلى سواء ما يتعلق منها بفهم الظروف والأوضاع والمواقف، أو بالمقادير الخيالية والواقعية وتمازجها، أو بمدى البعد عن الهدف وقربه أو ارتفاعه وانخفاضه عن الكفاءات والإمكانات.

هذه الاعتبارات بجملتها جعلت الغالبية العظمى من أبناء البشر يحيون بلا هدف، ويصدون عن سبل المثل العليا، ويضيقون ذرعاً بما تقتضيه من جهد متصل، وتيقظ دائم،

واستعداد لمواجهة كل تغيير، ومجابهة كل عقبة.

لا بد هنا من إيضاح عدة نقاط أساسيّة: الأولى أن المثل الأعلى للمرأة على العموم، غيرهُ للرجل. وهذا التغاير يفرضُهُ الواقع القائم في مختلف البيئات. وليس من الجائز أن نضرب صفحاً عن المناخ الفكري السائد في كل بيئة على حدة، فإن المثل الأعلى في حياة كل فرد أو مجتمع يشكل جزءاً من ذلك المناخ، ولا يستطيع الانتقاض عليه دفعة واحدة، وإلا تحول إلى خيال محض، لا صلة له بالعلم حتى ولا بالشعر..

والنقطة الثانية أنه لم يعد من الطبيعي في هذا العصر أن تنساح المرأة أو الرجل إنسياحاً مطلقاً شاملاً مع العواطف والأحاسيس والانطباعات التي يفقدان معها السيطرة على المصير، ويضيعان بها عن الهدف بمعنى أن أيام ليلى والمجنون وروميو وجولييت انتهت إلى غير رجعة فلا بد من تحوير هذه العلاقة بين الجنسين عن سيرتها السالفة، لتصب مع جميع الأحوال والأوضاع فيما يؤمن للجانبين على السواء، حداً أدنى من التفاهم والتعاطف والسلامة...

أما النقطة الثالثة والأخيرة فهي وجوب الاستعانة بكل ما قدمت العلوم الحديثة في دنيا الطب والنفس والاجتماع

والحياة من حقائق لتقدير ما يصح أن تطمح إليه المرأة ضمن ظروفها وإمكاناتها، كي تسير نحو أهدافها كالرجل بهدوء ورصانة متذرعة بالحكمة والأناة على أن تراعي في أهدافها شيئاً واحداً: هو أن لا تسيء إلى أحد من الناحيتين: المادية والمعنوية.

إذا نحن وضعنا هذه النقاط الثلاث في الاعتبار، حين نأخذ في تصور هدف للحياة نضعه نصب أعيننا ونوليه حبنا وجهدنا، أمكن التغلب على المصاعب وقوي الشعور بالحياة. وهذا هو أول المكاسب وأعظمها.

المستقبل

التفكير في المستقبل من جانبه العلمي لا النظري، يقوم أيضاً شأنه شأن المثل الأعلى أو الهدف أو الأمل المنشود على الخيال وحسن استعماله، وطريقة الإفادة منه ونحن نعلم علم اليقين أن النوع الإنساني برمته لم ينقطع يوماً من الأيام عن التفكير في المستقبل، ومحاولة التعرف إليه وكشف الغطاء عن وجهه، والبحث عن وسائل احتياط تجنبه ما قد يحمل من أخطار ومساوىء. . .

بيد أن محاولات الأقدمين هذه كانت تتعثر بأوهام خطيرة تزيد في حيرة الواهمين وتقضي على آمال الحالمين. . وهذه الأوهام لا تزال ماثلة في مواقف وأعمال تفتقد الرابطة بين السبب والنتيجة كالبحث عن المستقبل لدى السحرة وأمثالهم من الذين يوفقون أحياناً في استعمال خيالهم وألسنتهم دون أن يكون وراء كلامهم وتصوراتهم فكر أو واقع أو دليل يصح الاطمئنان إليه.

ظل هذا الجو الفكري يسيطر على جمهرة الناس في أوروبا كما في غيرها من القارات حتى منتصف القرن الماضي. وهو القرن الذي عرف باندفاع أهله نحو العلم وإقباله العجيب على الدراسات والمباحث العلمية.

كان النظر إلى المستقبل خلال تلك الحقبة ينطلق من موقف رومانطيقي انتشر وعمّ قبل نحو من قرن على يد المفكرين: (روسو، وديديرو، وكوندورسيه ومدام ده ستال) وغيرهم وهؤلاء أنفسهم تأثروا بأدباء أوروبا الشمالية وشعرائها ومفكريها من شكسبير إلى غوته إلى شيللر إلى هولدرلن.

والموقف الرومانطيقي نفسه تحدر إلى أوروبا من التوجهات الصوفية التي سادت القرون الوسطى وكان للعرب اليد الطولى في انتشارها والاقبال عليها أثناء تواجدهم في اسبانيا وصقلية. وهذا جلي وواضح في مؤلفات محيي الدين ابن العربي الشعرية منها والنثرية..

وقد تناول ابن خلدون في «المقدمة السادسة» من الباب الأول، الموضوعات الآتية: في أصناف المدركين للغيب من البشر، تفسير حقيقة النبوة والوحي والكهانة والرؤيا والإخبار بالمغيبات. وكان من رأي ابن خلدون في الكهانة أو الاطلاع على المستقبل، «أنها من خواص النفس الإنسانية لأن بها

استعداداً للانسلاخ إلى الروحانية».

والمسألة في حقيقتها التي انطرحت على الفكر الحديث هي: هل يمكن التنبؤ بما يحدث في المستقبل؟

- يرى الدكتور كاريل أن ثمة أناساً يتفردون بخصائص عقلية وشعورية تمكنهم من «السفر» بالفكر في عالم الماضي كما يتفرد آخرون بخاصة السفر في المستقبل وقد بنى الطبيب المفكر رأيهُ في اكتشاف هذه الخصائص على أساس من فكرته في الزمن وهي أن «الزمن الحقيقي ينقش في أعضائنا وأمزجتنا. وتتابع حالاتنا الوجدانية يعطينا عن هذا الزمن الحقيقي فكرة أيضاً فإن الكيان العضوي يخضع لتغيرات كيفية وكمية. وثمة انطباق غير دقيق بين هذه التغيرات والزمن الفلكي. وكل فرد منا يشيخ وفق سرعة خاصة به».

إذا كنا نحمل الماضي في دمائنا وتكوين أعضائنا، يصبح من اليسير على الفكر إذا صفا أن يجوس آفاق ذلك الماضي كما يصبح من المقبول أن «يسافر» في أبعاد المستقبل..

وهناك حدود للممكن تتضح بها ومعها حدود المستحيل. غير أن الممكن عالم يتسم أكثر ما يتسم بالانفتاح لعقل، والانغلاق لعقل آخر، فلا يتاح لأحد رسم حدوده إلا من زاوية ذاتية خالصة. وهذه الزاوية تتفرج أو تضيق حسب السن

والمعرفة والخبرة والظروف الخاصة والعامة . .

تلك حقيقة علمية ارتكز عليها ارثر كلارك وهو من رواد الخيال العلمي في هذا العصر - في تأليف كتابه «وجوه المستقبل»، واستطاع أن يكتشف قانونين وضع صيغتهما على النحو الآتي :

أولاً : عندما يقدّر عالم متميز ولكنه أخذ في الشيخوخة أن شيئاً ما يمكن أن يحدث فهو بكل تأكيد قريب من الصواب ولكنه حين يعلن أن شيئاً ما مستحيل فإنه يكون في أكبر احتمال على خطأ.

ثانياً: الأسلوب الوحيد في استكشاف حدود الممكن إنما هو أن نغامر قليلاً في تجاوزها . .

هناك اعتراض على هذا القانون هو أن المغامرة تتنافى والعقل حين تمس حقوق الآخرين، أو تعرضهم لخطر من الأخطار فإذا روعيت هذه الحقوق وتم تدارك الأخطار المحتملة تحولت المغامرة إلى تجربة ذات صبغة أخلاقية. وعند ذلك يصبحُ القيام بها واجباً علمياً وأخلاقياً في آن معاً . .

والحقيقة الأخيرة هي أن معرفة المستقبل تقتضي أول ما

تقتضي أن يعرف الإنسان ما يريد على أن يكون هذا الذي يريده، خلواً من كل سوء أو ضرر يصيب الذين لا يريدون السوء ولم يعملوا على إلحاق الأضرار بغيرهم.

الحدس

تحدثنا عن الخيال والمثل الأعلى والمستقبل والثلاثة هذه مترابطة فيما بينها ولا فكاك لواحد منها عن الآخر، في نطاق الإدراك والفهم والتصور. .

غير أن إدراك هذه الأشياء الثلاثة والنفاذ إلى الرابطة التي تربطها يمكن أن يتم عن طريق غير مألوف أو غير منتظر وهو مانسميه «الحدس» بمعنى أن التقاط الخيال، وتصور المثل الأعلى، ورؤية المستقبل عمليات ذهنية أو فكرية يمكن أن تتحقق دِاخل الذات على نحو مفاجيء. وعنصر المفاجأة فيها هو ما يتميّز به الحدس. ولذلك يصعب تعريف هذه الكلمة وإن كان العرب قد وفقوا إلى ما لم توفق إليه سائر الأمم حين أوجدوا كلمة خاصة «الألمعية» كمرادف للحدس توضح إلى حد بعيد حقيقته. .

والفلاسفة، شرقيين كانوا أم غربيين، يعرفون الحدس ولكنهم لا يعرفون «الألمعية» فلنحاول أن نفهم:

تبين المعاجم اللغوية أن «الألمعي»، هو الذي إذا لمع له أول الأمر عرف آخره يكتفي بظنه دون يقينه، مأخوذ من اللمع وهو الإشارة الخفية والنظر الخفي».

وكان الشاعر قد أوضح الصفة في هذا البيت:

الألمعي الذي يظن لك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

وجاء في توضيح آخر: الألمعي هو الذي يتظنّى الأمور فلا يخطىء».

الألمعية إذاً ضرب من الظن يتميز بصوابه ولكنه يرد على الذهن بشكل إيماضات سريعة أو لمعات جدّ قصيرة.

يمكن الآن أن ننتقل ألى «الحدس» حيث نجد الخبراء في الفكر الهندي أقوى من غيرهم وأوضح في هذا الشأن ونجد بول برانتون أحد هؤلاء الخبراء يوضح على أفضل ما يكون الإيضاح: «أن حدساً ما هو فكر أو فكرة تنبجس طوعاً ـ دون أن يبحث عنها من قبل ويؤكدها الأنا دون تردد. إنها تولد كبرقة حين تشاء ذلك وتظل مستقلة عن الارادة، ثم تتوارى دون اخطار ويمكنها الادعاء بأنها تكشف لنا فجأة شيئاً ما عن الطبيعة الحقيقية لموضوع من الموضوعات وتشكل نبوءة بأحداث مقبلة وتقدم وصفاً لوقائع جرت في ماضي سحيق أو تضع صيغة ـ وهي الحالة الأكثر حدوثاً لنصيحة بتصرف معين

في مواجهة بعض الظروف».

نستطيع أن نلخص هذا البيان بالقول المفصل: إن الحدس إصابة الظن، غير أن ذلك يطرح على الذهن سؤالاً جديداً: ما هو الظن؟

يبدو من مجمل السياقات المختلفة التي وردت فيها كلمة «الظن» ومشتقاتها أن معناها ينحصر في تصوّر ذاتي محض يختلف حسناً وسوءاً باختلاف الحالة النفسية المهيمنة عند انطلاقته، فهو في طور منقطعٌ عن الواقع مخالف للحقيقة، يبعث عليه سوء فهم أو اضطراب نفسي أو هوى أو طمع في نفع أو حقد خاص. ذلك هو الظن السيء الذي ينبغي تجنبه ولكنه في طور آخر ينقلب رأساً على عقب أي حين يستند التصور إلى واقع ويقوم على تعلّق بالحقائق، ولا يشف عن طمع، ولا يهدف إلى إلحاق أذى أو ضرر بأحد..

هذا النوع من الظن يقترب من الخيال العلمي أو من العلم نفسه.. مما يفيد أن معيار التصور الصحيح في تناول الشؤون والقضايا الإنسانية (الفرضيات، النظريات الآراء في شؤون الغيب والمستقبل...) إنما هو ابتعاده عن العلم واقترابه منه..

والاقتراب من العلم يعني «تقديم البينة» بين يدي كل ظنة

أو قول أو شرح أو تأويل. و«البيّنة» هي الأثر أو الواقعة أو الدليل الحسي التي يتحول بها الشك إلى يقين والظن إلى علم..

وهكذا.. تتحول مسألة الحدس كلها إلى صحة النفس وصفائها وقدرتها على التقاط الحقائق الغائبة أو المغيبة واستحضار الأدلة أو البيّنات على أنها حقائق. وقد انصرف انتباه المعاصرين والمفكرين منهم خاصة إلى هذه المسألة وأولوها أهمية كبرى، بعد أن اهتدوا إلى ما يسمونه (الحدس المسدّد) أو (المطول) وعو عبارة عن تمثل خيالي يحدد بالمقارنة معطيات الحدس إلى مجال لا سبيل فيه إلى إهمال الحدس. وكانت الرياضيات الحديثة هي الميدان الأوسع لمثل هذه التمثلات التي لا نملك التوغل في بيانها وتفصيلها في حديث كهذا..

ولكن لا غنى عن الإشارة إلى أن عدداً بين المعاصرين من المفكرين بالغوا في تنظيم الحدس والتركيز على أهميته لدرجة جعلتهم ينكرون قيمة المنطق والمحاكمة المنطقية إلى جانبه، وحاولوا إلغاء كل ما عداه في تقرير حقائق الزمان والفضاء والجمال والحرية..

والواقع الذي لا يحتاج إلى مبالغة ولا تجدي في إقراره أو

إنكاره مبالغة هو أن صفاء النفس وعافيتها وحيويتها تؤدي على الدوام إلى صحة التفكير وسلامته أيّاً كـان اللون الذي يتخـذه الفكر ضمن تلك النفس سواء ظهر في شكل خيـال محض أو تصور أو توهم أو منطق أو محاكمة عقلانية . .

صفـاء النفس هو الأساس، وصحة العقـل هي المنطق، في كل حدس صحيح ، أو خيال مبدع ، أو فكر بناء .

التجارب

هناك أشخاص: رجال ونساء يصعب عليهم أن يؤمنوا بشيء اسمه المنطق أو العقل أو الحدس، ولا يتاح لأحد إقناعهم بفكرة أو عقيدة أو مبدأ عن طريق البرهان والجدل والقواعد العلمية فهم لا يذعنون إلا للتجربة ولا يسلمون بحقيقة من الحقائق إلا بعد إجراء التجربة. فما هي هذه التجارب التي توشك أن تتحول إلى «عبادات» في عقلية الداعين إليها، الكافرين بما عداها من قضايا الفكر والعلم؟

ـ التجربة في الواقع مقولة عرفها الأقدمون على نحو ما عرفها المحدثون وكانت الأساس في نشوء معظم المعلومات الطبية والصيدلية والكيميائية والفيزيائية ثم انتقلت إلى مجالات العلوم الإنسانية: النفس، والاجتماع والاقتصاد والسياسة وغدت فلسفة متكاملة شاملة.

يحدثنا الأقدمون أن أعرابياً قدّم قوماً فقال: «أدّبَتهم الحكمة، وأحكمتهم التجارب ولم تغررهم سلامةٌ تنطوي على تهلكة».

نحن هنا أمام بساطة الفطرة أو فطرة البساطة في أغنى وأروع وأخصب ما يمكن أن يصدر عنها في ملاحظة الوقائع ووصفها وحسن التعبير عنها. .

ويكفي أن نتأمل هذا الكلام ونتساءل عما يختزن ونتدبر وجوه معانيه فالحكمة مبثوثة في الطبيعة والحياة والمجتمع ومن شأنها أن تؤدب من يهتدي إليها فكيف يتم هذا التأدب والتأديب؟

الجواب: عن طريق التجارب. . .

والأحكام أي ضبط السلوك وتوجيه التصرف بما ينسجم والحكمة كيف يتم؟

الجواب: عن طريق التجارب. . .

إلا أن القضية الكبرى هي هذه السلامة التي تنطوي على تهلكة في حياة الفرد والجماعة، وكيف تمكن ذلك الأعرابي البسيط من النفاذ إليها على شدة تعقدها وغرابة تصورها فإن ثمة حالات يشعر معها المرء بالطمأنينة والسلامة ولكنه يجهل في الوقت نفسه ما يحيق به من أخطار وما يحمل موقفه من مكاره لا تخطر ببال، فكيف يتم إدراك ذلك؟؟

الجواب: أيضاً وأيضاً: عن طريق التجارب. . .

والحقيقة أن التجارب في نظر الأقدمين: «مرائي الغيوب ونواظر العيوب».

وقد تكون أفضل طريقة لفهم هذا الواقع، الرجوع إلى تاريخ الطب والاطلاع على المراحل التي مر بها اكتشاف دواء معين لمرض معين، في حالات وأوضاع معينة. وحينذاك نجد أن للمصادفة يداً طولى في العثور على خصائص بعض الأعشاب مثلاً، والأحجار والمعادن، والسوائل واللحوم، كما أن للخيال يداً في تحضير كثير من العقاقير وتركيبها وأن هذه العقاقير لم تأخذ سبيلها إلى الاستعمال والانتشار والتداول إلا بعد أن أخضعت لعدد كبير من التجارب ليس لها نهاية. والمرء منها أبدا في زيادة. وثمة من يؤكد أن «العقل كالسيف والتجربة كالمسن» وهذا يعني أن التجربة لا تغني عن العقل وأن العقل لا يملك أن يكتفي بنفسه..

لننظر الآن إلى المواقف الحديثة التي اتخذها المفكرون في هذا العصر من التجربة والتجريب. وأول ما نقع في هذا المجال على تفرقة حاسمة بين حالتين: النظرية والعلمية. الحالة الأولى من شأن العقل، والثانية من شأن التجريب.

لقد كان الطب في هذا العصر كما هي الحال في العصور الوسطى والقديمة هو الباب الذي ولج منه الفكر هذه الدراسات والمباحث الفلسفية المكثفة..

بيد أن الطب يقوم أكثر ما يقوم على التشريح في جانب ومعرفة وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) في جانب آخر أي معرفة واقع الطبيعة في الدرجة الأولى. ولذلك انصرف المحدثون أول ما انصرفوا إلى الإحاطة الدقيقة بأعضاء الجسم ومعرفة وظائفها الحقيقية في بنية الجسد والنفس معاً وفهم العلاقة بين هذين وتأثير كل منهما في الآخر. وكان أن ظهر عام ١٨٦٥ كتاب كلود برنار الفرنسي «المدخل إلى دراسة الطب التجريبي» وفيه طرحٌ للمبادىء الأساسية التي يقوم عليها البحث العلمي. وهذه المبادىء هي التي انتقلت إلى سائر فروع المعرفة وشملت العلوم الإنسانية..

يقول كلود برنار: «التجريبيون هم أولئك الذين يتوجهون بتجربة غريزية مكتسبة من خلال وقائع لم يعملوا فيها العقل وإنما لحظوها على نحو ما بكيفية غير واعية».

والمسألة الحقيقية التي تطرح نفسها على الفكر المعاصر هي: ماذا نفيد من التجربة؟ وكيف نفيد من التجارب؟؟؟

لنأخذ تجربة الحب مثلاً: فهي غريزية كما يعبر برنار وليس للعقل يدٌ فيها وتحدث إذ تحدث بكيفية غير واعية. والحب لا يؤدي إلا إلى نتيجة واحدة هي «المعرفة» والذين يأملون شيئاً غير المعرفة وازدياد المعرفة إنما هم الواهِمون...

التجربة الكبرى الثانية التي لا تخلو منها حياة أو سيرة هي «الاخفاق» في الحصول على شهادة علمية مثلاً أو وظيفة أو ربح ما، أو تحقيق مكانة إلى آخر ما هنالك من أنواع الاخفاق. . وهذه التجربة قد تكون مفيدة لصاحبها إذا أحسن فهمها وتدارك أثرها في نفسه وحياته. .

علينا أن لا نيأس وأن نحسن الإفادة من تجاربنا وتجارب الآخرين في كل حقل وميدان ولن تكون هذه الإفادة إلا بالفهم وإعمال العقل ومتابعة السير نحو مثل أعلى أحكم رسمه وتأكدت فائدته. . .

الشخصية

هناك أشياء وهناك أشخاص!

وفي الأشخاص من نحب وفي الأشياء كذلك ما نحب، ولكن الخلط بين الأشياء والأشخاص موقف يشير إلى خلل في النظر، فهو لا يصح ولا يؤدي إلى حالة يرتاح معها الضمير وتحيا بها النفس.

علينا إذاً أن نميز على الدوام بين الأشياء والأشخاص توخياً منا لحياة النفس وراحة الضمير، وتداركاً لخلل يعتري الفكر أو النظر.

المجد شيء والمال شيء والشهرةُ شيء. ولكن الشخصية الإنسانية ليست شيئاً، رغم كل ما يربطها بهذه الأشياء من روابط قد تؤثر في بنائها، وتزيد أو تنقص في وهجها ولمعانها.

الشخصية في مستهل أمرها كما هي في ذروة أَلَقِها، نتاج مبادىء وتطلعات ونزعات ومواهب وجهود وأعمال

وتضحيات، وليست بحال من الأحوال مظهراً أو شعاراً أو إعلاناً. إنها معنى يتصل بالاقدام والمعاناة، والعطاء والجلد، ويحرك النفوس إلى العطاء والاقدام وتحمل المكاره في سبل المثل العليا التي تهفو إليها القلوب، وتتوق النفوس إلى خدمتها. فما هو السر في هذه الشخصية؟ وكيف تتكون؟

ـ أول ما ينبغي الالتفات إليه في تصور الشخصية قبل السعي في تفهم أسرارها ونشوئها وتكونها إنما هو اندماجها بالمجتمع واندماج المجتمع بها، مما يفيد أن الشخصية نتاج المجتمع فلا يمكن أن تتكون بمعزل عن الآخرين، أي عن العالم الذي يحيط بها أياً كانت الصفة التي تضاف إليها حين ننعت صاحبها أنّه شخصية سياسية مثلاً أو علمية أو ثقافية أو فنية أو اجتماعية. وذلك يعني بكل بساطة، أن الشخصية والمجتمع يؤلفان بنية واحدة، أو عبارة حضارية شاملة ويمثلانِ كلاهما معنى واحداً بحيث تعطي الشخصية صورة عن المجتمع، والمجتمع الإنساني يعبر عن نفسه بما يظهر فيه من شخصيات.

ذلك يردنا إلى جملة من المباحث والدراسات والآفاق الفكرية البعيدة التي لا يهتم بها الفرد إلا في النزر النادر، لأنها تتجاوز بطبيعتها حياة الكائن البشري كفرد، وتستعلي على الهموم اليومية لتشارف شؤون الغد وهمومه.

وهكذا.. يحملنا التفكير في الشخصية الإنسانية على التفكير في:

١ - تنظيم المجتمع

٢ - البحث في الإنسان السوي وغير السويّ.

٣ - الجانب الأخلاقي من حياة المحيط الذي نعيش فيه.

٤ - دور الذكاء والفكر والعمل.

٥ - علاقات الفرد بالمجتمع.

أما تنظيم المجتمع فإنه من شأن أفراد أو بتعبير آخر من عمل شخصيات تتصدى للتربية والتثقيف ورعاية المؤسسات الصحية والرياضية والخيرية ومقاومة الإجرام وتحقيق العدالة وما أشبه من مهمات..

والجانب الأساسي في هذه المهمة الخطيرة أي تنظيم الحياة الاجتماعية هو أنها لا تتم ولا يتاح لها أن تصل إلى شيء من أهدافها إلا بحد من نزعة غيرية فإذا لم تتوفر هذه النزعة على درجة ما من العلو، كان معنى افتقادها انزلاق المجتمع في منحدر يصفُهُ المؤرخون بكلمة انحلال أو انحطاط، فمن الضروري للفرد، لكل فرد، أن ينمي الغيرية في نفسه وأن يعمل على إنمائها في محيطه قدر المستطاع لأنه حين يفتقدها في المجتمع يضيع، ويضيع المجتمع معه، ويتحول بدونها إلى وضع غير إنساني.

ذلك لأن الغيرية تنقِذُ الفرد من أنانيته وتتخلص من نتائج الأنانية في مجتمع. وهذا هو ما قرّ الرأي لدى أكابر الباحثين في قضايا الحياتين: الشخصية والعامة.

يقول ل. م. دوفرين وهو من أوائل الذين درسوا هذا الموضوع في سفر خاص: «الجانب الاجتماعي هو القائم في أساس الشخصية، لا باعتباره أنّه ينشِئُها بل باعتباره هو الذي يظهرها».

وهنا ننتقل إلى ناحية قلما يعنى بها الجمهور ولكنها أخطر ما يعرض للمربين والمفكرين والأطباء والأدباء والعاملين في مختلف حقول الاجتماع البشري وأساتذته ألا وهي الإنسان السوي والفرنجة يقولون: «نورمال». وأول ما نلاحظ أن السويّ من الناس امرأة كان أو رجلاً يتسم بسمتين بارزتين: الأولى أنه «أخلاقي» ومعنى أخلاقيته أنّه يؤمن بواجبات لا بد له من القيام بها تجاه غيره، حفاظاً منه على كرامته في جانب وصوناً لكرامة وطنه في الجانب الآخر.

الشخصية (٢)

نعود إلى الشخصية الإنسانية وقد رأينا أنها تتميز بسمتين: الأخلاقية والاجتماعية وأن الجانب الاجتماعي فيها أساس، ولكنها تأخذ قيمتها من أخلاقية الشخص كفرد، وليست الأخلاقية في آخر ما انتهى إليه إجماع المفكرين من قدامى ومحدثين سوى إيمان الشخص بواجبات يقوم بها فعلاً ـ لا نظراً ولا قولاً ـ تجاه غيره، حفاظاً منه على كرامته، في جانب وصوناً لكرامة مجتمعه ووطنه في الجانب الآخر.

علينا أن ننظر الآن إلى تنامي الشخصية الإنسانية لأن مثل هذا التنامي هو الذي يعبر به المجتمع الراقي عن رقيه ويتيح للفعاليات الفكرية والعلمية والفنية والأدبية أن تمضي صعداً نحو مثلها العليا أو أهدافها التي لا يمكن أن تتضمن سوى خير المجتمع أو سعادة المجموع كما كان يعبر الأقدمون. .

والرقي الاجتماعي يتحقق على يد الذكاء. على يد الجهد

الذي يبذله الأذكياء في سبيله لأن الذكاء كما يصف الدكتور. بوديل، موضوعي خالصٌ في موضوعيته. وهو يشكل المستوى الإجتماعي الحقيقي كما لو كانت الغريزة الجاذبة تؤلف لحمته. وإلى تحليقه يعود الفضل في تقدم المجتمع ثم في المعرفة التي تمد كل فرد بأعاليم يسعى الجميع إلى حيازتها وقد تحولت إلى تراث مشترك وقيمة جماعية في الوقت نفسه».

لا غنى إذاً، وتلك هي حال الرقي الاجتماعي وشروطه، عن تعزيز الذكاء وتأمين المعرفة للمجموع ونشرها على أوسع مدى لتزدهر شخصية كل فرد وتتفتح في مختلف الحقول. وهذا يعني من طريق آخر، أن ينفسح المجال أمام كل نفس بشرية للإحاطة بشؤون الحياة والإطلاع على أسرارها الكامنة في معاني السعادة والحب والصداقة والألفة والمشاركة في تفهم القضايا العامة وخفايا الإدارة والتربية.

لقد أنهى كارل روجرز وهو من أكابر علماء النفس في هذا العصر كتابهُ «تنامي الشخص» بهذه العبارة: «ليس هناك أدنى انتفاع في إنكار الحرية القائمة على نحو أكيد في الوصف الموضوعي لتلك الحياة علينا إذاً أن نعيش هذه المفارقة».

لا مُشاحّة أن هذا الكلام يحتاج إلى شيء من الشرح

والتفصيل، فالحرية تعني القدرة على الاختيار وهي قدرة ذاتية محض، بمعنى أن كل امرىء قادر حين يفكر في ذاته ويستجمع قواه على اختيار السلوك الذي يراه نافعاً أو لائقاً أو صالحاً. وليس لأحدٍ أو لقوة خارج ذاته أن يمنعه من القيام بهذه الخطوة الأساسية حتى إذا وقع اختياره وسلك طريقاً معيناً تحتم أن يصل إلى نقطة معينة، إذا هو لم يتردد ولم يتوقف لأن لكل طريق نهاية محتومة.

ولنا أن نقول: زيادة في الإيضاح: الإنسان حر قبل أن يختار سلوكاً معيناً أو يتخذ موقفاً خاصاً حتى إذا اختار سلوكه واتخذ موقفه، تحتم عليه أن يتحمل تبعة اختياره وأصبح مسؤولاً عن موقفه. وهذا يؤكد أن الحرية لا تنفصل عن التبعة (المسؤولية) كما أن التبعة لا تترتب إلا مع الحرية. وتلك هي المفارقة التي لا ندحة لأحد عن معاناتها في الحياة.

هناك ـ ولا ريب ـ محاولات محكوم عليها بالاخفاق لأنها تنطلق من نيات غير سليمة وغير واضحة نحو أهداف غريبة بدورها عن كل سلامة أو وضوح.

وهناك بكل تأكيد عقبات وعراقيل تقف في الأعم الأغلب، دون الإنسان ومطامحه أياً كان هذا الإنسان وأية كانت مطامحه. وليس في ذلك ما يدعو إلى الدهشة والاستغراب.

ولكن الشخصية الإنسانية التي أحكم بناؤها ونفذت بذكائها إلى استخدام الحقائق والوقائع وقد أحسنت فهمها ـ تحوّلُ الإخفاق إلى نجاح، وتتسلل من دهاليز الهزيمة إلى رحاب الانتصار، وتفيد من العراقيل والعقبات في تحصين أهدافها والاحتياط لمسيرتها نحو تلك الأهداف.

إذا عمدنا الآن في لبنان إلى تطبيق هذه الحقائق في مجمل هذه الأحاديث كان أول ما يلفت انتباهنا تلك الفكرة ـ الحقيقة التي أشار إليها ليكونت ده نوي الفرنسي وهي أن «الحرية محنة وليس امتيازاً» وكانت محنة لبنان الحقيقية طيلة هذه السنوات العجاف أنّه تعلق بالحرية، وقد حسبها بعضهم امتيازاً.

لم يبق إلا أن نحول الاخفاق إلى نجاح والهزيمة إلى انتصار، والعراقيل والعقبات إلى حصون، من خلال بناء جديد، وشخصية جديدة، وفهم جديد.

القِسْم الثَاني

محَاوَرات مَع التَاريخ

الشخصية والحضارة

التاريخ : كانت المحاولة الجوهرية الكبرى التي قام بها الإنسان في مستهل تحضره، وبداية تفتحه على العالم، أن يعرف نفسه.

صوت : هل لي أن أعرف الشخصية التي تمثل الإنسان في قيامه بهذه المحاولة الأساسية الكبرى.

التاريخ : الشائع أن سقراط كان تعبيراً حياً عن تلك المحاولة والتوجّه نحو تعميمها، وإيقاظ كل امرىء وامرأة على المكاسب والميزات التي تحصل له من أدائها.

صوت : لقد علمتنا قبل اليوم أن شخصية كسقراط، بكل ما تمثّل وتعبر عنه، لا يمكن أن تنشأ دفعة واحدة. لا بد أن يكون وراء نشوئها عوامل، وأدوات تمهيد، ووسائل إظهار.

فتاة : سقراط رجل. ولكل رجل أمّ فهل يُعقل أن لا

يكون للمرأة يدٌ في ذلك البناء الإنساني الشامخ الذي ندعوه سقراط؟

التاريخ : الاعتراض الذي أبدتْهُ هذه الفتاة صحيح. كل شخصية إنسانية مزيج من صفات أنوثة وذكورة. ولا يجوز إغفال هذه الحقيقة بحال من الأحوال، ولا يصح أن نضرب عنها صفحاً في الحديث عن سيرة أي رجل وأية امرأة.

صوت : هنا لي سؤال: هل من الضروري أن تكون الأُمّ وحدها العنصر الأنثوي في تكوين الشخصية الإنسانية؟

التاريخ : الوراثة أيضاً حقيقة لا يجوز إغفالها بيدَ أنّ تكون الشخصية لا يقْتصِرُ على الوراثة. هناك عدة عوامل إلى جانب الوراثة. وأنا أعرف الكثير من الشخصيات التي لم توفق بأمهاتها، لسبب أو لآخر، ولكنها وجدت أنوثة ترعاها في حقبة أو فترة من فترات حياتها.

فتاة : لنعد إلى سقراط نفسه. يبدو أنّ أمه لم تكن ذات أثرٍ يذكر في بناء شخصيته. وليس في سيرة زوجته ما يشير إلى أنها أحسنت فهمه أو بذلت جهداً في رعايته.

التاريخ : .... (صمت تام).

صوت : ما هذا السكوت أيها التاريخ؟

التاريخ : الأسئلة التي لا أملك الإجابة عنها كثيرة. كل ما أستطيع البوح به أن لسقراط حسب الظاهر، مزاجاً لم يرق زوجته وان طبعه لم يتوافق مع طبعها وشأنها في ذلك شأن الذين حاكموه وأصدروا قرارهم بإعدامه. أقول «حسب الظاهر» وأصر على هذا القول.

صوت : ولكن..

التاريخ : لكن ماذا؟ نحن نعلم أن المرأة في الأعم الأغلب تتأثر بالمناخ الفكري السائد وان لكل امرأة طبعها ومزاجها. وليس ثمةَ ما يُلْزِمُها أن تتوافق مع زوجها في كل فكرة أو عاطفة أو تصرف. بل إن هذا الإلزام أو شيئاً منه، يؤدي في حالات كثيرة إلى كوارث.

صوت : أين عنصر الأنوثة إذن في تكوين سقراط إذا لم يكن في أمه ولا في زوجته؟

التاريخ : كثيراً ما ينسى الناسُ هذا الواقع هو أن سقراط نشأ أول ما نشأ في ظل بريكلس الذي شخّصَ

الـديمقـراطيـة أول مـا بـزغت أروع تشخيص. وبريكلس لا يفترق عن شخصية صديقتـه أسبازيـا في قليـل أو كثير حتى ليمكن القـول: إن حضـارة أثينـا بجملتها من ألفهـا إلى يائهـا كانت من صنـع أسبازيا وبريكلس معاً...

فتاة : هذا البيان يضعنـا أمام واقـع جديـد قل أن حـظـي بعنـاية شـاعر أو فيلسـوف وهو عنصـر الأنـوثـة في تكوين الشخصية الإنسانية، إنما يتمثل ويتحقق في صفـة واحـدة هي الصـداقـة بين كـائنين بشـريين يختلفـان جنسـاً. ولا فـرق أن تكـون الصـديقـة حينذاك أمّاً أو زوجة أو أختاً أو حبيبة.

صوت : هنا يجب التمييز بين أنواع الصداقـة، لأن صداقـة الأم غير صداقة الزوجة،وصداقة الزوجة غير صداقة الأخت،وصداقة الأخت غير صداقة الحبيبة.

التاريخ : كلاكما على صـواب. وتلك هي المرة الأولى التي أسمع بها طرحاً صحيحاً موفقاً لهذه القضية. شكراً لكما معاً..

فتاة : لا بد من أن أضيف توضيحاً آخر، هـو أن صداقـة رجلين غيـر صداقـة امرأتين وصـداقة امـرأة ورجل

تختلف باختلاف المرأة والرجل كل على حدة من حيث المزاج والذوق والاتجاه والطبع.

صوت : لنعد إلى موضوعنا الأساسي بعد أن اتضح لنا عنصر الأنوثة في بناء سقراط ولنسأل: ماذا جرى لمحاولته الكبرى بعد القضاء على حياته؟

التاريخ : بدا للإنسان في القرن العشرين أن كل «المفاهيم» التي قامت عليها الحضارات السابقة مع تنوعها وتغايرها معرضة للتطور والتبدل، فليس ثمة ما هو ثابت ونهائي في حياة العقل والقلب والنفس.

فتاة : أحِس أن هذا التقرير موغل في التجريد. فهل لك أن تقدم أمثلة محسوسة على هذا الذي تقوله؟

التاريخ : لنأخذ العلم مثلاً، أو فهم الإنسان للعلم لقد كان هذا الفهم يتغير بتغير الشخص والمكان والزمان. وكذلك هي حال الدين والأدب والفن والأخلاق وسائر ما يتصل بهذه الشؤون من قضايا وأوضاع ومؤسسات.

صوت : وماذا حدث لمحاولة سقراط أن يعرف المرء نفسه وما طرأ عليها من تغير وتطور؟

فتاة : ولنا أن نضيف المرأة إلى المرء أيضاً.

التاريخ : كان من الطبيعي أن تتطور تلك المحاولة، لأنها نتاج شخصية، وعبارة حضارة آخذةٍ في التنامي.

فتاة : ذلك يعني أن الحضارة والشخصية مترابطتان متلازمتان، لا فكاك لإحداهما عن الأخرى. أليس كذلك؟

التاريخ : نعم انه لكذلك.

صوت : ولكن الجمهور لا يعرف على وجه الإجمال شيئاً اسمه «الحضارة» ولا يفكر فيه، ولا يوليه من اهتمامه وعنايته ما يولي الشخصية.

فتاة : ذلك واضح! والسبب أن الشخصية من شأن العالم المنظور أو المحسوس بينما الحضارة معنى مجرد شامل لا يُرى ولا يتحدد إلا من خلال الفكر والتفكير.

التاريخ : ها نحن نعود إلى ما كان في بداية هذا الحوار وهو أن لنشوء الشخصية عوامل وأدوات تمهيد ووسائل إظهار، بل هو ما يدعونه في أيامكم هذه «الأصول الحضارية للشخصية» كان الناس يعرفون سقراط

ولكن أحداً لم يلتفت إلى الحضارة التي أنشأته يوم حوكم وحكم عليه.

ولنا أن نبحث علاقة الفرد بالمجتمع في حوار قادم.

الفرد والمجتمع

صوت : دار حوارُنا السابق حول الشخصية والحضارة، ورأينا أنهما تتلازمان وتترابطان، وعرفنا أن سقراط قام بأول محاولة في تعرّف الكائن البشري إلى نفسه، وأنه يمثل الحضارة الإغريقية في مستهل تفتحها وانتشارها.

علينا الآن أن ندرس حياة الفرد أو سيرتَه. وقد عرفنا ارتباطَ شخصيتِه بالحضارة من قبلِهِ ومن حولِه. فهل يمكنه أن يؤلّف كياناً مستقلاً؟

التاريخ : لقد أجبتَ عن سؤالِك هذا قبل طرحِه، وقد انكشفَ لك ارتباطُ الفردِ بالحضارة التي يَتَنامى في وَسَطها، والحضارة من صنعِ المجتمع.

فتاة : هل يعني ذلك أن الفرد حلقة في سلسلة، وجزء من كل؟

التاريخ : نعم.. انه يعني ذلك.

فتاة : ولكن.. ما القولُ في المجتمع نفسِه؟ هل يُمْكِنُه أنْ يؤلفَ بدورِه كياناً مستقلاً؟

التاريخ : المجتمعُ في هذا العصرِ شبيهٌ بالفردِ في إطارِ المجموعاتِ البشرية، لا يَمْلِكُ أنْ يَسْتَقِلَّ على نحوٍ كاملٍ مطلقٍ عن غيرِه من المجتمعات، فلا يمكنُ ولا يَصِحُّ إلاَّ أنْ يتأثرَ بغيرِه، ويؤثِرَ في غيرِه، وإلاَّ تعرَّضَ للجمودِ والضُمور والانحلال.

صوت : يفهم من ذلك أن الاستقلال (وهمٌ) أو (فكرةٌ) منقطعةٌ عن واقع الحياة الفردية والاجتماعية.

التاريخ : هذا فهمٌ خاطيءٌ أيضاً. كيانُ الفردِ منا، كلُّ فردٍ منا، كائناً من كان مشروطٌ أساساً بالشروطِ الآتية:
١ ـ الوِراثة. ٢ ـ البُنْيَة الجسدية ٣ ـ المِزاج.
٤ ـ الطَبْع. ٥ ـ الوَسَط أو البيئة. ٦ ـ التربية.

صوت : لا معنى إزاء هذه الشروط لكل ما قيل ويقال عن الحرية، والدعوة إلى التحرر.

التاريخ : هذه عواملُ تكوين، وشروطُ شخصية، وليست قادرةً رَغْمَ أهميتِها وعِظَمِ أثَرِها على «تَحْتِيمِ» الأعمالِ و«فَرْضِ» السلوك، بمعنى أنّ البشر ليسوا كبشر، رهائنَ قُوى لا فِكَاكَ لهم منها، وإنما

يظلُ في إمكانِهم، ومن شأنِهم وحقِّهم أنْ يُدْخِلوا على هذه القوى طابَعَهُم الخاص، ويفرِضوا عليها المِيْزَةَ التي تُمَيِّزُ كلَ فردٍ منهم، امرأةً كان أو رجلًا.

فتاة : أين تكمن حقيقة الكائن الإنساني، ما دام لوجوده شروط، ولتناميه عوامل؟

التاريخ : حقيقةُ الشخصيةِ الإنسانية تَكْمُنُ في طاقتِها على رفضِ ما يُرادُ العملُ بها، أي على طاقةِ الرفضِ للظروفِ والاستسلامِ للظروف، ومنعِها من التحكّم، وحينذاك تُؤكِّدُ إيمانَها بالحريّة، وتَسْعى في تبريرِ موقِفها بما تبذُلُ من جَهْد وما يحرِكُها من فكرٍ أو عاطفة.

فتاة : ولكن.. (هنيهة صمت).

التاريخ : ولكن ماذا؟

فتاة : ولكن رفض الظروف يعني رفض الواقع، أو مخالفة الشروط التي يشترطها الوجود.

التاريخ : يجبُ أنْ لا يضيعَ الذِّهْنُ بين الكلماتِ ومعانِيها، فإنّ فهمَ الواقعِ شيء، وَرَفْضه شيءٌ آخر، ورؤية الشروط غيرُ القَبُولِ بها، هذا في جانب والجانبُ

الآخـر، أنَّ ظروفَ الشخصِ ، أياً كانت وأياً كان الشخص، قابلةٌ على الدوامِ للتَغيُّر، فللفقيرِ مثلاً أنْ يَصيـرَ غنياً، ويمكنُ أنْ يصيـرَ الغنيُّ فقيـراً، وللإنسانِ يـدٌ في تغييرِ حـالِه وتغيُّـرهـا. وتلك هي الحريةُ التي يتميزُ بها الإنسان.

صوت : هل لي أن أطرح سؤالاً؟

التاريخ : سَلْ ما بدا لك.

صوت : الشـائع أن الحـرّ يقف وحـده في هـذا المعتـرك، معتـرك التغيّر والتغييـر ولا سيما في وجهـة التحرر والتحرير. فما هو مدى الصحة في هذا الشائع؟

التاريخ : هـذا غيرُ صحيح! الشخصيةُ الإنسـانية التي أُحْكِم بُنْيـانُها تَجِـدُ في غيرهـا من يُعِينُها، وَيُشـارِكُها في الجَهْـد، ويَعْمَـلُ على تحقيقِ مـا يـودُّ تحقيقَـه من خير، لأنَّ كلَ عملٍ خَيِّر، يَحْمِلُ في قرارتِهِ طابَـعَ التعـاون، لا تصدِّقْ أنّ أحـداً يَسْعى بنيّةٍ سليمـة، وراءَ هدفٍ سليم، يظلُّ وحيداً في سَعْيِهِ.

صوت : ألا يُمْكِنُ القـول: إنّ التغلّبَ على الظروفِ ضـربةُ حظ، أو نتيجةُ مُصادَفَة؟

التاريخ : أعـود فـأكـرر: يجبُ أنْ لا يَضِيْـعَ الـذهنُ بين

الكلماتِ ومعانِيها، فكرْ في الحظ تَجِدْ أنه تَجَمُّعُ ظروفٍ مؤاتية لفلان، وأنّ سوءَ الحظ تجمّعُ ظروفٍ غيرِ مؤاتية لفلانٍ آخر، وهذه هي حالُ المُصَادَفةِ أياً كانت.

فتاة : أرجو إيضاح ذلك بمثل محسوس.

التاريخ : خُذْ رجلاً مثلَ ابكتاتوس، فهذا كان عَبْداً يُشْتَرى ويُبَاع، ولكنه ارتقَى بفكرِه، بمجردِ فكرِه، إلى أعلى ذِرْوَاتِ الحياة، وأروع ضروبِ الطمأنينةِ النفسية. ألا تَسْتَنْتِجُ من ذلك أنّ القيمةَ الفعلية ليست للظروف وإنما هي للموقفِ الذي يَتَّخِذهُ المرءُ من نفسِه وحياته.

فتاة : والمرأة؟ :

التاريخ : والمرأةُ أيضاً. لا فرقَ بين المرأةِ والرجل في هذا المجالِ، أبداً.

صوت : لا يزال ثمة جانب خفي في هذا الموقف، أود أن تنزع الحجاب عنه.

التاريخ : هناك مفكرٌ هنديّ يقول: «يستطيعُ الإنسانُ أنْ يتفلَّتَ من حدودِ الأنا الضيقة بالألفة، بالإرادةِ الطيبة، برعايةِ غيرِه، والإحسانِ للآخرين، وأخيراً

بالحبِ الشامل الذي يسوقُ الكائن البشري إلى الشعورِ بالأُنس مع أشكالِ الحياةِ المختلفة، وتذوقِ البهجة التي تَشِيعُ بحضورِ الأشخاص الذين نأْلَفهم، وإنْ تنوعت طِباعُهم وَتَغايَرت أمزجتُهم».

صوت : ليس في هذه «الوصفة» شيءٌ جديدٌ، انها هي التي قدّمَها ولا يزال يقدمها أطباء النفوس لمختلف الحالات المرضية: الفردية والاجتماعية، على السواء.

التاريخ : أنت لم تَطْلُب جديداً، وإنما طلبتَ نَزْعَ الحجاب عن موقفٍ بدا لك خفياً..

فتاة : يبدو أن زميلي أخفق في بيان ما أراد بيانه. يمكن إيراد السؤال بهذه الصيغة، كيف للموقف الذي يتخذه الإنسان ـ امرأة كان أو رجلاً ـ أن يؤدي هذه المعجزة وهي التغلب على الظروف؟

التاريخ : حين يكونُ الحبُّ الشامل هو الموقفَ المنشود، فإنه لا يَقْتضي أكثرَ من التَّنَبُّهِ لحقيقةٍ واحدة والمضيِّ في العملِ بها: أن لا تُسِيْءَ لأحدٍ بالفكر، ثم أنْ تُحْسِنَ بالفعل ما أَمْكَنك أنْ

تُحْسِين، حتى إذا استقـرَّ ذلـك في سـريـرتِـك، وتحوَّلَ إلى عادةٍ ثابتة في طَبْعِك، تسلّلَ إلى سرائرِ الناس، وانعكَسَ النورُ الذي يَنْتَشِرُ من حولِك على الآفاقِ القريبةِ منك والبعيدة.

صوت : لكن هناك في كل مجتمع، مُناخٌ روحي - فكري، قـد لا يُشَجـع على هـذا المـوقـف، وربمـا يقضي عليه.

التاريخ : هذا موضوعٌ آخر، ندرسُه في الحوارِ المقبل.

المناخ الروحي ـ الفكري

صوت : كنا تركنا لهذا اللقاء، حديث المناخ الروحي الفكري، الذي يسود المجتمع في بعض الحقب والفترات.

الفتاة : أرجو أن تعيد آخر سؤال طرحته.

صوت : كان سؤالي يدور حول المناخ الفكري ـ الروحي، وأثره في حياة الفرد وسيرته فإذا كان للشخصية الإنسانية أن تتغلب على ظروفها، وأن تفيد من طاقتها على رفض الاستسلام فهل يمكنها أن تتخلّص من تأثير هذا المناخ؟

التاريخ : يجبُ أن نتعرّفَ إلى هذا المُناخِ الروحي ـ الفكري أولاً، ونحاولَ أنْ نفهمَه لنرى من بعْد كيف يمكنُ التخلصُ منه، حين يكونُ سيئاً، وكيف يمكنُ الابقاءُ عليه حين يكونُ مفيداً، هل لك يا آنسة أنْ تَكْشِفي المعنى المختبىء في

كلماتِ «المُناخ الروحي ـ الفكري».

الفتاة : يلوح لي بشيء من الوضوح أن الأمر لا يعدو أن يكون تشبيهاً يراد منه تقريب معنى يبدو بعيداً إلى الذهن.

التاريخ : أرى أنكِ على صواب، تابعي الشرح.

الفتاة : الناس يعرفون فصول السنة الأربعة: الشتاء، الرّبيع، الصيف، الخريف، ويعرفون أن كلّ واحد من هذه الفصول يتميّزُ حَسَبَ الأقاليم والمواقع الجغرافيّة بِمُناخٍ خاص يتمثلُ أكثرَ ما يتمثلُ في الحرارةِ والبرودةِ والرطوبة والجفاف والصَّحْوِ والمطر وغيرِها من الظواهر.

ولكنَّ ثمةَ مُناخاً آخر، قَلَّ أنْ يُوْلِيَه الناسُ من الاهتمامِ والرعايةِ ما يستحق، وإنْ كان يُؤثِّرُ فيهم وَيَخْضَعون لإيحاءاتِه وهم لا يشعرون، ونعني به المُناخَ الذي تَخْضَعُ له الروح ويسيطرُ على الفكر، وهو يتميّزُ بسيادةِ أفكارٍ معيّنة، وانتشارِ نَزَعاتٍ خاصّة، والتوجّهِ نحو أهدافٍ متشابهة، خلالَ حِقبةٍ من الزمن، ثم يتغيرُ بعد مضِيّ تلك الحِقبة على نحو ما ينتشرُ الضبابُ في الربيع وينقشعُ في الصيف.

التاريخ : هذا صحيح .

صوت : أنت تعرف من شأنه أكثر مما يعرف المعاصرون. فهل لك أن تزيد في معلوماتنا عنه.

التاريخ : إذا أنتَ عُدْتَ إلى القرونِ الوسطى في الشرق، وفي أوروبا، تجد أنَّ المُناخَ الروحي - الفكري الذي سادَ تلك المناطق على مدى عَشَرَةِ قرون أو أكثر يَتَّسِمُ أكثرَ ما يَتَّسِم، بأنه مُناخٌ دينيٌّ تارةً، صوفيٌّ تارة، روحانيٌّ بشكلٍ عام، حتى إذا انتقلتَ إلى الأزمنةِ الحديثة، انقلبَ مُناخُ الروحِ والفكر وَتَحَوَّلَ إلى العلم، وانصرَفَ الناسُ إجمالاً، إلى الدراساتِ والمَبَاحِث التي يؤملُ أنْ تنتهيَ إلى اكتشافٍ جديد أو اختراع، إلى إيجادِ آلةٍ توفرُ الوقتَ والراحة، وتَخْتَزِلُ المتاعب، أو إلى العثورِ على دواءٍ لداء.

الفتاة : وهناك مناخات روحية - فكرية تنأى عن الدين والعلم، وتهيمن فيها على الجمهور نزعة ضد نزعة، وفكرة ضد فكرة، أو عاطفة مقابل عاطفة.

التاريخ : صحيح، المُناخات هذه التي أشارت إليها الآنسة هي التي يَسُودُها الشقاق وتَكْثُرُ فيها الهمومُ،

والمُنازَعات. والمساوىء الخلقية ويَنْبُتُ منها التشاؤمُ، والقلقُ والخوف.

صوت : وما هي النزعة الفكرية الصارخة التي تسيطر عادة وتحدث مثل هذه المناخات؟

التاريخ : لقد سيطرتِ النزعةُ العسكرية على إسبارطة مثلاً في الأعصرِ القديمة ونشأَتْ معها، وعلى يدِها الهمومُ والمنازعات، مما أدَّى في النهايةِ إلى انحسار الديمقراطية، والانصرافِ عن العلم، واندحارِ معاني الألفة والخير، والمحبّة، وانتشَرَ الميلُ إلى الاستعلاء، وانهارَتِ القيمُ الإنسانية في طولِ المجتمعِ الإغريقي وعرضِه، حتى اضطُرَّ سقراط إلى تناولِ السُّمّ، دون أنْ يَجِدَ من يأخذُ بناصرهِ، أو يحولُ دونَ وقوعِ هذه الكارثة.

صوت : ماذا يصحّ أن نستنتج من ذلك؟

التاريخ : «يَصِحُّ» غيرُ «يمكن» وأنت تسأل عما يِصِحّ.

صوت : نعم. أسأل عما يصح استنتاجه.

التاريخ : النتيجةُ الصحيحة دوماً واحدة، لا معنى للعنفِ في مُعْتَرَكِ الأفكار، ولا جدوى من الحِدّة في التعبيرِ عن العواطف حين تكونُ العواطفُ خَيِّرة، سليمة.

الفتاة : تلك هي النتيجة، أي النهاية، ونحن نريد تفادي هذه النهاية، وأعنى بها انهيار القيم الإنسانية في المجتمع. ما العمل حين تكون التجربة الاجتماعية سائرة في مجراها نحو نهايتها المشؤومة والأطراف المتصارعة لا تدرك شيئاً منها، ولا تريد أن تعرف شيئاً عنها.

التاريخ : ماذا تحاولين في هذا السؤال؟

الفتاة : أحاول أن لا يكون للصراع ضحايا، ما دامت النتيجة معروفة.

التاريخ : قلنا «لا معنى للعنفِ في معتركِ الحياة» وقلنا: «لا جَدْوى من الحدّةِ في التعبيرِ عن عاطفةٍ خيّرة» هل أنتِ مقتنعة بذلك يا آنسة؟

الفتاة : نعم. أنا مقتنعة بصحة ذلك.

التاريخ : أودُّ أنْ أعرِفَ الأساس الذي يقومُ عليه اقتناعك هذا.

الفتاة : العنف شيء أو جملة أشياء لا تقوم في طبيعة الفكر كفكر، وإنما هو، أي العنف، قبضة، وسلاح، ونار. والحدّة في العاطفة الخيّرة أيضاً، قبضة وسلاح ونار. فلنترك الفكر يصارع الفكر،

ولندع العاطفة تعبّر عن نفسها بلا حدّة، فنتخلص من القبضة والسلاح والنار.

التاريخ : هذا هو موقفُك أنتِ كفتاةٍ تفكر، وتشعر، وتقتنع، ولكنه ليس موقفَ الاسبارطيين يوم هاجموا أثينا، ولا موقفَ النازيين يوم هاجموا بولاندا.

صوت : كان السؤال: ما العمل حين تجري الأحداث في مجرى خطر، ويتحوّل الصراع إلى اليد، وتستخدم الفأس والسلاح والنار؟

التاريخ : هناك عملٌ واحد، تتنوعُ أشكالُه وتتعدّد، ويظلُّ إيّاه، أنْ يتحولَ المُناخُ الروحي ـ الفكري إلى التفكيرِ في النتائج، والتدبّر للعواقب، والبحث عن السلامة. والسلامة لا تكونُ إلا بمنعِ الظلم، ودفعِ الضَيْم، وإنالةِ كلٍّ ذي حقٍّ حقَّه في الحياةِ وكرامةِ الحياة.

الفتاة : حتى في إبان المعارك، واحتدام المنازعات.

التاريخ : نعم، حتى أثناءَ المعارك واحتدامِ الصراع.

صوت : وكيف ذلك؟

التاريخ : ذلك لأنه يستحيلُ على الظلم أنْ ينتصر وإذا بدا

أنه انتصرَ في يومٍ ، أو شهرٍ أو عام، كان هذا الذي «يبدو» مُقدِّمة لاندحارِه الحقيقي.

الفتاة : وما الذي يخوّلنا مثل هذا التأكيد؟

التاريخ : تقلّبُ المُناخ، وأنتِ التي تحدثتِ عن هذا التقلّب.

الفتاة : ذلك يفيد أن مناخ العدالة معرّض ايضاً للتغيّر.

التاريخ : ليس للعدالةِ مُناخٌ روحي ـ فكري قابلٌ للتغيّر.

صوت : لنعد إلى سقراط الذي أنصفه الزمن.. ولكن في حوار مقبل.

* * *

وحدة المعرفة البشرية

صوت : كان موضوع حوارنا الأخير قضية المناخ الروحي - الفكري الذي يسود المجتمع في حقبة زمنية معيّنة، ونحن نعلم أن المناخات تتداخل، ولا يتاح لنا حصرها في بلد دون آخر، أو ضمن حدود معيّنة، حتى في الحالات الجغرافيّة. فكيف تكون حالنا مع مناخات الروح والفكر؟

التاريخ : هناك اتجاهٌ إلى إلغاءِ الحواجز التي أُقِيْمَت بين العديدِ من فروعِ المعرفة، وهذه الفروع تَنَامَتْ مع تنامي البشرّية، وتواصلِ الشعوب، وتعارِفها وانفتاحها على حضاراتِ بعضِها البعض.

الفتاة : أرجو أن تقدّم أمثلة محسوسة توضح هذا الاتجاه الذي تحدّثت عنه.

التاريخ : أعجبني منك هذا الالتفات: لقد صَدَرَ عام ١٩٤٠ كتابٌ عنوانهُ «ثورةٌ في الشعرِ الأوروبي» يُوضِحُ

العلاقةَ بين التطوراتِ الكبرى التي طرأتْ على الذوقِ الفني والأدبي في دولِ أوروبا المهمة: فرنسا وانكلترا وألمانيا وإيطاليا منذ القرن السابع عشر، وما واكبَ تلك التطورات في ميادينِ العِلْم والسياسةِ والاقتصاد.

صوت : لي تعليق بسيط، يتلخص في أن الشعر منذ وجد إلى اليوم، كان تعبيراً عن حضارة اللغة التي يكتب بها، أو حضارة متكلميها، على وجه أدق.

الفتاة : ماذا تريد بهذا التعليق؟

صوت : أريد البيان أن الاتجاه إلى إلغاء الحواجز بين فروع المعرفة لم يكن جديداً، والذين يعرفون الشعر العربي مثلاً، يقررون أن عهد ما قبل الإسلام كان يتميز بحضارة خاصة، استناداً إلى النصوص الشعرية التي ثبتت نسبتها إلى ذلك الزمن.

التاريخ : أنا لم أقل: إنّ ذلك الاتجاهَ جديد، وإنما بيّنتُ أنه ازدادَ وُضوحاً مع تنامي فروعِ المعرفة وتواصلِ الشعوب.

الفتاة : هل لنا أن نعرف حقلاً آخر غير الشعر تعبر بِهِ الحضارة عن نفسها وتتلاقى عنده فروع المعرفة؟

التاريخ : الشعرُ فن شأنهُ شأنُ التصوير أو الغنـاء أو الرقص، ولكنّ اللغةَ هي أداتهُ ومظهرهُ.

الفتاة : ولكن ما هـي أداة اللغة نفسها؟

التاريخ : اللسانُ الـبشري أداةُ اللغـة، ولا فَرْقَ في مفهومِ اللغةِ واللسان لدى معظمِ الحضاراتِ الكبرى.

صوت : واللغـة أو اللسان أداة الفلسفـة كـذلـك، وهـو أداة العلم.

الفتاة : أي حاجزٍ ظل قائماً إذاً بين الشعرِ والعلمِ والفلسفة إذا كانت أداةُ كلٍّ من هذه الثلاثة واحدة؟

التاريخ : ذلك هو السؤال الذي أردتِ الوصولَ إليه في بدايةِ هذا الحوار، وقد أجبتُ عنه.
ليس هنـاك أي حـاجـزٍ بين أنـواعِ المعـرفـةِ أو فـروعِها، كمـا أنه لم يكن هنـاك على الأرض أي حدّ، ولا في الأجواءِ كلها أي فاصلٍ بين جوٍّ وجوّ. المعرفةُ البشرية شيءٌ كـالأرضِ أو الهواء، لا تُقِـرُّ بحدودٍ أو فواصلَ أو حواجز.

الفتاة : أريد أن أسأل وأن أفهم.

التاريخ : ماذا؟

الفتاة : كيف نشأت الحدود والفواصل والحواجز، إذا لم يكن في الطبيعة ما يبرر نشوءها؟

التاريخ : هناك فيما يبدو طبيعتَان: الأولى هذه التي تتمثَّلُ في الماءِ والهواءِ والترابِ ونعرِفُها في الشمسِ والليل والجبال والوديان، في الصَّحَارَى والغاباتِ والواحات، في المياه والأشجارِ والغِيطان. والثانية، طبيعةُ البشر وما تَعِجُ به من غرائز وعواطف، ويَطْفُو على سطحِها من أفكارٍ وآراءٍ وأذواق، ويَنْحَدِرُ إليها من أَخْيلة وتطلعاتٍ وأشواقٍ ورغبات.

صوت : هل لي أن أجازف بذكر ما خطر لي بعد أن سمعت هذا الكلام؟

التاريخ : لكَ أنْ تقولَ ما تشاء، ودَعْك من شعورِك أنك تجازف.

صوت : يَلُوحُ لي أنّ القضيةَ ليست في الطبيعة، وإنما هي قضيةُ الحياة مع الطبيعة.

الفتاة : لا يزال كلامك غامضاً.

صوت : عفواً. أريد أن أقول: إن هؤلاء الذين يعيشون على أرض لا ماء فيها، أو يعانون من شحّ في

الماء، غير الذين يعيشون مع الأنهار والجداول والأمطار، والذين يحيون في دفء وصحو وصفاء، غير الذين يحيون مع الضباب والغيوم والعواصف.

التاريخ : والنتيجة؟

صوت : النتيجة أنه لا بدّ من خلاف يقع بين ذوي أرض خصبة تحفل بالمياه، وأناس يقيمون في قفار جرداء لا شجر فيها ولا ماء. وأنت أدرى من غيرك بهذه الأحوال والأحداث.

التاريخ : أنت تنقُلُنا إلى عالمٍ آخر، إلى طبيعةِ البشر.

الفتاة : أظن أنه على صواب في هذه النقلة.

التاريخ : ولكنّ مُناخَ الفكر، وحتى مُناخَ الروح يتغيّر، حين نَنْتَقِلُ من عالمٍ إلى عالم.

صوت : أي خطر تراه في تغيّر المناخ الفكري أو الروحي؟

التاريخ : الخطر ليس في تغيّرِ المُناخ، وإنما هو في جمودِ الطبع وركودِ الفكر.

الفتاة : أما قلت: إن المناخات كلها متصلة، منفتح بعضها على بعض؟

التاريخ : لا أزالُ عند قولي. ولا أزالُ أؤمنُ بما قلت.

صوت : ولكنك توجّست خيفة، وخالجك الأسى فيما أحسب، حين أشرت إلى اختلاف البشر باختلاف أرضهم ومعايشهم.

التاريخ : هذا ما لا يجوزُ أنْ يكون.

صوت : ولكنه واقع، وأنت تعرف أنه واقع.

التاريخ : وأعرِفُ أنّ للإنسانِ أنْ يُغَيِّرَه، وعليه أنْ يُغيِّره.

الفتاة : ماذا ترى أن يكون؟

التاريخ : أرى أنْ يَحِلَّ التعاونُ محلَ التنابذ، وأنْ يكتسِحَ الحبُّ عالَمَ البُغْضِ ويَقْضِيَ الإنصافُ على الإجحاف، وأنْ يعملَ الجميعُ على الوِفاق ومقاومةِ الشقاق، ولا سبيلَ إلى الحياةِ بعد اليوم إلا بنقلِ هذا الذي أراه من حَيِّزِ النظر إلى العمل.

الفتاة : وكيف يتم ذلك؟

التاريخ : هذا ما نُوْضِحُه في حوارٍ مقبل.

سقراط

صوت : انتهى بنا المطاف في آخر حوار إلى التأكد من هذه الضـرورة: أن يحـلّ التعـاون محـلّ التنـابـذ، وأن يكتسح الحبّ عـالم البغض، ويقضي الإنصـاف على الاجحـاف، وأن يعمل الجميـع على الوفـاق ومقاومة الشقاق.

الفتاة : (تخـاطب التـاريـخ) أتمنى عليـك أن تستعـرض الأسبـابَ والحقـائق التي أَفْضَتْ بنـا إلى التـأكـدِ والإقرارِ بأن ذلكَ ضرورة.

التاريخ : الحقـائق التي تحتم العمـل على تحقيق التعـاون والمحبة والإنصاف والوفاق أربع، وهي:

١ ـ ترابط الشخصية الإنسانية والحضارة.
٢ ـ العلاقة بين الفرد والمجتمع.
٣ ـ المناخ الروحي الفكري.
٤ ـ وحدة المعرفة البشرية.

صوت : لنعد إلى حيث بدأنا إلى سقراط، فهناك أكثر من نقطة غامضة في مجمل ما نعرف عنه.

التاريخ : هل لي أن أعرف ما يراه الناس غامضاً؟

الفتاة : الناسُ يتساءلون: كيفَ حُوكم ذلكَ الرجل دونَ أن تتدخلَ زوجتُه أو تُسال، أو يلتفتَ أحدٌ إلى وجودِها.. ثم كيفَ شربَ السُّمَّ ولم تولِهِ تلكَ المرأةُ أدنى اهتمام، أو تبذُلَ أدنى جُهدٍ للإبقاءِ على حياتِه؟

التاريخ : عرضنا لهذه الحالة في حوارٍ سابق، وساقنا استعراضها إلى الحديث عن المناخ الروحي ـ الفكري، وتأثر النساء، على العموم، بذلك المناخ أكثر من الرجال.

صوت : ولكن سقراط عاش بعد العشرين، نحواً من خمسين سنة وهو في أمان. لا بدّ أن يكون المناخ الفكري قد تغيّر ضدّه.

التاريخ : كان أول أمره مثالاً، ومع الزمن تحوّل من صنع التماثيل إلى بناء الإنسان، إلى صنع الإنسان إذا شئت، وفق أفكار جديدة أو مبادىء جديدة، وهذا التحوّل ساق إليه الأعداء.

الفتاة : وهلْ للإنسانِ أن يَبنيَ أو يَصنعَ إنساناً غَيره؟

التاريخ : تلك محاولة كغيرها من المحاولات وهي التي تعرف باسم «التربية».

صوت : يمكن القول إذاً: أن سقراط أخفق فيما حاول.

التاريخ : هناك موقفان يحسبهما الناس شيئاً واحداً، وهما في الحقيقة مختلفان الأول: اجتلاب المنفعة، والثاني: دفع المضرة. الأول يمكن أن يتنافى مع السلام الاجتماعي، والثاني ينسجم في الأعم والأغلب مع ذلك السلام لأن الحرب نفسها ضرر. ومنفعتها - إذا تصور القائمون بها أن لها نفعاً - تصيب أفراداً على حساب المجموع. ودفع الحرب أو العمل على تلافي وقوعها، خدمة للسلام.

الفتاة وما علاقةُ هذه التقريرات باخفاقِ سقراط ونجاحهِ؟

التاريخ : حاول سقراط اجتلاب ما رآه نفعاً للبشر عامة، ورأى فيه البعض ضرراً يلحق بهم.

صوت : ألا يمكن القول: إنه حاول دفع الضرر الذي يصيب الناس في الجهل، والنأي عن المنطق،

واللامبالاة بالشبيبة ومستقبلها؟

التاريخ : تبديل البيان لا يبدّل الواقع، فلو صارح سقراط قومه بأنهم جهلاء، وأنهم يخالفون المنطق فيما يقولون ويفعلون، وانه يرشد الشبيبة الضالّة إلى ما فيه صلاح مستقبلها، لكان ذلك أدعى إلى إثبات التهم عليه، أو كان اعترافاً منه بصواب أعدائه، وخطأ سلوكه.

الفتاة : ها نحنُ نوشِكُ أن نضيعَ بينَ البيانِ والواقع، ما هيَ المآخذُ الحقيقيةُ التي أخذَها أعداءُ سقراط على سقراط؟ وكيف تمكنَ هؤلاءِ من دحْرِهِ وهُوَ الذي تفوقَ عليهم بعقلِه ومعرفتِه؟

التاريخ : الحقيقة يا آنسة هي أن سقراط هو الذي تمكن من دحر أعدائه لمجرد رفضه الحياة على طريقتهم. سقراط ضحى بحياته مقابل الاحتفاظ بفكره. وتلك أول مرة يضع فيها إنسان فكره فوق حياته اتكاء منه على هذه الحقيقة واستناداً إليها، وهي أن الفكر يبقى وحياة المفكر تزول أو. لا بد من أن تزول..

الفتاة : ذلكَ يفيد أنه كان في استطاعةِ سقراط أن يَهرُب، ولكنه أبى إلا أن يُطيعَ قوانينَ أثينا.

التاريخ : كانت طاعة سقراط هزيمة للذين حكموا بإعدامه.

صوت : هل كان سقراط على علم بالمستقبل، وهل هذا أملى عليه سلوكه.

التاريخ : كثيراً ما يغفل الناس عن أشياء يحسبونها غير مهمة في حياة الفردومن ثمة في كيان المجتمع. ومن هذه الأشياء أغلب الأحيان، الفكرة الحقيقية التي يحملها المرء عن نفسه، فإن لتلك الفكرة التأثير الأكبر في توجيه الإنسان وتكييف سلوكه وصرفه نحو الأعمال التي يوحي بها فهمه لحياته وقيمتها وغايتها.

صوت : لم التقط بوضوح ما تريد أن تصل إليه.

التاريخ : لم يكن سقراط على علم بما يحمل المستقبل، ولا ادعى يوماً من الأيام انه على علم بشيء، وإنما شعر أن موقف الحاكمين منه يسيء إليهم ويفيد المجتمع، إذا هو أحسن استغلاله. وكان شعوره نتيجة الفكرة التي يحملها عن نفسه.

الفتاة : وما هي الفكرةُ التي كان يحملُها سقراط عن نفسِه؟

التاريخ : سقراط نفسه لم يكتب شيئاً. هناك وقائع وأساطير. والأسطورة نفسها تُشير حين تتثبت إلى واقع فكري قائم في حياة الجمهور، وكان أهل أثينا يلجأون إلى أفعى ضخمة يعتقدون أنها تعرف الغيب وتنبىء به، يسمونها (بيثيا) في معبد دلفس. وقد ذهب أحد أصدقاء سقراط إلى ذلك المعبد وسأل بيثيا: هل تعرف رجلًا أكثر حكمة من سقراط؟ فكان جوابها: «سقراط أحكم العارفين». وكان تفسير سقراط لهذه النبوءة كما يلي:

«الناس يحسبون أنهم يعرفون الكثير، بينما هم لا يعرفون شيئاً. ولكني أنا لا أعتقد أني أعرف حتى الأشياء التي لا أعرفها».

وهكذا.. تكونت لديه فكرة عن نفسه، واتضحت أمامه الغاية من حياته، وخلاصة هذه الغاية أن يقنع الآخرين بجهلهم. واقتناعهم ذلك يسوقهم إلى البحث عن المعرفة الصحيحة التي تمكنهم من التوصل إلى الخير والسعادة الحقيقيين.

صوت : يفهم من ذلك كله أن سقراط كان ذا نية حسنة وسليمة...

التاريخ : تلك هي دعواه..

الفتاة : والظاهر أنه وُفِّقَ إلى إثباتِ صحتها بسلوكِه . .

التاريخ : سقراط ضحى بحياته دفاعاً عما رآه حقّاً. وكل من يضحي عن وعي في سبيل الحق، ينال حقه ولو بعد حين . .

ابيكتاتوس

صوت : انتهينا في حوارنا السابق إلى هذه النقطة، وهي أن سقراط قدم بتضحيته الدليل على حسن نيته. فهل نعثر على ندّ له، في صفاء النفس وهدوئها؟

التاريخ : قلنا: إنه وَضَعَ فِكْرَه فوقَ حياتِه، ذاهباً في أقصى ضميره إلى أنّ الفكرَ يَبْقى، وحياةَ المفكّر تزول، أو لا بدّ من أنْ تزول، أما نِدُّه، أو من يقتربُ منه في السلوك، فهو ابيكتاتوس، وإن لم يَبْلُغْ مكانتَه في عمقِ الأثر، وَبُعْدِ التأثير.

الفتاة : الفكر شيء، والطمأنينة النفسية شيء آخر، على ما بينهما من قرابة. وأحسب أن موضوعنا الآن هو هذه الطمأنينة وسبل الوصول إليها.

صوت : نعم، لقد أوضحت الآنسة المراد من سؤالي.

التاريخ : هناك ما يسمونه طمأنينةَ النفس، وهذه تستنِدُ إلى موقفٍ يَتَّخِذُه الإنسانُ نفسُه أولاً، ولها علاقة وثيقة

بالفكرِ والمعرفة اللذين اهتَّم بهما سقراط .

صوت : وكيف تتحقق هذه الطمـأنينة، وكـل ما في العـالم يناهضها ويتآمر عليهـا: الجهل، صعـوبة الحيـاة، المـوت، الحب، البغض، إلى آخر مـا هنـاك من بواعث القلق ودواعي الاضطراب .

التاريخ : تلك هي المسألةُ الكبرى التي شَغَلَتِ الشرقيين من أهلِ الهندِ والصين واليابان ولم يُولِها أهلُ الغرب ما تستحِق من رعاية واهتمام .

الفتاة : وهل عثر الشرقيون على حل لها؟

التاريخ : هناك سبعُ ميزاتٍ نفسية يمكنُ تحصيلُهـا من وِجْهَةِ النظر الشرقية، ولا غنى عنها بحـالٍ من الأحوال، لِمَنْ يسعى للحصول على الطُمَأْنينة .

صوت : وما هي هذه الميزات؟

التاريخ : عليّ قبل أنْ أذْكُرَها أنْ أُشِيرَ إلى تَرَابُطِها وتداخِلهـا ثم إلى صعوبتِها وَعُسْرِ العملِ بها .

الفتاة : ليكن . . ما هي؟

التاريخ : تُصِرّينَ على معرفتِها؟

الفتاة : نعم أصرّ!

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

صوت : وأنا أيضاً أصرّ.

التاريخ : ١ ـ الحقيقةُ أولاً وقبلَ كل شيء، وفوقَ كل شيء.
٢ ـ المثابرة والأمل.
٣ ـ الفكرُ والسهَرُ على سلامتِه،
٤ ـ التخلي عما يَسُرّ أو يؤلم.
٥ ـ الاستغراقُ والهدوءُ والتأمل بُغْيَةَ النَفَاذِ إلى عُمْقِ الواقع.
٦ ـ تهذيبُ الانفعالات وتطهيرُ الطبع.
٧ ـ إهمالُ الأنا أو هجرُ الأنا .

صوت : تلك هي على العموم، فلسفة الرّواقيين، أو هي خلاصة ما أراده ابيكتاتوس.

التاريخ : ابيكتاتوس وسقراط يَلْتَقِيان عند ثلاثِ نقاط الأولى، أنَّ أحداً منهما لم يَكْتُب شيئاً بيدِه، وكل ما انتهى إلينا عن فكرهما وسيرتهما، بَلَغنا عن طريقِ السمَاع. الثانية: أنهما عاشا معذّبَيْن، وعذابُ كل منهما ناشيءُ عن أوضاع المجتمع، وأحوال الساسة والسياسة. الثالثة: أنّ كلًّا منهما يَسْتَثِيرُ الاعجابَ الشديد بما أَظْهَرَ من صبرٍ، وهدوءٍ، وصفاءٍ في الذاتِ والوِجدان وهو يُواجِهُ المصاعبَ، ويجابِهُ المصائب.

الفتاة : الناس يعرفون سقراط ولكنهم يجهلون على وجه الإجمال، زميله في الفكر والعذاب.

التاريخ : الواقع أنّ روما لم ترتفِعْ إلى السُدَّةِ التي ارتَقَتْها أثينا في عالمِ الفكر، وَظَلَّ ابيكتاتوس - وهو من أصلٍ إغريقي - دونَ سقراط في اللمَعَانِ وبُعْدِ الصيت.

صوت : إلى أي معنى يردّنا هذا الواقع؟

التاريخ : هذا أخطرُ سؤالٍ سمعتُه، فإنَّ لكلِ واقعٍ عدَّة مَعَانٍ تَتَكَشَّفُ مع الزمن وقد تَتَنَاقَضُ المعاني المُكْتَشَفة بين حينٍ وآخر.

صوت : ما هو رأيك في أحدث معنى لتفوق أثينا الفلسفي على روما.

التاريخ : قد يكونُ المعنى الذي تبحثُ عنه الآن يَتَحَيَّزُ في هذا الاعتبار، وهو أنّ النصرَ أنواع، منه ما هو مُزيف وآني، ومنه ما هو حقيقي ودائم.

الفتاة : أتريد القول: أن تغلّب روما العسكري من بعد على أثينا كان مزيفاً وآنيّاً.

التاريخ : أنا لا أقول.. وإنما أبحثُ عن معاني الوقائع

وأقارنُ أَحْدَاثَ زمنٍ بأحداثِ زمنٍ آخـر، في مكانٍ واحد، سَعْياً وراءَ تلك المعاني. عليكِ يا آنسة أنْ تبحثي معي. تَعَـرَّفِي أولاً إلى حقيقـةِ مـا جَرَى، مبتدئةً بالخطوطِ الكبرى الواضِحة وانتقلي من بَعْدُ إلى التفصيلات، دون أنْ تَضِيْعي عن الهدف، فإنَّ أكثرَ الباحثين يَتِيهُون عند ولوجِ التفاصيل.

صوت : لنبـدأْ بالـزمان والمكـان في المقـارنـة بين سقـراط وابيكتاتوس.

التاريخ : نحن نتحدث عن الأفكار ونتائجِ الأفكار.

صوت : ما المراد بهذه الإشارة؟

التاريخ : أريد تذكيرَك أنَّ أثينا تـوجَّهت حين اشتَدَّ سـاعدُهـا بعدَ سقـراط، أيْ مـع الإسكنـدر، نحـو ينـابيـع الحضارة، نحو الشـرق، نحو بـابل، ثم انعـطفَتْ على مصـر. واتجهت رومـا بعـدَ أنْ قـوِيَتْ نحـو السيـطرةِ على مجـاوِرِيهـا من بلدان المتـوسط وحوض المتوسط.

صوت : لم أفهمْ.

الفتاة : وأنا كذلك لم أفهم.

التاريخ : أخذت روما تُقَلِّدُ أثينا لا بالتفكيرِ والبّحث، بل بالفَتْحِ والسيطرة. أي بدأتْ من حيثُ انتهت أثينا.

الفتاة : والمعنى؟

التاريخ : المعنى أنَّ الرواقيين، وقد ظَهَروا مع النَّصْرَانية أَقْفَلوا عصراً، وفَتَحوا بابَ عصرٍ جديد.

صوت : لكنهم لم يوفقوا إلاّ بعد زمن طال أكثر من أربعة قرون.

التاريخ : المهم أنهم وُفِّقوا حين رَجِعوا إلى الجذور، ولو بعد زمن.

الفتاة : هل تعني أن ابيكتاتوس انتصر على نحو ما انتصر سقراط؟

التاريخ : انتصرت المبادىء السبعة التي أشرنا إليها.

صوت : وأين فضل ابيكتاتوس؟

التاريخ : ابيكتاتوس كان عبداً مُعْتَقاً. ولكنه شَخَّصَ قَدْرَ المستطاع، وَسْطَ ظروفهِ القاسية، تلك المبادىءَ السبعة وأَثْبَتَ بسيرتِه أنْ لا فرقَ بين عبدٍ وامبراطور فكلاهما إنسان.

الفتاة : هذا يفيد أن قضية الحياة، فردية كانت أم

إجتماعية، منوطة بالأخلاق لا بالمعرفة.

التاريخ : هذا موضوع آخر، نعودُ إليه في حوارٍ آخر.

الفتاة : كان آخر ما وصلنا إليه في حوارنا السابق أن قضية الحياة، فردية أم جماعية، منوطة بالأخلاق لا بالمعرفة، أريد الآن أن أسأل:
هل للمعرفة أن تتحقق دون فضيلة أخلاقية؟ أو:
هل للفضيلة أن تكون بغير معرفة؟؟؟

التاريخ : أذكر أني بيّنت عند ذكر ابيكتاتوس الذي اعتبره البعض مثال القدرة على تشخيصه ما دعي آتاركسيا أي طمأنينة النفس، بينت أنُه أثبت بسيرته أن لا فرق بين عبد وامبراطور فكلاهما إنسان. وكل إنسان كائناً من كان، يحتاج إلى ذلك الشعور بالطمأنينة، وقد استنتجت من ذلك أيتها الآنسة أن قضية الحياة منوطة بالأخلاق لا بالمعرفة...

صوت : ما رأيك في هذا الاستنتاج؟ هل هو صحيح؟؟

التاريخ : هل حصل الاقتناع أن لا فرق بين عبد وامبراطور؟؟

الفتاة : أعتقد ذلك. . والامبراطور ماركوس أوريليوس انطونينوس أكبر مثال. .

التاريخ : هنا نفترق ليس الأمر الذي نبحثه مما يتوقف على الاعتقاد. . .

الفتاة : ولكني أتيت بمثل، هو الامبراطور ماركوس أوريليوس. . .

التاريخ : أضيف. . ولا هو مما يتوقف على مثل أو عدة أمثلة. .

صوت : نترك لك التقدير والتوضيح .

التاريخ : يجب التأكد أولاً من النقاط التي يلتقي عندها الناس جميعهم دون أدنى فرق بين النساء والرجال، والأسياد والعبيد، والكبار في السن والصغار. . .

الفتاة : هؤلاء الذين ذكرتهم يستوون جميعاً في الحاجة إلى الطعام. .

التاريخ : ثم إلى ماذا؟؟

صوت : إلى مأوى أو مسكن. .

التاريخ : وبعد؟؟

الفتاة : إلى النوم

التاريخ : وبعد؟

صوت : إلى لباس

التاريخ : وأين يستوون بعد؟

الفتاة : في الحاجة إلى... إلى الحب...

التاريخ : قد أوافق على ذلك، وإن كان البعض في ريب منه.. ولكن ثمة شيء آخر يستوي فيه الناس ولا يذكرونه إلا نادراً..

صوت : تذكري يا آنسة!...

الفتاة : ما هو؟ لا أدري...

التاريخ : الموت... أنسيتم الموت...

صوت : هل لي أن أبين ما قر عليه الرأي؟؟

التاريخ : ولم لا؟

صوت : الناس يستوون إذاً في حاجاتهم، أو في معظم حاجاتهم وجميعهم يواجهون الموت وليس ثمة فروق جوهرية بين الرجال والنساء، ولا بين الرجال والرجال والنساء والنساء.

التاريخ : ليست المسألة هذه على شيء من البساطة أو السهولة. قد يعترف امبراطور بلسانه انه لا

يختلف عن أي عبد من عبيده. ولكن قلبه غير لسانه. وتظل حياته غير حياة الآخرين وقد يدرك العبد أن إنسانيته تخوله أن يساوي نفسه بأي إمبراطور ولكنه في واقعه يشعر بالحسرة التي يكتمها أولا يكتمها...

صوت : وماذا نفيدُ من ذلك؟؟

التاريخ : أريد لفت الانتباه إلى هذه النقطة الأساسية التي أغفلها أكثر الناس ولا يزالون يغفلونها وهو أن الإنسان جزء من كل، وحلقة في سلسلة، وعليه أن يسعى لتحقيق الطمأنينة النفسية بانسجامه مع الكل الذي هو جزء منه، وارتباطه بالسلسلة التي يشكل حلقة فيها. وعند ذاك يتبدد في نفسه الشعور بالحسرة أو القلق. وتلك هي الحقيقة التي كشفها الامبراطور ماركوس أريليوس..

الفتاة : هل يعني ذلك أن ثمة حاجة أساسية عامة لم نوفق بعد إلى اكتشافها والوقوف عندها، كما لم نوفق إلى تبيّنها بعد؟؟

التاريخ : نعم... هذا هو ما أردت أن ألفت إليه الانتباه...

صوت : وما هي هذه الحاجة؟؟؟

التاريخ : لقد ذكرناها كثيراً في أحاديثنا، ألا وهي الشعور بالطمأنينة.

صوت : هل ترى أنها شيء كالطعام أو النوم أو اللباس؟؟؟

التاريخ : للجسم حاجاته وللنفس حاجاتها...

الفتاة : هل تتساوى النفوس في حاجاتها كما تتساوى الأبدان؟؟

التاريخ : تختلف النفوس كما تختلف الأبدان فلا تكون الإجابة عن هذا السؤال. .دقيقة وصائبة!

صوت : لقد ذكرت الآنسة قبل قليل «الحاجة إلى الحب» وبيّنت لها أن البعض في ريب من ذلك. وقد أغراني الموقف الآن بطرح هذا السؤال: «هل يكون الحب حاجة نفسية، شأنه شأن الطمأنينة».

التاريخ : الحب يتنافى والطمأنينة في كثير من الحالات...

الفتاة : نحن في حيرة من هذه التقديرات. . أشعر أن الإنسان معرض لارتكاب الأخطاء كيف تصرف. . إذا أحب فقد الطمأنينة، وإذا تجمّد ولم يحب خسر الحياة في نفسه. ما العمل؟ وأين هو الصواب؟

التاريخ : اسمعي يا آنسة ما قاله الإمبراطور ماركوس أوريليوس تلميذ ابيكتاتوس. قال: «إذا وقع امرؤ في خطأ، علمه بلطف وأرِهِ خطأه، فإذا لم تكن قادراً على ذلك، وجه اللوم إلى نفسك، أو لا توجهه إلى أحد حتى إلى نفسك. ان أي شيء يمكن أن يحدث إنما كان مُعَدّاً لك منذ الأزل. فلقد كان اندراج الأسباب منذ الأزل، يغزل خيط كينونتك وسائر ما هو متداخل فيها».

الفتاة : والحب؟ هل يندرج في الأحداث التي أعِدّتْ أسبابها منذ الأزل؟

التاريخ : هذا هو رأي الإمبراطور ماركوس أوريليوس..

صوت : هل أنت من هذا الرأي؟

التاريخ : ذكرت هذا الرأي لأبين أن الحب يتنافى مع الطمأنينة النفسية، لا أكثر ولا أقل، وللإنسان أن يختار بين الحب والطمأنينة..

الفتاة : ولكن للنفس البشرية حاجاتها كما للجسد، فلا يمكنها أن تحيا بلا حب.

التاريخ : هذا موضوع آخر ندرسه في حوار آخر..

* * *

الفتاة : انتهى بنا المطاف آخر مرة إلى التأكيد أن الحب يتنامى مع الطمأنينة، وأن للإنسان أن يختار إما الحب وإما الطمأنينة وليس في وسعه جمع النقيضين في آن واحد. .

التاريخ : هذا ما أعرفه أو هذا ما كان في الماضي. . .

صوت : هل ترى أن في الإمكان تغيير هذا الذي كان، انطلاقاً من الحاضر نحو المستقبل؟

التاريخ : الإمكان عالم لا أملك فيه رأياً أو لا أستطيع، بتعبير أدق، أن أجزم فيه برأي. . .

الفتاة : ألم يحدث أن عرفت تغييراً من هذا النوع؟

التاريخ : كنا نتحدث عن الجسد وحاجاته وانتقلنا إلى النفس وحاجاتها، ثم إلى الشعور بالطمأنينة والشعور بالحب. .

الشعور تابع للنفس، وكثيراً ما يتأثر بالفكر، بالمناخ الروحي السائد، بالمحيط الاجتماعي، بحوادث الحياة، الشخصية والعامة، وليس لهذه الأشياء جميعها ـ النفس، الفكر، المناخ، المحيط، الحياة ـ أن تستقر، أو تثبت فهذه هي التي تتغير ومعها تتغير المفاهيم. .

صوت : هل يمكن أن يتغير مفهوم الحب على نحو ينسجم به مع طمأنينة النفس؟؟

التاريخ : إذا تغير مفهوم الحب على هذا النحو، ينبثق مع ذلك التغير هذا السؤال «هل يظل الحب مع طمأنينة النفس حباً»؟

الفتاة : هذا سؤال مثير إلى أبعد حدود الإثارة. ولكن ما جوابه؟؟

التاريخ : ليس لديّ ما أقوله سوى أني لا أعرف حالةً تعايش بها الحب والطمأنينة في نفس واحدة. . .

صوت : لا حاجة بنا إذاً إلى طمأنينة نخسر معها الحب. . .

التاريخ : ما تقولين يا آنسة؟؟

الفتاة : (صمت يبدو طويلاً) لا. . نحن نحتاج إلى الطمأنينة في الحب لا معه.

التاريخ : ذلك هو الصواب؟؟

صوت : يصعب عليّ أن التقط الفرق بين «مع» و«في» عند إضافتهما إلى الحب خاصة. .

التاريخ : متى يشعر المرء بالحاجة إلى الطمأنينة؟؟

صوت : حين يفتقدها. . .

التاريخ : رائع، ومتى يفتقدها؟

صوت : حين يسود الظلم وتكثر الجرائم وتتغلب الأنانية ويتوارى الجد،وينتشر الهزل والكذب.

التاريخ : رائع أيضاً! ولكنك نسيت صفة أخرى مهمة، قد تكون من أهم الصفات التي تتسم بها عهودُ الانحطاط. هل تعرفينها يا آنسة؟

الفتاة : فقدان الحب في علاقات الناس، وحلول العداوة والبغضاء محله.

التاريخ نعم.... وتلك هي صفات الزمن الذي نشأ فيه ابيكتاتوس وتلميذهُ الامبراطور ماركوس أوريليوس وأدى من بعد إلى انهيار روما وقضى على بهجة الحياة فيها...

صوت : أفهم من ذلك أن البغض هو الداء والحب هو الدواء.

التاريخ : ولو تنافى مع الطمأنينة؟

الفتاة : يبدو أن الطمأنينة حالةٌ تتنافى مع الحياة نفسها.

التاريخ : هذا ماأعرفه! بدأنا نقترب من الحقيقة.

صوت : ذلك يجرنا إلى نسف كثير من الآمال التي يعلقها

الناس على المستقبل وفيه يرْجون أن يصلوا إلى الراحة أو النعيم أو السعادة أو ما أشبه من معان وأحوال ترادف الطمأنينة وتنشأ عنها.

التاريخ : يجب أن يتذكر الناس هذه الحقيقة وهي أنهم أقدرُ مما يتصورون، وأن أحلامهم وتطلعاتهم تسيّرُهُمْ أكثر من معارفهم، والذين ينشدون الراحة أو السعادة ويسعون في هذا السبيل يعثرون على أشياء لم تخطر لهم ببال. وعند ذلك ينسون ما كانوا ينشدون وينصرفون إلى أفكار جديدة والعمل على وضعها موضع التنفيذ...

الفتاة : هل تعني هذه الحقيقة التي بينتها الآن ألّا مانع من السعي في سبيل الطمأنينة رغم تنافيها مع الحياة؟؟؟

التاريخ : الطمأنينة تتنافى مع الحياة، شأنها شأن ما يراد فيها من معان وأوضاع نفسية حين تفيد الرضا عن النفس، والقبول بالواقع، والركون إلى الكسل الفكري والجسديّ، والامتناع عن بذل العون للآخرين، والتمسك أخيراً بمكاسب أتت من طريق المصادفة والجمود عندها.

ذلك هو معنى تنافي الطمأنينة مع الحياة لأن الحياة حركة وشوق وتطلع.

صوت : وأين نجد هذه الحياة في أحسن تجلياتها؟؟

التاريخ : في الحب الشامل، أي بأوسع معانيه وأرحب آفاقه..

الفتاة : وما القول في حب المرأة وحب الرجل؟

التاريخ : يجب أن تضاف صفة الشمول إلى الحب على أنواعه، لِتتجلى فيه الحياة الصحيحة. أما إذا تحيز في الجنس أو المصلحة أو المنفعة أو الرغبة وانشقّ عن إنسانية الكائن البشري انشقاقاً ينحدر به إلى حضيض الحيوان، يصبح معنى مناقضاً للحب وللحياة في آن واحد...

الفتاة : عفواً، يبدو أني لم أوفق في بيان ما قصدت إليه من سؤالي.. أود أن أعرف الفرق بين حب المرأة على حدة، وحب الرجل على حدة، حتى عندما يكون شاملاً وغير متحيز في حالة ضيقة تستلب إنسانية الإنسان أو تحدث في النفس انشقاقاً عنها. هل اتضح ما أريد؟

التاريخ : أظن أنّه اتضح.. هنا ننتقل إلى نشأة كل من

المرأة والرجل، إلى نوع التربية التي تجري على كل منهما، إلى المناخ الروحي السائد الذي تكونت فيه المرأة على حدة، والرجل على حدة. وهناك، يمكن تلمس الفروق في النظر إلى الحب بين النساء والرجال على السواء.

صوت : أليس للوراثة يد في هذه النظرة إلى الحب؟ أرى أنك ضربت صفحاً عنها.

التاريخ : النظرة إلى الحب تشكل جزءاً من المناخ الفكري الروحي السائد في بيئة من البيئات، حتى ولو كان للوراثة يد في تكوينها.

الفتاة : رأينا في حديث سلف أن هذا المناخ معرض للتغير، وأنه بطبيعته متقلب وغير مستقر.

التاريخ : وذلك هو شأن النظر إلى الحب.

صوت : والطمأنينة؟ هل يتغير النظر إليها؟

التاريخ : تذكر موقفك قبل قليل: لا حاجة بنا إلى طمأنينة نخسر معها الحب!.

الحب والنفس

صوت : لديَّ جديد أودُّ أن أعرضه، وأن نتداول الرأي فيه، وهو يدور حول النتيجة التي انتهينا إليها في آخر حديث من أحاديثنا. وكنا قد اتفقنا على أن النظرة إلى الحب جزء من المناخ الفكريّ الروحيّ السائد في بيئة من البيئات. وأن الحب والطمأنينة يتنافيان، وان لا حاجة بنا أخيراً إلى طمأنينة نخسر معها الحب.

الفتاة : ما هو الجديد الذي تود أن تعرضه؟ هذه كلها أفكار أصبحت معروفة ولا جدوى من تكرارها.

صوت : الجديد في نظري على الأقل، هو أني قلت لصاحب لي تلك العبارة «لا حاجة بنا إلى طمأنينة نخسر معها الحب». وكان رده: «لا حاجة بنا إلى حب نخسر معه الطمأنينة» أين هو الصواب؟.

التاريخ : لا أزال عندرأيي أن الحب والطمأنينة يتنافيان. يبدو

أن صاحبك يفضل الطمأنينة ولو أدّتْ إلى إلغاء الحب.

الفتاة : وهل للتفضيل قيمة إزاء الحقيقة؟

التاريخ : الواقع شيء والتخيلُ شيء آخر. فقد يتخيل بعضهم أو يعتقد أن في إمكانه تحقيق الطمأنينة على حساب النزعات النفسية الأخرى.

صوت : ألا ترى أن للعقيدة يداً في هذا التفضيل وأمثاله؟

التاريخ : ليس للعقيدة أن تنسف الواقع، أو تقف ضد الطبيعة. ربما تتمكن من تشويه الواقع، أو تحريفه أو طمسه حين تسيء فهمه أو تفسيره. ولكنها لا تملك أن تنكره.

الفتاة : وإذا أنكرته؟

التاريخ : إذا حملت عقيدةٌ مّا صاحبها على إنكار الواقع أو معاندة الطبيعة، أهلكتْ صاحبها وظل الواقع حَيثُ كان.

صوت : ولكن تشويه الواقع أو تحريفه كإساءة فهمه وتفسيره لا يختلف عن إنكاره في شيء.

الفتاة : هذه كلها إساءات تَعرّض القائمَ بها للهوان

والهلاك، دون أن يشعر!

صوت : السؤال الذي لم نصل إلى إجابة واضحة بعد عنه، هو: لماذا يستحيل الجمعُ بين الحب والطمأنينة؟

التاريخ : الطمأنينة وهم أو هي سراب. ومعنى سرابيتها أن لا سبيل إلى تحقيقها مع حياة النفس، بينما النفس لا تحيا إلا بالحب، وهي تموت إذا خسرت الحب.

الفتاة : هنا.. ينبثق سؤال آخر هل يمكن أن تموت النفس ويبقى الجسد حياً؟

التاريخ : هذا ما يحدث في الحياة اليومية.

صوت : وكيف لنا أن نفهم بعد ذلك علاقة النفس بالجسم، أو علاقة الجسم بالنفس؟

التاريخ : لك أن تفهم ذلك، إذا فكرت وأحسنت التفكير في بعض الحالات النفسية: الهم الشديد، الحزن العميق، الفرح الطاغي، الشوق البالغ، الرغبة الجامحة.. هذه كلها حالات تؤدّي في الأعم الأغلب حين ترسخ وتطول، إلى اضطراب فكري. واضطراب الفكر يؤدي بدوره حين يرسخ ويطول أيضاً إلى خلل في وظائف الأعضاء الجسدية إذ يمتنع آنذاك على هذه الوظائف أن تنسق وتنتظم.

الفتاة : هل يعني ذلك أن حياة الجسد مرتبطة بحياة النفس، ولا ترتبط حياة النفس بالجسد؟

التاريخ : لا. أبداً لا. الحياة وحدة لا تتجزأ ولا تنقسم بين نفس وجسد. إنما يعني ذلك فقط، أن النفس هي الأساس، والجسد قائم عليها والعلاقة بينهما قائمة في الحياة التي تؤلف بينهما، وهي علاقة تابع بمتبوع، والجسد هو التابع، فإذا حدث العكس أي تبعت النفس الجسد، ماتت النفس ولا يلبث الجسد حتى يتبعها، وتنتهي حياته خلال فترة من الزمن قد تطول في حالات، وتقصر في حالات.

صوت : أما هناك من رابطة قائمة بين الحب والجسد؟

التاريخ : الحب حالة نفسية وليست جسدية والعلاقة بين الحب والجسد غير مباشرة. العلاقة المباشرة قائمة بين الحب والنفس، وهذه تسيّر الجسم وتوجهه، حين تكون في وضع سويّ ويكون الجسم سوياً أيضاً.

الفتاة : يبدو أن الذي تقوله في هذا الشأن يخالف الشائع المعروف لدى عامة الناس، أو أنّه غير مألوف، على وجه الإجمال.

التاريخ : أنا لا يهمني الشائع ولا أعبأ بما يألفه الناس، أو ينفرون منه. الحقيقة وحدها تتمتع بقيمة أساسيّة ولها وحدها الأهمية الكبرى ولا شأن لما هو شائع مع ما هو حقيقي.

الفتاة : وأين تصنف «الشائع» إزاء «الواقع»؟

التاريخ : ها أنتم تعودون إلى المناخ الفكري السائد وقد فرغنا من درسه وبحثه.

الفتاة : أين يصح تصنيف هذا الموضوع إذاً، وأنت تعزله عما هو شائع.

التاريخ : إنها مسألة فهم لا أكثر ولا أقل. هؤلاء الذين يفهمون الحب على أنه أحد وظائف الجسد يعبرون بفهمهم عن «غباء» حيواني خالص في حيوانيته. والذين يفهمون المرأة على أنها أداة هذه الوظيفة، أو إحدى وسائلها يخرجون بفهمهم هذا أيضاً من عالم الإنسان ليدخلوا حظائر البهائم

الفتاة : يبدو أن للمرأة الإنسانة مهمة خطيرة لم يدركها البشر بعد.

التاريخ : أعجبني القول: «المرأة ـ الإنسانة» لأن المرأة

الحيوانة هي التي سادت في عهود البـرابرة وتحكم الطغـاة، ولا تـزال تعمـل عملهـا في منـع التـطور الصحيح وإيجـاد أزمنـة الانحـطاط في كثيـر من المجتمعات.

صوت : هل تعتبر المرأة مسؤولة عن هذه الأزمنة؟

التاريخ : إذا أخـذ المجتمع في الانحدار، لا يصـح أن تقـع تبعـة انحداره على الرجـل وحده، أو على المـرأة وحدها، فكلاهما مسؤول وقضية الرقي أو الانحطاط منـوطـة أولاً وقبـل كـل شيء بـالحس الإنسـاني وتمثلاته في الحياة العامـة أي في المؤسسات التي تنبثق منه، وتواكب نموه وازدهاره مثل دور الأيتام، ومعاهد المعـاقين، وملاجىء العجـزة والجمعيات الخيرية وأشباهها. ومن المفـروض في المرأة على العموم أن يرهف حسها الإنساني بحكم التجـارب التي تمـر بها من رعـاية لـلأطفال وتعهـد لمشاعـر الألفة وتمرس بمعاني المودة والصداقة.

الفتاة : أيكون العنف إذاً من صنع الرجل؟

التاريخ : العـاطفـة في كـل مـا يـطفـو على سـطح الحياة الاجتمـاعيـة من ظواهـر، وليست الآمـال والأخيلة

والمثل العليا والمطامح والتطلعات إلا تعبيرات عن عـواطف. وقد رأينـا من قبل أن هـذه الأشيـاء هي التي تسير الأفراد والجماعات وتتحكم بسلوكهـا. وليس للعنف من تفسيـر حين يـظهـر، سوى أنه انسيـاحٌ مع حـالات عاطفيـة ينعدم فيهـا الفكر ولا سيما من جانب البادىء به، لا من جـانب الدفـاع ضدّه.

العنف: أسبابه ومظاهره

صوت : لا أزال أفكّر في تفسيرك للعنف، وهو أنه انسياحٌ مع حالات عاطفية ينعدم فيها الفكر. لم يبارح هذا التفسير ذهني، ولم أهدأ طرفة عين بعده، ولا أعرف كيف استقر معه، فأنت تقر الحب وتدعو إليه، وهو حالة عاطفية، وتقاوم العنف مع أنه حالة عاطفية كذلك.

التاريخ : الحالات العاطفية ليست سواء أولاً والحب الصحيح، لأن هنالك حباً معتلّاً، يقومُ على فكرٍ صحيح، ثانياً. والعنف ليس حالة عاطفية، وإنما هو انسياحٌ مع حالةٍ ينعدم فيها الفكر. ولك أن تحاكم ذاتَك بعد هذا الإيضاح، أولاً وثانياً وثالثاً.

الفتاة : الناس يضعون العاطفة قبالة العقل أو ضده، والحب عاطفة، كما أن البغض عاطفة.

التاريخ : الناس لا يضعون الأشياءَ في مواضِعِها. وأنا

كتاريخ، أتحدثُ عما أعرف، عما جَرَى، في الماضي، ويَجْرِي في الحاضر، ولا علاقة للحقيقة التي أعرِفها بما تَحْمِلُ أذهانُ الناس من أوهام أو تنطوي عليه من تصورات.

صوت : ألا تجد أن العاطفة يمكن أن تخالف العقل ضمن الذات الواحدة؟

التاريخ : أنا أجدُ أنَّ الذاتَ البشرية كلٌّ لا يتجزأ، ولا تَنْقَسِمُ بين عقلٍ وعاطفةٍ وإرادة، ولا بين غريزةٍ وفكرٍ وخُلُق. الذاتُ كل، قد تَصِحُّ وقد تَمْرَض. هذا ما يجبُ أنْ يعرِفَه المربون والحكماء والأدباء والمُرْشِدُون. وحين يبدو أنها تنقسِمُ بين عقلٍ وعاطفة أو بين فكرٍ وغريزة، يجبُ أنْ يسترشدَ الإنسانُ بالحقيقة في تصورِ ما يَنْبغي أنْ يقومَ به، والحقيقة أنَّ الذاتَ لا تَنْقَسِمُ إلا في الظاهرِ من أحوالِها، وإنما تسيطرُ عليها فكرةٌ ما، أو رغبةٌ ما في زمن، لتنصرِفَ عنها إلى غيرها في زمنٍ آخر.

الفتاة : وكيف نفهم حالات العنف إذاً؟

التاريخ : عنفُ الفرد غيرُ الجماعة. الأول: نتيجةُ غضبٍ أو خوفٍ أو طمع. وقد تَلْتَقي هذه العواملُ الثلاثة

وتتعاون، فتولدُ العنفَ الجماعي.

صوت : هل يمكن القضاء على هذه العوامل التي تنتج العنف بشقّيْه: الفرديّ والجماعي؟ وكيف نقضي عليها؟

التاريخ : العنفُ الفردي حالةٌ نفسية مرضية، قصيرةُ العمر غالباً. ولكنَّ العنفَ الجماعي نتيجةُ تلاقٍ وتوافقٍ بين هذه الحالاتِ المَرَضية، وبه تتساندُ المخاوفُ والمطامح، وتَمُدُّ في عمر الغضب، وتحولُه إلى عَدْوى تكتسحُ كل ما يُعِيقُ انتشارَها.

الفتاة : لنأخذ العنف الناجم عن الغضب مثلاً. لماذا يغضب الفرد؟ ومتى؟ وكيف؟

التاريخ : الفردُ يَغْضَبُ حين يصطدِمُ بواقعٍ يخالِفُ ما كان قد استقر في ذهنِه، أو يُضادُّ عاطفتَه أو يُخَيِّبُ أملاً قائماً في نفسِه. وهو لا يَغْضَبُ إذا فكر سلفاً أنَّ العالمَ غيرُ مُجْبَرٍ على مراعاةِ عواطفِه، ولا يغضبُ أخيراً حين يتقررُ في ذاته أنَّ الحياة شيء وآماله فيها شيءٌ آخر، وأنَّ لغيرهِ أنْ يتصرفَ بمنأىً عنه، كما أنَّ له هو نفسُه أنْ يتصرفَ بمنأىً عن غيرهِ.
أما العنف الذي يُرَدُّ إلى الخوفِ عند تحري

أسبابه الدفينة، فإنه أطولُ عمراً وأشدُّ أذى، ولا نفعَ لدواءٍ فيه إلّا بإزالة المخاوف الكامنة وراءَه.

ونأتي أخيراً إلى عنفِ الطمع، أو الناجم عن الطمع. هذا النوعُ من العنف يَسْتَنِدُ في حقيقةِ أمرِهِ إلى شعورِ الطامع بقوتِه في جانب، وضَعْفِ المطموعِ به في الجانبِ الآخر. ولكما أنْ تتصورا كيف يُتَاحُ التخلصُ منه.

صوت : إذا كانت المطامع والمخاوف أسباب العنف الجماعي، فلن يقتنع أحد بعد في إمكان التخلص من العنف، لأن العالم لن يخلو من قويّ وضعيف، وطامع ومطموع به.

التاريخ : لست من هذا الرأي.

الفتاة : وكيف ذلك؟

التاريخ : ليس العنفُ من شأنِ الضعف أو القوة، ولا هو من مواليد الطمعِ أو عدمِهِ. إنه مسألة فكرٍ سقيم في أولِ منزلة، فالغاضبُ والخائفُ والطامعُ ثلاثةُ أشخاص أساءوا الفهم، فلجأوا إلى وسائلَ تُبْعِدُهم عن أهدافِهم، وَتَصُدُّهم عن سبيلِ النجاة، وَتُوْقِعُهم في أشراكِ الهوان وهم لا يشعرون.

صوت : وكيف يمكننا إنقاذ الافهام كلها من السوء وتبصير الناس بحقائق النجاة أو الخلاص؟

التاريخ : في أنْ نجعلَ الناسَ كلَّهم فلاسفة.

الفتاة : (بدهشة ظاهرة) وهل يمكن ذلك؟

التاريخ : نعم، هذا هو الممكن. ولا أرى من سبيلٍ غيرَه.

صوت : أنت تعرف الماضي. هل جرت محاولة كهذه من قبل؟

التاريخ : أجل، إنها جَرَتْ ولا تزال تَجْرِي كل يوم.

الفتاة : أتمنى أن تشرح ما تقول، فهذا الذي تقول مدهش ومثير.

التاريخ : حسناً ابدأُ الشرحَ بهذا السؤال. هل سمعتُم بشيءٍ اسمه «الدين»، أو «الديانة» قبل اليوم؟

الفتاة : كيف لا، إنّا لا نسمع إلا حديث الأديان، من أقدم العصور إلى اليوم.

صوت : صحيح! كيف لم نفكر في ذلك.

التاريخ : ماذا يريدُ الدينُ من الناس؟ ولماذا انتشرتِ الدياناتُ في مختلفِ بقاعِ الأرض من أقدمِ العصورِ إلى اليوم؟

الفتاة : أنت أقدر على البيان في الجواب عن هذه الأسئلة شعرت أني بدأت أرى نوراً في نفسي.

التاريخ : الدينُ يريدُ نجاةَ الناس من الشر والعذاب. وقد وَعَدَ الناسَ بهذه النجاة، إذا هم سَلَكوا السبيلَ التي دَلَّهم عليها، ولذلك عمّ وسادَ وانتشر.

صوت : وكيف لم تخلص الإنسانية بعد، على قدم عهدها بالأديان؟

التاريخ : لأن التمرسَ بالدين، ووصولَ المتدين إلى الغاية، وهي الخلاص، أمران لا يتحققان إلا بالتفكير وسلامةِ التفكير، أي بالفلسفة.

الفتاة : يجب أن نبدأ إذاً بالفلسفة.

التاريخ : نعم، وبدايةُ الفلسفة هي التخلي عن العنف، والتخلي عن العنف يعني تجديداً للعلاقات الإنسانية وتركيزاً لها على أُسُسٍ غير الأسس المعروفة، القديمة البالية. فإلى الحوارِ المقبل، وبه نتحدثُ عن بدايةِ الفلسفة، وكيف تكونُ الإنسانية الصحيحة.

* * *

تجديد العلاقات الإنسانية

صوت : وماذا حول جعل الناس كلهم فلاسفة، تمهيداً للتخلي عن العنف.

التاريخ : تلك هي محاولةُ الدينِ من قَبْل، كما أوضحنا.

الفتاة : وهل نجح الدين في تلك المحاولة؟

التاريخ : نجح مع البعض، وأخفق مع البعضِ الآخر.

الفتاة : هذا يفيد أن الدين أخفق.

صوت : وكيف وصلت إلى هذه النتيجة؟

: التاريخ بَيِّن، ولا يزالُ يبيّنُ أنه نَجَحَ مع البعضِ وأخفقَ مع البعضِ الآخر. والمحاولةُ رَمَتْ في الأساسِ من انطلاقِها إلى وَضْعِ الكل في كَنَفِها، مُضِيِّ الكلِ في القيامِ بها، فلما نَدَّ عنها مَنْ نَدَّ، م البناء، لأنَّ الكل هو الأساس. والشاعرُ ، وهو على صواب فيما أوضح: قد تُفسِدُ

المَرْعى على أخَواتِها شاةٌ تَنِدُّ عن القَطِيعِ ، وتَمْرُقُ وهناك أكثرُ من شاة، في أكثرِ من قطيع، مَرَقَتْ. وبهذا، فَسَدَتِ المراعي.

صوت : ما العمل، إذاً؟

الفتاة : الكلام للتاريخ.

التاريخ : الدينُ الحقيقيُّ يحتاجُ إلى ثلاثةِ أشياء ليكونَ حقيقياً: إلى وعي، وإيمان، وعمل. ولا قيمةَ لإيمانٍ بلا وعي، ولا قيمة لوعيٍ بلا عمل. والعملُ الصحيح أن نبدأ من البداية، أي بالوعي.

الفتاة : أشعر أن الموقف لا يزال غامضاً. وكلامك هذا لم يُوفق إلى إيضاحه.

التاريخ : ما أصدقَ شعورَكِ، أيتها الفتاة، وما أروع رهافته! الغموضُ في كلامي ناشىءٌ عن هذا الواقع، وهو أنّ الوعيَ لا يَتِمّ ولا يتحققُ على درجةٍ رفيعة إلا مع الزمن، فلا يُطْلَبُ من الطِفْل أنْ يكونَ بوعي اليافع، ولا من اليافع أنْ يكونَ بوعيِ الكهل.

صوت : أفهم من ذلك أن الوعي في حاجة إلى زمن.

التاريخ : الوعيُ كالحب ينمو. والنمو يحتاجُ إلى وقت.

والوقت وَحْدَهُ لا يكفي. لا بد للغِراس من رعاية، وسِقاية، ونورٍ وهواءٍ، لتصبحَ أشجاراً لها ظلالٌ وثمارٌ.هل اتضح ما أريد؟

الفتاة : أعتقد أنه اتضح : لا غنى عن رعاية الإنسان وأداء الشروط التي يكون بها نموُّهُ وازدهاره وإثْمارُه. ولكن كيف نحول دون العنف الذي ينبت في كثير من الطباع أو في معظمها، وكيف تكون الرعاية والسقاية من هذه الناحية؟ أم أن وجوه الشبه بين الناس والشجر تنعدم هنا؟

التاريخ : ها نحن نلجُ موضوعاً آخر، فإن الحيلولةَ دون انزلاقِ الإنسانِ في علاقاتِه بغيرِه إلى العنف، تُعِيدُ إلى بساطِ البحثِ تجديدَ تلك العلاقات برمّتِها من الالفة إلى الصداقة، إلى الحب، إلى المعاملات على أنواعِها، إلى حقوقِ الفرد وواجباتِه، وحقوقِ المجتمعِ وواجباتِه، وقد تحدّثنا عن بعضِ هذه الشؤون حين عَرَضْنا للنفسِ وحياتِها، والطمأنينة وانعدامِها.

صوت : وأيّ مانع هناك من تجديد العلاقات الإنسانية هذه؟

التاريخ : ليس للتجديدِ موانع ، فكل ما في الحياة يتجددُ طَوْعَاً أو كُرهاً . . هناك عوائقُ تسيءُ إلى سرعةِ التجددِ والتجديدِ في الشؤونِ الإنسانية .

الفتاة : لنستبدل «المانع» بـ «العائق» ويصبح السؤال: «ما هو العائق في سبيل التجدد والتجديد»؟

التاريخ : العائق عن تجديدِ العلاقاتِ الإنسانية دوماً، هو تَشَبُّثُ فريقٍ من الناس بأفكارِهم وعاداتِهم وتقاليدِهم، دونَ رَوِيَّةٍ أو تفكير، لأن بَعْضاً من هذه الأفكار والعادَات والتقاليد تُحَوَّلُ إلى امتيازاتٍ أو إلى مقوِّماتِ حياة .

صوت : وأين موضعُ اللوم في سلوكهم ذاك؟

التاريخ : موضعُ اللوم . . . أنهم لم يفكروا ولم يُعْمِلوا الرَوِيَّةَ في أسلوبِ عيشِهم فتجمّدوا، والحياةُ مع الحركة . الحياةُ ضد الجمود.

الفتاة : بدأت أفهم فكرتك القائلة بجعل الناس كلهم فلاسفة .

التاريخ : ولكني أُصرُّ على الأخذِ بهذا المبدأ أولاً : الفلسفة للنساءِ قبلَ الرجال. وتلك أفضلُ وسيلةٍ للخلاصِ

من العُنْف، إذ ينصرفُ الذهنُ المتحركُ إلى ملاحظةِ الآخرين، ومعرفةِ ما يدورُ في كل «أنا» على حِدَة، والإقرار أخيراً بحق كل «أنا» في الحياةِ بعد ذاك، ويُصبح الحوارُ ممكناً. . . وهذا الحوار يُؤولُ بطبيعتهِ إلى القَبولِ بتجديدِ النفس، وتجديدِ العلاقات.

صوت : أُحس وأنا أتصوّر الشروع بتحقيق مبادئك هذه أن ثَوْرَةً فكريةً أخذت تندلع، وراحت تكتسح الأخضر واليابس، ولا تبقي على شيء من القواعد السائدة في توجيه الأفراد والجماعات، وتربية الرجال والنساء.

التاريخ : لا يهوَلنَّكِ الأمرُ. أنا أنطلقُ من قاعدةٍ واضحة بسيطة معروفة، هي الإفادةُ من التجاربِ السابقة. هذه الإفادةُ هي التي كانت وراءَ تقدُّمِ الطب، وارتقاءِ الزراعة، وازدهارِ الصناعة، واتساعِ التجارة. أصوابٌ ما أقولُ أم خطأ؟

الفتاة : إنه الصواب عينُه!

صوت : أرجو أن تتابع . . . كل ما تقوله صواب!

التاريخ : تَقَدَّم الطِبُّ، إذن، لأنه أَفَادَ من التجاربِ السابقة.

لماذا لم تتقدمِ التربية في مقاومةِ الحرب، والعنف عامة؟ لأن الفلسفةَ ظلَّت في عُهْدَةِ الرجال دون النساء. والتخلي عن العنف بدايةُ الفلسفة.

الفتاة : ما الذي يجعل المرأة أحقَّ بالفلسفة من الرجل في نظرك؟

التاريخ : لم أقل إنها «أحقّ». ولكني لاحظتُ أنّ استئثارَ الرجل بالفكر على مدى العصور، كان تجربةً فاشلة أساءَت للتربية، وَغَضَّت من قيمةِ المرأة، ولم تُفِدْ في رفعِ مستوى الرجل.

صوت : ولكن الفلسفة لا تعدو أن تكون كلاماً.

التاريخ : يَهُمني أنْ لا تضيع. أنا أسألُك: هل يمكنُ للحب أنْ يبدأ، أول ما يبدأ، عملاً دون قول؟

صوت : لا، يجب التصريح به، أو التعبير عن الشعور به، في بدء منه.

التاريخ : أليس التصريحُ كلاماً؟

صوت : بلى، إنه كلام!

التاريخ : وهل لكلامِ الحبِّ معنى؟

صوت : يجب أن يكون له معنى.

التاريخ : تلك هي الفلسفة: كلامٌ له معنى. وقد استأثرَ به الرجال، وكان استئثارهُم ذاكَ تجربةً فاشلة.

الفتاة : إلى أين تريد أن تصل؟

التاريخ : إلى الإفادة من التجربة الفاشلة في الحقلِ الفلسفي.

صوت : نترك الآن هذه الإفادة لحوار آخر. . .

الفلسفة والحياة اليومية

الفتاة : إذا كنت تزيد الفلسفة للنساء قبل الرجال، كما أفضى إليه آخر حديث معك، فلن يكون معنى ذلك إلا أن تحول كل بيت إلى جامعة، أو إلى كلية فلسفة، على الأقل.

التاريخ : (ضاحكاً) الفلسفة شيء والحياة الفلسفية شيء آخر. وأنا أريد أن يكون لحياة كل امرىء وامرأة نهج واضح، وفكر علمي، ومبدأ أخلاقي. والأسلوب الأمثل لتحقيق ذلك أن تندفع المرأة في هذه السبل، والرجل يتبعها، شاء أم أبى.

صوت : ما الذي يضمن تبعية الرجل هذه للمرأة؟

التاريخ : سلوك الأم في جانب، وعصر الطفولة في جانب، والمناخ الروحي الذي ينشأ عن ذلك في آخر جانب.

الفتاة : يخيل إليّ أنك تريد النزول بالفلسفة إلى الحياة اليومية.

التاريخ : لا!أبداً لا! أريد رفع الحياة اليومية إلى مستوى فلسفي نبيل أو كريم. وكريم هنا صفة مشتقة من الكرامة.

صوت : ليس في إمكان عاقل أو عاقلة إلا أن يوافق على ذلك. غير أني أتساءل عن ثلاثة أشياء وردت في بداية حديثنا هذا: ١ ـ المنهج الواضح. ٢ ـ الفكر العلمي. ٣ ـ المبدأ الأخلاقي.

التاريخ : المراد من النهج الواضح قبول الحياة على علاتها ومصائبها، وتوطين النفس على تناولها بالفكر لا بالشعور. انطلاقاً من قبولها والتمرس بها في جميع حالاتها. ولنا أن نقول زيادة في الإيضاح: إن هؤلاء الذين يفكرون أحياناً بالانتحار، ويضيقون ذرعاً بالأحزان والمصاعب، أبعد الناس عن النهج الواضح. وغموض الطريق أمام نظرهم أو تفكيرهم، هو الذي يعكر عليهم صفاء وجودهم، ويقتل الحياة في نفوسهم.

الفتاة : رائع، وعظيم ومفيد هل لك أن تبين لنا الفكر

العلمي في الحياة اليومية كما بينت النهج الواضح.

التاريخ : الناس في مواجهة الأيام والتصرف بها، ثلاثة أنواع: منهم من يستعمل خياله، ومنهم من يحكم أمانيه أو رغباته، ومنهم أخيراً من يهتم بالواقع ولا يبالي إلا بالواقع. الخيال غير العلم، والعلم غير الظن، والرغبة أو الأمنية غير الواقع. والفكر العلمي في الحياة اليومية هو الذي يحمل صاحبه على نبذ التخيلات والرغبات والظنون في الوقت الذي يلاحظ به الوقائع ويجتهد في فهمها، على حقيقتها دون زيادة أو نقصان.

صوت : يبدو أن الفهم هو الأهم وكل جهد بدونه يذهب سدى.

التاريخ : ها أنت توصلنا إلى النقطة الأساسية في فلسفة الحياة اليومية. والفهم ليس هو الأهم. الفهم نتيجة موقف يتخذه الإنسان من نفسه ومن غيره.

الفتاة : عجيب! القائم في الأذهان على العموم يخالف ما تقول.

التاريخ : أنا لا أعرف القائم في الأذهان الآن! إنما أعرف ما

كان، وعليه أقيس ما يمكن أن يكون.

صوت : أنت ترى أن نوعاً من الأخلاق يـولد الفهم، ونحن نعـرف أن الفهم هو الـذي يصـرف الأخـلاق على أنواعها.

التاريخ : الذي تعرفون خطأ.

الفتاة : وما هو الصواب؟

التاريخ : القانون الأخلاقي هو القائم في الحياة، وهو النـافذ تلقائياً عرفه الناس أم لم يعرفوه وفهمه الناس أم لم يفهمـوه. وليس لمن يتجاهـل هـذا القـانـون، أو يتجـاوزه أو يعاكسـه أن يصل إلى الحقيقة أو يفهم الحقيقة.

صوت : وكيف يتمثل هذا القانون؟ أو ما هي صيغتُهُ العملية النافذة؟

التاريخ : أنت تزعم أنك حر، أو تريد أن تكون حراً؟

صوت : نعم.

التاريخ : لنفرض أنك تصرفت بطريقة تلغي حريـة الآخر أو تسيء إليه. كيف تكون العاقبة؟

صوت لا أدري.

التاريخ : يجب أن تدري أو يجب أن تشعر على الأقل، بتأثير سلوكك في الآخرين.

الفتاة : أنا أتصور أن الإنسان حين يلغي حرية غيره أو يسيء إليها يرد غيره بالمثل، ضمن ذاته على الأقل.

التاريخ : رائع. ذلك هو القانون الأخلاقي. وهكذا يتمثل.

صوت : هناك فيما يلوح لي أكثر من سؤال ومشكلة حول هذا الشأن. هل الشعور بالحرية قائم في كل ذات وعلى درجة واحدة؟ وكيف نقيسه؟ ألا يختلف الأفراد والمجتمعات بالتالي في هذا الشعور؟

التاريخ : أكرر ما قلته مراراً: يهمني أن لا يضيع الإنسان عن ذاته حين يفكر. هذا مبدأ أساسي في الفلسفة تفرضه الحكمة ويمليه المنطق لا سيما في مجالات الحياة اليومية.

لنأخذ المشكلة التي طرحتها الآن: هل الشعور بالحرية قائم في كل ذات وعلى درجة واحدة؟ ولنحاول الوقوف عندها سعياً في إيجاد الحل الملائم لها. وأول ما ألاحظ أن طرحها على هذا النحو خاطىء، إذ كيف يتاح لك أن تدخل كل ذات وأن تعرف الفرق بين ذات وذات قبل

الحصول على تعبيرات تنفذ من خلالها إلى المعرفة المنشودة؟ ثم . . . كيف يمكنك تعيين درجات الشعور بالحرية؟ وهل تتمكن الإحاطة بجميع التغيرات والتطورات التي تطرأ على مشاعر الأفراد والجماعات؟

صوت : ما هي نصيحتك في هذه الحال؟

التاريخ : أن تقتصر على ذاتك وتنصرف بجهدك كله إلى معرفتها، وأن تتعرف إلى وجوه الشبه بين ذاتك وذات غيرك.

الفتاة : ها أنت تعود إلى سقراط ومبادىء سقراط.

التاريخ : الواقع أني آخذ بما يمليه الفكر العلمي وأنبذ التخيلات والرغبات والظنون.

الفتاة : وكيف للمرأة أن تتصرف علمياً إذا لم تكن عالمة أو متعلمة؟

التاريخ : إذا هي نبذت ظنونها وتخيلاتها ورغباتها أصبحت أفضل من كل عالمة أو متعلمة تنساح مع الظنون وتسوقها الأهواء.

صوت : أتلك هي الفلسفة التي تريد إدخالها على الحياة اليومية؟

التاريخ : أنا لا أريد إدخال شيء على الحياة. كل ما يهمني أن أنير الجوانب المظلمة من الوجود البشري على الأرض. والحياة اليومية محكومة إجمالاً بالعواطف وما يواكبها من أوهام وخيالات. وليس للعواطف ومواكبها أن تؤتي ثمارها الطيبة إلا بأن ينيرها الذكاء وتحدوها الإرادة الواعية على إبراز الكنوز الخيرة التي تحملها.

أما أسرار هذا الكنز العاطفي، فذاك ما نبينه في حوار مقبل.

النهج

صوت : رأينا في حديث سابق أن الفلسفة شيء والحياة الفلسفية شيء آخر. وانه ينبغي أن يكون لحياة كل امرىء وامرأة نهج واضح. أنا أسأل وكثير هم الذين يتساءلون مثلي: هل يمكن أن يكون هذا النهج واحداً لجميع النساء والرجال؟ وهل من الضروري أن يكون واضحاً للجميع أيضاً.

التاريخ : لا تكون الحياة فلسفية إلا بنهج وليس من الضروري بحال أن يكون واحداً أو واضحاً للآخرين.

المراد من وحدة النهج هذا المعنى الذي شرحناه وهو قبول الحياة على علاتها ومصائبها، فإذا خيل لامرىء ما أو امرأة ما أن في الإمكان رفض الحياة، في حالة من الحالات، أو وقت من الأوقات، كان ذلك خللاً في الفكر وخروجاً عن

النهج. المفروض في الكائن البشري الحيّ أن يظل حياً بفكره وعاطفته وإرادته. ولا مجال للشك في صواب ذلك!.

أما وضوح النهج فلا بد من التفريق بين وضوحه للذات وفي الذات ووضوحه للآخرين.

يجب أن يكون نهجك الفلسفي واضحاً لك، ولك أن تخفيه عن غيرك إذا شئت، ولا يهمنك أن يسيء الآخرون فهمه، حين تكون واثقاً من نياتك وصفاء سريرتك.

الفتاة : وكيف للكائن البشري أن يحصُلَ على هذه الثقة؟

التاريخ : بوضوح مراميه لنفسه وقدرته على حب غيره.

صوت : وهل يحتاج الحب الى قدرة خاصة؟

التاريخ : ما من شيء في العالم كله يحتاج إلى قدرة فائقة مثل الحب.

الفتاة : هل يشمَلُ ذلك حبَّ الرجلِ للمرأة وحبَّ المرأةِ للرجل؟

التاريخ : نعم. كل حب من أي نوع يحتاج إلى قدرة، ثم إلى وضوح في النهج والغاية. ابتداءً من حب الأم

لولدها، مروراً بحب الوطن وانتهاء بحب العلم والفن والإنسانية.

صوت : ما القول في هؤلاء الذين يكرهون المرأة ويصرحون بعدائهم ونقمتهم عليها؟

التاريخ : هؤلاء يستحقون الرثاء، فقد ران الظلام على نفوسهم واستبد الغموض بتفكيرهم، ولا سبيل إلى مداواتهم إلا بالعطف عليهم.

الفتاة : لا أزالُ في رَيْبٍ من هذا الدواء الذي تصفهُ لهم.

التاريخ : هل سمعت بشهرزاد؟ وهل عرفت أسلوبها في مداواة ملكها المريض؟

الفتاة : نعم، قرأتُ قصةَ شهرزاد.

التاريخ : ولكنّكِ لم تبلغي أعماقها ولم تنفذي إلى أسرارها.

صوت : يبدو أن لديك ما نجهله في هذا الشأن.

التاريخ : يلوح لي أن عبقرية شهرزاد تكمن في قدرتها على التشخيص: هذه فتاة أدركت أن الداء الذي فتك بنفس الملك وقضى على بهجة الحياة فيها هو أنه عجز عن تجاوز الماضي، فعمدت إلى زرع زمن جديد في نفسه استغرق ألف ليلة وليلة حتى إذا بلغ

الليلة الأخيرة تمكن من التجاوز للماضي السابق الذي عاش فيه قبل الليلة الأولى.

الفتاة : المُهم إذاً، يقومُ في تجاوز الماضي؟

التاريخ : نعم. وتجاوز الماضي عنصر أساسي من عنصر القدرة على الحب.

صوت : وهل للإنسان أن يتجاوز الماضي بهذه السهولة التي تظهر في الكلام عنه؟

التاريخ : الصعوبة كالسهولة في اتخاذ موقف من الماضي، شأن شخصي.

الفتاة : ألا يمكنُ القول إن تجاوزَ الماضي يَعني الغاءَ الذاكرة؟

التاريخ : نحن نعني بتجاوز الماضي الامتناع عن الوقوف عند المزعج من هذه الأحداث التي لا يد لأحد فيها ولا جدوى من إغراق الحاضر بها كفقد عزيز أو إخفاق حب أو انهيار بناء، أو ما أشبه.. هذه أشياء تجري مع الزمن. والزمن يتجاوز بها عواطف الناس وأمانيهم وآراءهم، فلا غنى عن مواجهتها بمنظار العقل. والعقل يقتضي على

الدوام تناول الأحداث كما هي، دون إضافة عليها أو حذف منها.

صوت : هذا مبدأ نوافق عليه ولكنه لا يوضح النهج الفلسفي المنشود في الحياة اليومية.

التاريخ : لا: هذا ليس المبدأ الشامل الذي أريد أن يقتنع به الجميع ويطبقه الجميع.

الفتاة : وما هو ذلك المبدأُ الذي تشيرُ إليه؟

التاريخ : هو احتفاظ النفس بالحياة.

صوت : وتفصيل ذلك؟

التاريخ : تفصيل ذلك أن احتفاظ النفس بالحياة يمكنها من تجاوز الماضي ويشد أزرها في معاناة الحب ويصونها من الجمود وينير السبيل أمامها لامتلاك النهج الذي يوصلها في كل ظرف، إلى ما تنشده من الحياة.

صوت : وما شأنُ هؤلاء الذين يؤثرون الانسحابَ من العالم ويفضِّلونَ النُسْكَ والزُهْد ثم يبتعدون، ويُوغِلون في الابتعادِ عن كُل هذه المشكلاتِ والهموم التي

تُقض مصاجِعَنا؟ أليسوا ذوي نفوسٍ عامرةٍ بالحياة؟ أليس لديهم نهجٌ واضحٌ يستحقُ أن نضعَه في اعتبارنا؟

التاريخ : الانسحاب من العالم كأسلوب في حل مشا كله أو كنهج في التغلب عليها، يشكل «موقفاً» خاصاً، جد خاص، ولكنه لا يصلح كأسلوب في العمل، ولا يفيد كنهج يؤدّي إلى الحياة.

صوت : الذين اتخذوا هذا الموقف يرونه حلاً ويحسبونه نهجاً صالحاً.

التاريخ : هل تستطيع أن تنصح سواد الناس بالانسحاب من العالم؟ وإذا أقدمت على إسداء مثل هذه النصيحة، هل تجد فيهم نسبة عالية تعمل بها؟

صوت : لا أغامر بالاقدام على ذلك لأني لا أجد من يصغي إليّ. ولكن ماذا يعني ذلك؟

التاريخ : ذلك يعني أني على صواب حين بينت أن الانسحاب من العالم يشكل موقفاً خاصّاً، ولا يمكن أن يكون عامّاً.

الفتاة : كان سؤالي عن الحياة في نفوسِ أولئك الذين يَنسحبون ثم عن نهجهم وقيمته.

التاريخ : لست على يقين أن لهؤلاء المنسحبين من العالم حياة تختص بهم ويختصون بها، فليس لهم نهج أو فكر، وموقفهم عاطفي صرف صادر عن مزاج خاص.

صوت : نحن نعلم أن القائد الحكيم يأمر جنده أحياناً بالانسحاب من ميدان القتال حين يجد خسارة في متابعته.

التاريخ : تشبيه الحياة بمعركة والعالم بساحة قتال، طريقةٌ في التفكير قديمة وعقيمة، تحدرت إلى الأجيال الحديثة من الذين يعتبرون الإنسان حيواناً. وقد آن للإنسان أن ينظر إلى ما يميزه، إلى عقله وحكمته وأدبه: هذه الميزات الثلاث التي لا يعرفها الحيوان. وهذا هو النهج الإنساني الواضح.

الفتاة : ولكنَّ الآخذين بهذا النهج قلة وقلتُهم هي التي تفرِضُ الانسحابَ على بعضِ القادة من المفكرين.

التاريخ : هذا شأن ندرسه عند البحث في الفكر العلمي الرائج في هذا العصر.

الفكر العلمي

الفتاة : عرفنا أن النهج الإنساني السليم في التصرف بالحياة، وحسن تناولها، إنما يقوم على استخدام الإنسان ما يتفرد به من عقل وحكمة وأدب. ورأينا أن السالكين في هذا النهج قلة. فكيف يمكن التغلب على هذه العقبة وتعميم النهج المنشود؟

التاريخ : تلك عَقَبَةٌ كبرى وشاقةٌ وخطيرة. إنها العَقَبَةُ الوحيدة التي تَحُولُ دونَ تقدمِ البشرية، وارتفاعِ المستوى المدني، وخلاصِ الإنسانية من شرورِ الحرب والعداوات.

صوت: نحن لا نجادل في ذلك، المشكلة التي نواجهها هي : كيف يمكن التغلب على هذه العقبة؟

التاريخ : يجبُ أنْ تُحيطَ علماً بخطورةِ الموقفِ أولاً،ومصادر هذه الخطورة في كل وجهٍ على حِدَة.

الفتاة : نحن معك هنا لنتعلم ونستفهم ونطرح ما يرد من

أسئلة وتساؤلات فأين هي الخطورة أو المشقة في هذه العقبة الضخمة الماكرة؟ أتكون في إزالتها أم في اجتيازها؟

التاريخ : الخطورةُ في العقبة التي تَحُولُ دونَ تعيممِ النهجِ الإنساني في تناولِ الحياةِ والتصرفِ بها ـ الخطورةُ فيها أنها إذا أُمْكَنَ إزالتُها في جيل، عادت فتكوّنتْ على نحو أَدهى وأَشد في جيلٍ آخر، وإذا تمكّنَتْ جماعةٌ أو أفرادٌ من اجتيازِها في وَضْعٍ أو حالة عسر على سائر الجماعات والأفراد في وضع آخر، أو حال مغايرة أنْ يُوَفقوا إلى أداءِ المهمةِ نفسِها، وبهذا تَكْبُرُ وتزدادُ خطورةً.

ذلك هو السبب الذي حدا كثيراً من المفكرين على الأخذِ بنظريةِ «الدور» في تشكل المَدَنِيَّات وانحلالها، بمعنى أنّ هناك أدواراً يَمُر بها المجتمع تتراوحُ بين خمولٍ ونهوضٍ ورقيٍّ وانحطاط.

صوت : وما هو رأيك في هذا التنظير وأشباهه؟

التاريخ : هذه أوهام . . كلها أوهام. رغمَ أنها تَصِفُ جوانِبَ من الواقعِ في بعضِ الحالات، وتسيءُ الفَهْمَ في أكثرِ الحالات، فهي تنأى عن الجوهرِ

عن الحقيقةِ القائمة في كلِ مكانٍ وزمان.

الفتاة : هل لك أن ترشدنا إلى أول السبيل الذي يؤدّي إلى هذه الحقيقة ويقرب من الجوهر الذي يعز على قلبك؟

التاريخ : تحدثنا عنه في الحوار السابق.

صوت : تقصد النهج الإنساني الواضح في تناول الحياة والتصرف بها؟

التاريخ : نعم، ولكن.. مع التنبيه إلى أن هذه الكلمات قد تسيء إلى الحقائق حين ترتدي ثوبَ «التنظير» المهم بل الأهم أنْ يَسْتَخْدِمَ الإنسانُ ما يتفردُ به من عقلٍ وحكمةٍ وأدبٍ في كل ظرفٍ وحالة. ولا عِبْرَةَ بعد ذلك بالمناهجِ والأساليب إذا تقيدتِ المرأةُ ـ والمرءُ أيضاً ـ بما يَفْرِضُ العقلُ وتقتَضِيه الحكمةُ وَيُحَتِّمُهُ الأدب.

الفتاة : ألاحظ أنك تنفي العلم كل مرة تتعرض بها للإنسان ورقيه وتقدمه ماذا وراء ذلك؟

التاريخ : العلمُ أداةٌ لا أكثرَ ولا أقل ومعنى ذلك أنَّهُ عُرْضَةٌ لسوءِ الاستعمالِ أو حُسْنِ الاستعمال. العلمُ شيءٌ كالنار يُمْكِنُ أنْ يَفِيْدَ منها الإنسان في طَهْيِ

الطعامِ وتسخينِ الماء. وإبادةِ الحشراتِ المؤذية كما يُمْكِنُ أنْ يُسْتَعْمَلَ في إحراقِ المباني والأشجار. . والمزروعات والاعتداء على الآخرين فلا يُمْكِنُ ولا يجوزُ أنْ نَضَعَهُ في صفٍّ العقلِ والحكمةِ والأدب.

صوت : كيف لنا أن نفصل بين العلم وسوء استعماله؟ وهل يمكننا بعد أن ننفيَهُ أو نستغني عنه، وهو الطاغي في عصرنا على كل ما عداه؟

التاريخ : إذا فكرتَ جيداً في ذاك الذي بَيَّناه من شأنِ النهجِ الإنساني وارتباطِهِ الوثيقِ بالحكمةِ والأدبِ والعقل، اهتديتَ من تلقاءِ نفسِك إلى الجوابِ الصحيح عن هذا السؤالِ وَمُتَفَرِّعَاتِه.

الفتاة : لكن. . لكن ما الرأي في العلم نفسه؟ نحن لا نملك أن ننفيه بعد من حياتنا الخاصة بَلْهَ الحياة العامة!

التاريخ : لا معنى للرأي حين يتجاوزُ الواقع أو يُنْكِرُه أو يُهْمِلُه فقد أصبحَ العلمُ كما قلتِ يا آنسة، عنصراً أساسياً من عناصرِ الحياةِ اليومية، خاصةً كانت أمْ عامة. نعم هناك جانبٌ قلّ الالتفاتُ إليه، وهو أن

العلمَ لَم يَصْنَعْ نفسَه، وإنما الإنسانُ هو الذي صَنَعَه. لذلك يجبُ أنْ ينصبَّ الاهتمامُ على الافادةِ من العلمِ بجميعِ فروعِهِ ومعطياتِهِ لخدمةِ النهجِ الإنساني السليم.

صوت : أنت ترى أن الإنسان هو الذي صنع العلم ثم تنصح أن يُسخِّر هذا العلم لخدمة النهج الإنساني. والمشهود أن هذه النصيحة ظلت مهملةً على مدى الأجيال. ما الذي منع الإنسان وما يزال يمنعه من العمل بتلك النصيحة؟

التاريخ : أنا لم أُعْطِ رأياً ولم أُسْدِ نصيحة، وإنما ألاحظُ ما حَدَثَ وما يَحْدُث. وقد لاحظتُ أنّ الاهتمامَ لم يَنْصَرِفْ نحوَ خدمة النهجِ المنشود. أما الموانعُ والعوائق التي حالت وَتَحُولُ دونَ انصرافِ الاهتمامِ البشري إلى النواحي التي يَجْنِي منها أطْيَبَ الثمار، فهذه من شأن العلماء وتابعِيهِم والدائرين في فلَكِهِم من كل جنس ولون وملة وبلد.

الفتاة : وكيف صنع الإنسان العلم ولم يتمكن من التحكم به؟

التاريخ : هنـاك شيئان: الاكتشـاف والاختـراع. وكـل علمٍ مزيجٌ من هـذَيْن. كانتِ الكهـرباءُ مثـلاً قائمـة في الطبيعة ولكنها غيرُ معروفة فلما عَرَفَهـا الإنسانُ أي اكتشفَ أين تَكْمُن، استطاع أحدُ العلماءِ أنْ يخترِعَ المِصْبَاحَ الكهربائي واستطاع غيرُه أنْ يَفِيدَ منها في نقـلِ الصوتِ من بعيـد، وذلك هـو شأنُ الأدواتِ الكهـربائيـة المختلفـة. وكـانتِ الأعشـابُ قـائمـةً كذلك في الـطبيعة. جـاءَ علماءُ النبـات والكيمياء والفيزياء واستخدموا ما عَرَفـوا لدى كـلِ عُشْبَةٍ من خصـائص في إيجـادِ عـددٍ من الأدويـة والعـطورِ والزينات والأطعمة والملابس هكذا تَمَكَّنَ الإنسانُ من صنـعِ العلم أو العلوم. وكان للمصـادفة يـدٌ، وللفُضُـولِ يد، وللبحث يـدٌ في كـلِ اكتشـافٍ أو اختراع.

صوت : لم نعرف بعد كيف امتنع على الإنسان أن يتحكم بشيء صنعه؟

التاريخ : أعِدْ علي ما قلتهُ في آخر فقرة.

صوت : كـان للمصادفـة يـد وللفضـول يـد، وللبحث يـد، وللتجربة يد في كل اكتشاف أو اختراع.

التاريخ : هـل لـك أنّ تتحكّمَ بـالمصادفـة أو بفضـولِ الفضوليين، أو بنتائج بحثٍ أو تجربة؟

صوت : لا . ليس لي ذلك .

التاريخ : أتركك الآن لِتُجِيبَ عن سؤالِـك بنفسِك، ولكِن لا تنس أنّ الفكرَ العلمي الصحيح هـو الذي يَنْسَجِمُ دوماً مع النهجِ الإنسانيِ السليم .

* * *

القانون الأخلاقي

صوت : العلم شيء واستعماله شيء آخر. صدقنا وآمنّا. ولكن الأجيال السابقة شهدت ضروباً من الخصومة بين العلم والدين ولم تلبث أن تحولت مع الأيام إلى عداء بين العلم والأخلاق، ولا سيمَا بعد أن تأكد السوء في استعمال العلم. أنت أدرى بما جرى، فما هو ذلك الذي جرى؟

التاريخ : كان الدينُ يتحولُ في كلِ بيئةٍ ينتشرُ بها ويسودُ، إلى سلطةٍ يسيءُ استعمالَها عددٌ من رجالهِ، فتتوجهُ نِقْمَةُ المتضررين من ذلك إلى الدينِ نفسه ويأخذ الشك في مساورةِ النفوس.. وهذا ما جَرَى للعلمِ نفسهِ أيضاً حين تحوّلَ إلى سلطة.

الفتاة : ليست المسألة، فيما يبدو مسألة دين ولا مسألة علم إنها في جوهرها، مسألة أخلاق.

التاريخ : ولا هي مسألةُ أخلاق.

صوت : ماذا إذاً؟

التاريخ : إنها في المنزلةِ الأولى مسألة نهجٍ إنساني والنهجُ الإنساني كناية عن التزامٍ بالعقلِ والحكمةِ والأدب. ولن أَمَلَّ من تَكْرَارِ هذه الحقيقة.

الفتاة : أليس الالتزام بالعقل والحكمة والأدب مسألة أخلاقية؟

التاريخ : أكررُ أيضاً: يجبُ أنْ لا نَضِيعَ بين الكلماتِ ومعانِيها. إذا سلمنا أنّ الالتزامَ بالعقلِ والحكمةِ والأدب استجابةٌ لأمرٍ أخلاقي، لم نَزِدْ على الحقيقةِ شيئاً. سوى كلمةِ «أخلاق» والأخلاقُ كلمة تَفْتَحُ البابَ لجدالٍ لا يظهرُ آخره حتى يعودَ أولهُ.

صوت : لننظر إلى الواقع: جرت العادة أن يفرق أهل هذا العصر بين «متحضر» و«متوحش» المتحضر يتصرف برفق ويرفض العنف ويأبى أن يضرب المرأة مثلاً أو يقسو عليها. والمتوحش لا يزال يأخذ بأخلاق الغابة: يعتدي، ويصارع، ولا يبالي بحق لغيره، وغيره من الوحوش لا يبالي بحق له. أليست الحضارة قضية أخلاق شأنها شأن الوحشية؟

التاريخ : هنــاك إيجــازٌ وإسْهَــاب: يمكنُ إيجــازُ النهــجِ الإنســاني الــواضــحِ في أنْ نقــول: إنــه التــزام بالقانونِ الأخلاقي العــادل وإنّ ذلك الالتـزام بهذا القانون هو الحضارةُ، والوحشية استرسال مع الغزائِر الحيوانية وقبولٌ بما تُحْدِثُ هذه الغرائزُ من فـوضى في العلاقاتِ والمعاملاتِ والتصرفات.

الفتاة : (بلهجـة المنتصر) هــا أنت تقر بـأولـويـة الأخـلاق وأفضليتها.

التاريخ : لا يا آنسـة ليس لديَّ أولـويات ولا أفضليـات فهذه من مُعْطَيَاتِ العقـلِ البشري الـذي يمازِجُهُ حسٌّ خـاص. هناك وقـائعُ وأوهـام. والقانـونُ الأخلاقي في حيـاةِ البشر واقعٌ غيرُ منظور. ولذلـك أتحاشى الحديثَ عنه، وأحاذرُ الإشارةَ إليه، فإنّ في الناسِ من يَحْسِبُه «وهماً» لا «واقعاً» لأنه غيرُ منظور.

صوت : هل لك أن تـرشدنـا إلى هذا الشيء الـلا منظور أو تصف لنا مظاهره وتمثلاته؟

التاريخ : لستُ أنا الذي أَصِفُهُ وإنما أُطْلِعُـكَ على بعضِ ما وَرَدَ في وصفِـه لـدى أحدِ المفكـرين: «القــانــونُ الأخـلاقي يَفْرِضُ التجـرد، ويأمـرُ بما هـو مُكَـدِّر،

ومُتْعِب، ومؤلِم. إنه يتطلبُ ما يُثِيرُ الجسد وَيَحْدُوه على التمرد، هذا الجسد الذي يَنْحَصِرُ طموحهُ في البقاءِ والاستمتاع. إنه يريدُ سَحْقَ العواطفِ الأنانية واللذة لحسابِ شيءٍ لا يزالُ في نظرِ أولئك الذين لا يؤمِنون به، ولكنه أشدُّ بأْساً حتى من غريزةِ حِفْظِ النوع، ألا وهو الكرامةُ الإنسانية والشعورُ بهذه الكرامة يَكْفي لأن يَقُودَ إلى الروحانية. والمعجزةُ الكبرى هي أنّ هذا القانونَ الصارم تَمَكَّنَ من أنْ يَفْرِضَ نفسَه فَرْضاً شاملاً على احترامِ الناس الذين يَسْتَخْدِمُون ذكاءَهم أحياناً لمحاربتهِ، مؤكدين بذلك حقيقتَه».

الفتاة : يلوح من هذا الوصف أن القانون الأخلاقي غير الأخلاق التي يتحدث عنها علماء النفس والاجتماع وأساتذة التاريخ.

التاريخ : نعم انه كذلك.

صوت : لا تزال صورته رغم كل ما بينت غامضة.

التاريخ : إنه قانونٌ صارمٌ نافذ. وما هو بفكرةٍ يُمْكِنُ رفضُها وَدَحْضُها أو الجَدَلُ حولَها أو الشك في منزلتِها من الصوابِ والخطأ.

الفتاة : ألا ترى أنه يتنافى بطبيعته هذه مع الحريّة؟

التاريخ : الناسُ يَنْسَوْنَ أغلبَ الأحيان أنّ الحريةَ نفسَها قانون، أو هي جزءٌ لا يتجزأ من القانونِ الأخلاقي.

صوت : أرجو إيضاح ما تقول

التاريخ : الحرية مقرونةٌ أساساً بالتَّبِعَة أو المسؤولية فإذا كنتَ حراً في أعمالِك وَجَبَ أنْ تكون مسؤولاً عنها.

الفتاة : فإذا لم يكن مسؤولاً، أو رفض أن يكون مسؤولاً.

التاريخ : كان عندئذ «قاصراً» أو مجنوناً أو بين القاصرِ والمجنون.

صوت : هذا صحيح.

التاريخ : وإذا أَجْبَرَكَ غيرُك على إتْيَانِ عملٍ ما. هل تكونُ مسؤولاً عن ذلك العمل؟

صوت : أترك لك الجواب.

التاريخ : المسؤول عند ذاك من يُجْبِرُك لا أنت.

الفتاة : هذا يفيد أنه لا بد من مسؤول يتحمل تبعة أعماله رضي أم أبى.

التاريخ : ذلك هو القانونُ الأخلاقي.

صوت : لم نعرف بعد كيف يكون صارماً ونافذاً؟

التاريخ : تَذَكَّر ما قلتهُ عن الحضارةِ والوحشية. أنا أسأل: هل تقومُ الحضارةُ بنفسِها لنفسِها دونَ أي جهدٍ يبذله الإنسانُ في سبيلِها؟

صوت : إنها ركام أعمال تقوم بها جماعة من الناس.

التاريخ : نسيت أنْ تُضِيفَ صفةَ (مسؤولة) إلى جماعة.

صوت : عفواً الحضارة ركام أعمال تقوم بها جماعة مسؤولة.

التاريخ : فإذا سها وَرَثَةُ الجماعة أو وَقَفوا عن القيامِ بتلك الأعمال. أو أهْمَلوا متابعتَها، وامتنعوا عن حَمْلِ تبعاتِها ماذا يحدث؟

الفتاة : أنت أدرى!

التاريخ : إذا حصل ذلك أو شيءٌ منه أخذتِ الحضارةُ في الذبول وارتدَّ الناسُ إلى الوحشية وَحلَّتِ الغرائزُ محلَّ العقول وَفُقِدَتِ الحكمةُ وضاعَ الأدب.

الفتاة : الحضارة تقتضي الاستمرار في بذل الجهود الآيلة إليها.

التاريخ : ذلك هو معنى الصرامة في القانونِ الأخلاقي بل هذا هو معنى نَفَاذِه.

صوت : يقال: إنه لا يمكن تفادي السقوط الذي تمنى به الحضارة حين تبلغ ذروتها.

التاريخ : هذا الكلامُ فارغ! الصحيحُ أنّ ما من قوةٍ في العالم تستطيعُ منع القانونِ الأخلاقي من تحقيقِ نفسِه.

الكنز العاطفي

الفتاة : لنفرض أن مجتمعاً ما أخلّ بالقانون الأخلاقي، وأن هذا القانون نفّذ بحق ذلك المجتمع. أما من سبيل إلى إنقاذه بعد ذاك؟ أم يظلّ محكوماً عليه بالهوان والانحطاط؟

التاريخ : الجوابُ عن هذا السؤال يحتاجُ إلى ذاكرة. هل تذكرِين ما قُلتِه في شأنِ الحضارةِ في حوارِنا السابق؟

صوت . وماذا قالت؟ المعذرة.. لهذا النسيان.

التاريخ : قالت: الحضارةُ تَقْتَضي الاستمرارَ في بذلِ الجهودِ الآيلة إليها.

الفتاة : سؤالي ينصب على نقطة تتحيّز في انهيار البنيان الحضاري: أما من سبيل إلى تشييده من جديد؟

التاريخ : تُرِيدِين تَشْيِيدَه وهو ينهار، أم بعدَ اكتمالِ انهيارِه؟

الفتاة : لا أعتقد أن في الإمكان إقامةَ بناء حضاري جديد، دون تبديل الأسس التي أدت إلى الانهيار.

التاريخ : هذا صحيح.

صوت : هل يعني ذلك تبديلَ المكانِ أيضاً؟

التاريخ : ليس بالضرورة.

الفتاة : هناك شيء ينبغي أن يتغيَّر عند البناء من جديد. ما هو؟

التاريخ : قلتِهِ منذ لحظة.

الفتاة : الأسس؟

التاريخ : نعم، ولكن هل يَعْرِفُها الناس؟

صوت : أليست هي عناصرَ النهجِ الإنساني التي تحدَّثْتنا عنها مراراً وتكراراً؟

التاريخ : لا.. تلك عواملُ استمرار، وليستْ أُسُسَ بناء.

الفتاة : ما هي إذاً تلك الأسس التي تصلح لتجديد البناء الحضاري؟

التاريخ : ألا تعرفِينَها؟ أنتِ أحق الناسِ بمعرفتِها.

الفتاة : يبدو أن بعض المعارف تحتاج إلى زمن طويل،

وأنا ما زلت في سنّ تصغر عنها.

صوت : لم كانت الآنسة أحقّ بمعرفتها؟

التاريخ : ذلك لأنّ الأُسُسَ التي تَصْلُحُ لتجديدِ البناءِ الحضاري أَلْصَقُ بالشعورِ أو العواطف من سائرِ قُوى النفس، هناك نظامٌ اجتماعي، وشعورٌ إنساني، والحضارةُ الحقيقية ليست وليدةَ النظام. العكسُ هو الصحيح، فالنظامُ وليدُ الحضارة التي تُشَكِّلُ في جوهرِها تجسيداً لشعورٍ عميقٍ بالحياةِ الإنسانية - لا الحيوانية - ومقتضياتِها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية. والذين يَخْلُطُون عادةً بين النظامِ والحَضَارة يَقَعُون في واحدةٍ من أكبرِ الخطايا. والشعورُ الإنساني الصحيح الذي تتميَّزُ به المرأةُ إجمالاً، يُشَكِّلُ عنصراً أساسياً في بناءِ كلِ حضارة. ولذلك، أحسِبُ أنَّ العنصرَ النسائي أحقُّ بمعرفةِ الأُسُسِ الصالحة لتجديدِ الحضارةِ عن طريقِ الشعور.

الفتاة : هذه أول مرة أسمع بها أن للعواطف قيمةً كبرى في حياة الحضارة.

التاريخ : الحالاتُ العاطفية هي التي تُعْطي الشخصيةَ

حـرارتَهـا وَوَهْجَهـا، فـإذا بَـرَدَتْ أو انحـرَفَتْ أو شاهَتْ، أَفْضَتْ إلى تفسخِ الشخصيـة وَرَدَّتْها إلى وَضْعٍ قريبٍ من التفاهةِ والجمود.

صوت : وما بال الناس يعطون الأهمية الأولى للفكر، وأنت الذي أكدت ما وسعك التـأكيـد فـي كل أحـاديثك السابقة، على دور العقل والحكمة؟

التاريخ : قلت وأكرر للمرةِ العاشرة وما يَنِيفُ عليها: الإنسانُ وَحْدَةٌ متكاملة من عـاطفةٍ وفكـرٍ وإرادة أو من فطرةٍ وعقلٍ ونشاط، فلا يمكنُ ولا يَصح الغاءُ أحدِ هذه العناصر الثلاثة، دون تفسيخٍ للشخصية الإنسانية؟

الفتاة : وكيف تفسر تأكيدك على قيمة العـاطفة في تجـديد الحضارة؟

التاريخ : الأمرُ الذي لا غِنَى عن الإشارة إليه، هو «الحافـزُ» على النشـاطِ في كـل حقـلٍ ومجـال، وحـوافـزُ النشاطِ مرتبطةٌ بالمُناخِ الروحي ـ الفكـري السائـد في بيئةٍ من البيئات، ولكنها تَظَلُّ في معظمِها ناشئةً عن مَقْصَـدٍ في الحياة متجهـة نحـو هـدف. وحين يَسْعَى المرءُ والمرأةُ نحو هدفهِ بِحَمَاسة، يأخذُ في العملِ الجادّ. والحمـاسة دلالـةٌ على قوةِ الحـافزِ

وعِظَمِ تأثيرِه وهي لا تعدو أنْ تكونَ مظهراً من مظاهِر الحياةِ العاطفية.

صوت : ولكن الموقف العاطفي، كما يحسبه أهل العلم وغيرهم من ذوي العقول النيّرة «يلجم الفهم» ويَحدُّ من انطلاق الفكر، ويحجُبُ النظر عن الصفاء. صحيح أن القلب يمنحنا ضرباً من الانخطاف نشعر معه بالغِبطة والسعادة والفرح في كثير من الحالات ولكنه يقضي على الصمت اللازم لكيان الإنسان، وهو الصمت الذي لا نبلغ فهْماً أعمق إلّا به. هذا ما أنهته التجربة إلى الهنود الأقدمين، وهم خيرة المجرّبين وسادة المفكرين.

التاريخ : أنت نَسِيْتَ المُنْطَلق في هذا الحوار. وقد انطلقنا من شأنٍ عام غيرِ خاص وهو تجديدُ الحَضارة. والموقفُ العاطفي الذي حَمَلْتَ عليه، استناداً إلى تجربةِ أصحابِنا وأعزائِنا من مفكِري الهند القدامى والمُحْدَثِين، يختلفُ كلَ الاختلاف عما نحن في صدد تبيينه وبيانه. أنتَ تتحدثُ عن الموقفِ العاطفي في تناولِ المشكلات التي تَعْرِضُ للحياةِ الشخصية ولا أخالِفُك في صحةِ النتيجة التي انتهيْتَ إليها من هذه الزاوية، فإذا نَظَرْتَ من

الزاويةِ التي انطلَقْنا منها، أدركتَ أنّ الصوابَ في جانبي.

الفتاة : هل يفيد ذلك أن الموقف العاطفي من شأنٍ خاص، يصبحُ غيرَ عاطفي من شأن عام؟

التاريخ : فكري في الأمر، واحصُلي على الجواب.

صوت : أظن أن العاطفة الحقيقية تتخلص، حين تنصبّ على الوطن مثلاً - أو العلم أو الفن، بمجرد هذا الانصباب، مما يسيء إليها، وهي تنحصر في «الأنا» أو تقتصر على الأنا.

التاريخ : ها أنت تقترِبُ من الصواب. لكن.. ثمةَ معنىً آخر يجبُ أنْ يَنْضَافَ إلى هذا الذي قلتَه.

الفتاة : عندما تنصب العاطفة على جانب غير منظور، حتى في الكائن الذي نحبه (مستقبل الطفل في نظر أمه مثلاً) يتولد معها الشوق إلى المعرفة، وهذا الشوق يسوق إلى البحث، والبحث يسوق إلى الاكتشاف وربما الاختراع.

التاريخ : رائع وبديع، ذلك هو الكنزُ العاطفي الخَبِيء، وهذا هو الشعورُ الذي يُشَكِّلُ أساسَ الحضارة.

صوت : كيف لنـــا أن نفهم تلك الحمـلات الشعــواء التي شنّها البعض، ولا يزالـون يشنونهـا على العواطف والحياة العاطفية، والمواقف العاطفية؟

التاريخ : ليس للعــاطفـة أنْ تقــومَ بنفسِهـا لنفسِهــا، فهي كـالفضيلة. فَكِّـرْ في الصـدقِ الأبله، والشجاعــةِ الحمقـاء، والعفةِ المسكينـة، وسنبحثُ مُفَصَّلاً في هذه الأشياءِ الغريبة.

صوت : الفكرة التي لم أنقطع عن التأمل فيها منذ أسبوع كامل، ولم أتمكن بعد من الاستقرار معها، هي أن الفضيلة كالعاطفة لا تقوم بنفسها لنفسها. وقد حاولت عبثاً أن أصل إلى فهم هذه النقطة، ففي كل مرة أحسب أني فهمت، تعود إلي الوساوس والشكوك، وأجد أني في حاجة إلى مراجعتك. كيف لي أن أفهم وأستقر؟

التاريخ : يبدو أنك تدورُ في فَرَاغ، وتعتمدُ التجريدَ في مواجهةِ الأفكار.

صوت : لم أفهم ماذا تقصد بالفراغ، ولا ما تعنيه بالتجريد.

الفتاة : أنا فهمت المراد أن تتأمل فضيلة معينة أو عاطفة معينة وتضعَها في إطارِها الواقعي.

صوت : ضعي نفسك مكاني. كيف تفكرين؟

الفتاة : أفكر في الشجاعة مثلاً وكيف تكون؟ في الأمانة وكيف تتحقق؟ في الصدق ومواضعه. في العفة وشروطها.

التاريخ : الفتاة على صوابٍ فيما تقول.

صوت : لنعتمد أسلوب التدرج والتدريج، ولتكن الشجاعة محورَ حديثنا. وننتقلْ من بَعْدُ إلى غيرها.

التاريخ : جاء دوري في طرحِ الأسئلة: هل تعتبرُ من يَرْمي بنفسِه في الخَطر، أيِّ خطر، شجاعاً؟.

صوت : لا... الشجاعة غير المخاطرة..

التاريخ : هذا هو المعنى الكامنُ في قولنا: «الفضيلةُ لا تقومُ بنفسِها».

صوت : إلى ماذا تحتاج الفضيلة لتتحقق، دون أن تفقِد صفتها كفضيلة؟

التاريخ : إلى الحكمة.

الفتاة : ولكن الحكمة تفرض الأناة والهدوء، وترفُضُ الاستجابة للعاطفة، أي للنخوة. والشجاعة تلبيةٌ لنخوة.

التاريخ : ليس في جميعِ الحالاتِ! الأناة لا تَعْني الغَفْلَة،

والهدوء لا يعني الجمود. والنَخْوة قطعة من الكنز العاطفي الذي يَخْتَبِىءُ في قلبِ الإنسانية إغاثةً للملهوفين ودفعاً للمظالم.

صوت : لنأخذ فضيلة أخرى غيرَ الشجاعة: الصدق مثلاً.

التاريخ : هل ترى من واجبِك أنْ تكونَ صادقاً مع عدوك، وهو يحاولُ أنْ يَعْرِفَ أسراراً يَهُمك أنْ تظل خافية؟

صوت : لا.. الصدق غير البوح بالأسرار.

الفتاة : إذا اضطر الإنسانُ إلى الكلام، هل يُعْتَبَرُ كاذباً حين يُخفي ما يعرف؟

التاريخ: لا علاقةَ لي باعتباراتِ الذاتية، فهذه من شأنِ الإنسان وخِياراتِه وتفضيلاتِه ومواقِفِه الخاصة. الوقائع هي التي تَهُمني في كل مكانٍ وزمان.

صوت : لا سبيل إلى الحديث إذاً عن الصدق مع الذات.

التاريخ : الصِدْقُ مع الذات شأْنٌ ذاتي.

الفتاة : فإذا تمثل في تصرّفٍ أو مسلك.

التاريخ : كان للقانونِ الأخلاقي عند ذاك أنْ يَجْرِيَ في مجراه وقد تحدَّثنا عنه.

الفتاة : خلاصة ما يشف عنه كلامك أنه لا حل للمشكلات، خاصة كانت أم عامة إلا بمراعاة القانون الأخلاقي.

التاريخ : هناك أسلوبٌ في تناولِ كل مشكلة فإذا أمْسَكَ الإنسانُ بمشكلاتِه الخاصة على نحوٍ معقولٍ وذكي، تَمكنَ من الوصولِ إلى حلها شرطَ أنْ يَنْشَط ويَسْعَى في هذا السبيل.

صوت : وما القول في المشكلات العامة؟

التاريخ : هناك أسلوبٌ في تناولها وهي كالخاصة تحتاجُ في حلها إلى عقلٍ وذكاء وسعي ونشاط. بل إنّ حاجَتها إلى العقلِ حين تكونُ عامةً أكبرُ بكثيرٍ وأشدُّ إلحاحاً. والذكاءُ يَفْرِضُ هنا أنْ يتوارَى الفردُ لتَحُلَّ الأكثريةُ محله.

الفتاة : المعروف أن الأكثرية في كل حالة أو موقف تسعى لتصويب نفسها وإعلاء كلمتها، لا لوضوح الرؤية، أو مساندة الحقيقة.

التاريخ : وماذا يعني ذلك؟

الفتاة : أريد أن أقول: إذا توارى الذكاء، صَعُبَ على الأكثرية، وربما استحال الوصولُ إلى الصواب.

التاريخ : لقد اختلطَ عليكِ الأمرُ يا آنسة! المطلوبُ أنْ يتوارى الفَرْدُ في تناولِ المشكلاتِ العامّة ومحاولةِ حلها، لا أنْ يتوارى الذكاء.

صوت : هل للذكاء أن يظهر إلا لدى أفراد؟

التاريخ : هناك مَثَلٌ عربي يقول «أَلْسِنَةُ الخَلْق أقلامُ الحق» ورؤيةُ المجموعِ دوماً أوضحُ من نظرةِ الفرد.

الفتاة : ألا يتأثر المجموع بالمناخ الفكري السائد؟

التاريخ : أجل إنه يتأثر ولكنه يُدْراُ أيضاً أن هذا المُنَاخَ عُرْضَةٌ للتقلّب والتغير وَيَظل حريصاً مع ذلك على معاييرَ أخلاقية.

صوت : هل تظل هذه المعايير ثابتة؟

التاريخ : ليس للمعاييرِ الأخلاقية صفةُ موضوعية في حياةِ الفرد ولا في حياةِ المجتمع لأنَّ الحقيقةَ الموضوعية نفسَها غيرُ كافية لفرضِ نفسِها على المجموع بِمجردِ موضوعيتِها، ومنها حقائقُ العلم، هناك أناسٌ لا يزالون يَجِدُون صعوبَةً في التأكدِ من ثباتِ الشمسِ ودورانِ الأرض حتى في هذه الأيام.

الفتاة : هـذه نقطة مـأسويـة كيف نقنع النـاس إذاً بحقيقـة القانون الأخلاقي وعدالته ونفاذه؟

التاريخ : هناك رأي ذاتي يَنْبَثِقُ عن الرؤيةِ الموضوعية، عنـد البحثِ عن الحقيقة في كل ما دِقَّ وجلَّ، تفـادياً لنقائصِ المعرفةِ الحسية أي لا بد بتعبيرٍ آخر، من إجـراءِ فحوصٍ دقيقـة للوجدانِ أو الضميـر، قبـل الخَوْضِ في مسائلِ الأخلاق ومعاييرها، وعلاقَتِها بالذكاء.

صوت : فهمت من كلامك أن الـذات أساس في فهم كـل موضوع، ولا غنى عن تحـرر الذات، قبـل تلمس الحقائق الموضوعية.

التاريخ : ذلك هو الصواب.

الفتاة : أود أن نخرج من المجردات إلى المحسوسات في بيان هذه النقاط التي أراها مأسوية.

التاريخ : ألا نَجِـدُ في الناسِ من يـدعـو إلى الصـدْقِ وهـو كـاذب، من يَفْتَخِرُ بـالأمـانَـةَ وهـو غيـرُ أمين، من يَحُث على التضحيةِ ولا يُضَحّي؟ من يُمَجِدُ الزُّهْدَ ولا يَزْهَد؟

صوت : هؤلاء كثر لا ينالهم إحصاء.. ولكن.. ما خطب هؤلاء؟

التاريخ : خَطْبُ هؤلاء أنهم يستعمِلون ذكاءَهم أو لسانَهم دون تنبهٍ منهم، لِمَا يدورُ في سرائرِهم. والفضيلة في السريرة، لا في اللسان.

النيات.. والأفكار.

صوت : إذا كانت الفضيلة أمراً منـوطاً بـالسريـرة، ألا يعني ذلك أنها لا تستطيع الظهور، وأنهـا محكوم عليهـا بالخفاء والاختفاء؟

التاريخ : النيـةُ هي التي تَنْطَوِي على الفضيلة - أو الـرذيلة - في سرائرِ أصحـابِها. أي أنَّ النيـة هي التي تَكْسو العملَ ثوبَه الأخلاقي، وللعقلِ أو الفطنة أو الذكاء أنْ يُظْهِرَها في الشكلِ الذي يلائِمُ حقيقتَها. والنيةُ بطبيعتِها خفية، حسنةً كانت أم سيئة.

الفتاة : وكيف لنـا أن نعرفهـا وهي الخفيـة؟ وكيف نستيقن من حسنها أو سوئها؟

التاريخ : كل نيةٍ تتمثلُ في نزعة. وكل نزعةٍ تَحْمِلُ صاحبَهـا على التعبيرِ عن نفسِـه، حتى في الحـالاتِ التي يلجأ بها إلى التَمْويه، واتخاذِ الأقنعة.

صوت : وكيف للمرء أن يعرف نفسه، ويتحقق من نياته؟

التاريخ : لا يستطيعُ المرءُ ولا المرأة أنْ يَعْرِفَ ذاتَه، أو حقيقةَ سريرتِه إلا إذا جَهِدَ وجاهد في معرفةِ العالم، إلا إذا اتصل بالآخرين، وحاول أنْ يَعْرِفَ ما يدورُ في سرائرِهم من خلالِ تعبيراتِهم وأعمالِهم وتصرفاتِهم. ومن ثمة يقارِنُ بين مشاعرِه الخفية، ومعارِفِهِ الدقيقة عن الآخرين.

الفتاة : وكيف يتاح لنا التأكد من صواب معرفتنا بالآخرين؟

التاريخ : من خلالِ الثقةِ بالنفس، أو من خلالِ الحب الذي تُوْلِيه النفسُ للآخرين.

صوت : الحب إذاً، أداة معرفة؟

التاريخ : نعم، وقد يكونُ الأداةَ الفُضْلى للمعرفةِ الصحيحة أو الفَهْمِ الصحيح.

الفتاة : وما هو دور الأخلاق في الحب؟

التاريخ : هذا سؤالٌ قيّم: الأخلاقية صفةٌ تُطْلَقُ على النياتِ والنَّزَعاتِ والأعمال. وهي قوةٌ قادرةعلى قولبةِ الواقع، والتأثيرِ فيه وبالتالي على إظهارِ ما قد يَخْفَى من حقائق.
الحب متصلٌ أوثق الاتصال بنياتِ المحب، وسلوكِ المحبوب فإذا اتجهت نيةُ المحب نحو

الخيرِ والفضيلةِ والتعاون في سبلِ الخيرِ والفضيلة، أفْضَتْ حتماً إلى أحدِ أمرَيْن: إما تحقيقُ ما تَصْبُو إليه أو تحقيقُ بَعْضِه، وإما ازديادُ المعرفةِ بالأحوالِ والظروفِ والبواعث.

صوت : المعرفةِ بالأحوالِ والظروفِ والبواعث؟ وهؤلاء الذين يَعْبَثون ويستهزئون ولا يؤمنون بحب ولا فضيلة ولا معرفة ولا يجدون في الحياة سوى مهزلة سخيفة، أو مأساة أليمة؟ هل من سبيل إلى كبح جماحهم وتدارك ما ينتج عن عبثهم؟

التاريخ : هؤلاء هم الضائِعون أو الضالّون بلغةِ الأقدمين. إنهم يَعْبَثون بِوُجُودِهِمْ وبأنفسهم يستهزئون وإن حَسِبوا أنهم ينالون من غيرِهم.هؤلاء يُقِيمُون على باطلٍ لا يختلِفُ عن باطلِ أولئك الذين أخْلَدوا للخمول، وأَظْهَروا الزُّهْد، وَدَعَوْا إلى التلاشي والاضمحلال فإنَّ وراءَ هذه الألاعيب الخفية قَلَقاً تُحْدِثُه رغبةٌ في الحياة لا يُهَدِّيء من سَوْرَتِها عَبَث ولا يُجْدِي فيها اعتزالٌ أو انطواء.

الفتاة : ولكن ذلك لا يحول دون الضرر الذي ينتج عن عبثهم وهم يهزأون بالحب والفضيلة والمعرفة.

التاريخ : أكرر ما قلتُ: إنهم يَعْبَثون بوجودِهم وبأنفسِهم يستهزئون.

صوت : ألا ترى أنهم مرضى، ولا غنى عن مداواتهم؟

التاريخ : يمكنُ مداواةُ ضحاياهم. أما هم فلا أملَ في هدايتهم، وبالتالي في شِفائِهم.

الفتاة : ما سر هذا اليأس الذي تبديه في شأنهم؟

التاريخ : السر واضح وهو أنَّ أعمالَ الإنسانِ لا يُمْكِنُ بحالٍ أنْ تكونَ أكبرَ من أفكارِه. والعابثون يَصْدُرون عن أفكارٍ هي الحُمْقُ والتفاهة.

صوت : ألا يمكن تغيير الأفكار التي يصدرون عنها في أعماقهم.

التاريخ : تريدُ تغييرَها من الخارج، خارجِ أنفسهم.. فكر. هل يمكنُ ذلك؟

الفتاة : أنت توصلنا إلى موقف فكري يشبه موقف القائلين بالقضاء والقدر.

التاريخ : هناك حالاتٌ لا مفر فيها من الاعترافِ بالقدر.

صوت : هل من مثل تقدمه.

التاريخ : كل حالةٍ يَقِفُ الطب فيها عاجزاً. وتلك هي حالاتُ

الحَمَاقة والتفاهة والغَبَاوة، والسفاهة. وكلها تتداخلُ وتتشابه.

الفتاة : وكيف للمجتمع أن يُخْلُصَ من الحَمْقى والتافهين والأغبياء والسفهاء؟ أنهم هم الذين يَسُدون آفاقَ الرقي والتقدم، ويُعِيقون تطورَ الحضارة وَيَكْمُنُون وراءَ بؤسِ البائسين وعذابِ المعذبين.

التاريخ : هوني عليك يا آنسة ولا يَجْرُفَنَّك الأسى إلى ما لا تَرْضَيْن - الأكثريةُ العظمى من الناس لا تستطيعُ الحياة مع الاعتقاد أنّ الوجودَ بلا معنى أو أنه قائمٌ بلا هدف، مما يَسُوقُهم عاجلاً أو آجلاً إلى البحثِ والتأمل، ثم إلى تشييدِ بُنْيَانٍ ثقافي يُعِينُهم في تَوقِهِم إلى حياةٍ يَحْكُمُها العقل، وَتُنِيرُها الحكمة، وَيَشِيعُ فيها الأدب..

صوت : هذا ما يقوله المتفائلون.

التاريخ : لستُ متفائلاً ولا أنا متشائم. أنا أهتم بالوقائع وألاحظ الحقائق ولو كان الأمرُ على غيرِ ما عَرَضْتُ وبينتُ لما كان الآنَ في العالمِ شيءٌ اسمه علمٌ أو فن أو حضارة.

الفتاة : أنت ترى إذاً أن الحماقة إلى زوال، والتفاهة إلى

بَوَار، وأن الأدب سيتغلب على السفاهة، والحكمة على الغباء.

التاريخ : لم أقل شيئاً من ذلك كلُّ ما أعرِفُ أنّ الحُمْقَ يَقْضي على نفسِه والسفاهةَ أضعفُ من أنْ تستمر في مقاومةِ الأدب وأنّ الذكاءَ يحاصِرُ الغباء والغباء لا يَمْلِكُ أنْ يُطَوِّقَ الذكاء.

صوت : هذا الذي أوضحته الآن يُفْعم النفوس بالغبطة ويحملُ الفرحَ إلى القلوب. ولكن.. كيف لنا أن نحظى باليقين الذي يملأ صدرك في هذا الشأن؟

التاريخ : الفكرُ يا صاحبي ضربٌ من السلوكِ أو السيرةِ الخَفية التي لا يَمْلِكُ الناسُ رؤيَتها. وحين أقول: إنَّ الحُمْقَ يَقْضِي على نفسِه، أفكرُ في عاقبةِ الأحمق، في نتائج حماقتِه. وحين أقرر أنّ الأدبَ أقوى من السفاهة أتصورُ موقِفَ الأديب وهو يَعْرِضُ عن السَّفِيْه، ولا يقابلهُ بالمِثْل. وحين أُبينُ أنّ لدى الذكاءِ وسائلَ تُمَكِّنُه من محاصرةِ الغباء، أتخيلُ الغبي محصوراً في أنانيته أو مَطْمَعِه أو مُبْتَغاه السخيف والذكي يَعْرِفُ مطارحَ انحصارِهِ فيقتحِمُها ولا يُقَيِّدهُ طمعُ أبله أو رغبةُ خرقاء. هل أيقنتَ الآن بما أنا مُوقِن؟

الفتاة : القضيـة كما عـرضتهـا، قضيـة فكـر ولا أثـر فيهـا للتشاؤم أو التفاؤل.

التاريخ : ذلك هو الواقع. يكفي أنْ يفكرَ الإنسان لِيَحِيدَ عن سبيلِ السوء.

صوت : أيكـون أولئـك الـذين يـوقـظون الفتن ويشعلون الحروب جميعاً بلا فكر؟

التاريخ : الفتنة نائمة، لَعَنَ اللهُ من أَيْقَظَها».

السم والترياق

صوت : «الفتنة نائمة. لعن الله من أيقظها». تلك آخر فكرةٍ ذكرتنا بها في آخر حوار. وقد ألقى عليَّ بعضُهُمْ هذا السؤال، لأُلْقِيَهُ بدوري عليك وهو: «من هم هؤلاء الذين يوقظون الفتن النائمة؟».

التاريخ : ألا تعرِفُهم؟.. تحدَّثْنا عنهم قبلَ اليوم.

صوت : هناك من يقول: «فتش عن المرأة» ويحسَب أنها هي التي تُوقِظُ الفتنة. وآخرون يَرُدونها إلى «إبليس» والبعض يتحدث عن «الشيطان». ومنهم من يحسَب الفتنة أخيراً من عمل الفطرة، أو الطبيعة البشرية.

الفتاة : (باضطراب وصخب): أنا أحتجّ ليس للمرأة ولا للفطرة يدٌ في حيل المحتالين ودسائس المنافقين واعتداءات الطامعين. وهؤلاء هم الذين يستهويهم العداء ويستثمرون الشقاق.

التاريخ : ولِمَ الاضطرابُ يا آنسة لم يَقُلْ زميلُك شيئاً مُنْكَراً إنه يَعْرِضُ ما هو شائعٌ في الناس من أفكار وأوهام خُذِيه بِحِلْمِك ولا تُحَمِّلِيهِ أوزارَ غيرِهِ.

صوت : ناقل الكفر ليس بكافر.

التاريخ : هذا حين يكونُ ما نُقِلَ كُفراً. . كيف وهو لم يَذْكُر شيئاً غيرَ معروف. ولا مجهولاً من أحد؟.

الفتاة : (بلطف وهدوء:) وما الرأي في هذا الشائع الذي نقله؟

التاريخ : الرأي عندي أنْ نفتش عن الذين يَدْعُون إلى الصدق وهم كاذبون ويفتخرون بالأمانة وهم غيرُ مأمونين، وَيَحُثون على التضحية ولا يُضَحون وَيُمَجّدون الزُّهْدَ ولا يَزْهَدُون.

هؤلاء هم الذين يُوْقِظون الفتنَ النائمة وهم لا يشعرون.

الفتاة : سمعنا شيئاً من هذا، على لسانك قبل اليوم.

التاريخ : أَجِدُني مُضْطراً لتكرارِ ما أقولُ أغلبَ الأحيان.

صوت : أذكر جيداً موقفك حين بينت لنا أن الفضيلة في السريرة لا في اللسان.

الفتاة : أريد أن تحسم الأمر في شأن المرأة وأثرِها في إيقاظ الفتن النائمة.

التاريخ : أنا لا أَحْسِمُ في أمر، جَلّ أم حَقُر.

الفتاة : أنت على صلة ومعرفة وثيقة بالتجارب. هل تجد في هاتين ما يؤيد القول الشائع: «فتش عن المرأة»؟

التاريخ : هذا القولُ يُلْغي في الحقيقة التي يَشِفُّ عنها كل دورٍ للرجل في مسيرَةِ الأحداث وأحوالِ المجتمع فهل تُصدقين أنّ الرجالَ يَقْبلون إلغاء دورِهم ذاك؟ وإذا قَبِلوا شيئاً من ذلك، هل تَحْسَبِين أنهم صادقون؟ ألا تجدِين عند ذاك أنَّ سرائرَهم تَنْطَوي على خلافِ ما تُظْهِرُ ألسنتُهم؟

صوت : أثلج الله صدرك - لا أعرف أحداً بيّن الواقع من قبل، في هذا الشأن، بهذه الروعة وهذا الإشراق.

الفتاة : وما هو الرأيُ في شأنِ الفِطْرة أو الطبيعةِ البشرية؟ أصحيحٌ أنها تُوقِظُ الفتنَ النائمة؟

التاريخ : هذه مسألةٌ يُمْكِنُ حلُّها بدقةٍ رياضية.

صوت : وكيف ذلك؟

التاريخ : للفطرةِ الإنسانية عمرٌ أوْ عددٌ معين من السنين يتصرفُ الإنسانُ خلالها بوحيٍ الفطرة، أو على الطبيعةِ كما يعبرون، فإذا انتقَلَ بعد ذلك العمر إلى وضعٍ آخر يتضاءَلُ فيه أَثَرُ الفِطرة أو يَتَوارى وأَمْكَنَ تَبَيُّنُ ما هو من شأْنِ الفطرة وما هو من شأنِ غيرِها أو نقيضها هل من اعتراضٍ على هذه المُعْطَيَات الواقعية؟

صوت : لا . . .

التاريخ : وأنتِ أيتها الفتاة. هل لديك اعتراض؟

الفتاة : لا . . . :

التاريخ : لننظرِ الآن إلى الفِتنة كيف تنامُ وكيف تستيقظ. . حين يَنْصَرِفُ الكائنُ البشري إلى عملٍ يطمئِنُّ إليه وَيَرْضَى عنه أو إلى كائنٍ آخر يألَفهُ ويشعرُ بالأُنس في مشاهدتِه وعِشْرَتِه تكون الفتنةُ في هاتَيْن الحالتين - وسائر ما يُشْبِهُهما - نائمة، لأنَّ ارتياحَ العاملِ إلى عملِه كأُنس الأليفِ بأليفِه، يَرُدُّ قوى الشر إلى حالٍ من الغَفْلة ويجعلُ غرائزَ الفرد سائرةً منسجمةً في سياقِ الرضا والأُلفة حتى إذا أُتِيحَ لكائنٍ آخر أنْ يقومَ بعملٍ يهدِفُ إلى الحد من تنامي غيرِه في عالمِ الأُنسِ والرضا

والألفة، أو عرقلةِ تطورِه في هذه المجالات، اندلعت في الجو النفسي مظاهرُ ارتباكٍ وسُخطٍ ونِقْمَة. وهذه تحرك الشر، وتعطلُ الانسجام، فتستيقظُ الفتنة.

صوت : وأين هو الحل الرياضي لعلاقة الفتنة بالطبيعة البشرية أو الفطرة؟

التاريخ : هل يُتَاحُ لامرىءٍ أو امرأةٍ على الفِطرة أنْ يَحُدَّ من تنامي غيره، أو يعرقلَ تطورَه؟

الفتاة : لا أتصور أن في استطاعة فطريّ أو فطرية القيام بعمل معقد كهذا.

التاريخ : وأنتَ؟ ماذا ترى؟

صوت : أرى الشيء نفسه الذي عرضته الآنسة.

التاريخ : إيقاظُ الفتن «صناعةٌ» تحتاجُ إلى خِبْرَةٍ وتدريبٍ ومِراس وقدرةٍ على الملاحظةِ والتصور، وعاملُ الوقتِ فيها أساسي، وهذه كلها مما لا يتأتى للبسطاءِ والساذَجين والفِطريين، بل إنَّ هؤلاء يشكلون عادةً ضحايا الفتن ومُوقِظِيها.

الفتاة : الفتنة إذن كما صورتها لنا، دخيلة على النفس والحياة، يوقظها دخلاء على المجتمع وأبنائه، أو

بعضِ أبنائه. فكيف نتحاماها ونتفادى شرها؟

التاريخ : المهم في تحامي الفتنة أنْ يَظَلَ كلُ عاملٍ منصرفاً إلى عمله وأنْ تَظلّ الأُلفة، أو المودة هي الرَحَى التي تدورُ علاقاتُ الناس عليها، فيما بينهم.

صوت : أجد هذه الوصفة نظرية أكثر مما هي عملية، فإن إنصراف الناس إلى أعمالهم وتحويلَ الألفة فيما بينهم إلى رَحَى تدور عليها علاقاتهم أمران لا يتحققان إلا بالانصياع لسلطة واعية، قادرة، ناشطة وكثيرة هي الحالات التي يفتقد بها المجتمع مثل هذه السلطة.

التاريخ : هناك أسلوبٌ آخر. يستطيعُ قلةٌ من الموهوبين اعتمادَه في بعضِ الحالات، على أن يبقى سراً دفيناً. أتعرِفُ راكبَ الأسد؟

صوت : لا... من هو هذا؟

التاريخ : هو ذاك الذي قِيلَ في شأنه: يهابُه الناس، وهو لمركبِه أَهْيَب.

صوت : إلى ماذا يؤدي ذلك الأسلوب الذي يشبه صاحبه راكب الأسد.

التاريخ : ذلـك أسلوب يتحولُ بـه السم ألى تِرْيـاق، وتدمـرُ الفتنةُ من خلالهِ القائِمين بها .

الفتاة : إنه لشائق وطريف وممتع .

التاريخ : نتحدث عنه في حوارٍ مقبل .

النضج والأزمات الاجتماعية

صوت : أعجبني آخر ما سمعت منكَ حول الفتنة وتحويل سُمّها إلى ترياق. أودّ أن تشرح، وتُفيض في شرح هذه الناحية، فقد وجدها الذين سمعوا بها، غايةً في الطرافة والجاذبية.

التاريخ : ليس لأي إنسانٍ أنْ يُوفَّق إلى النجاح في ذلك التحويل، فهذه طريقةٌ لا يُحْسِنُ السيرَ بها غيرُ الموهوبين، من ذوي الذكاءِ الخارق، والسريرةِ المتناهية في نقائِها وصفائِها.

الفتاة : ولكنها على جانب كبير من الإغراء، انا أقضي ساعات الليل والنهار في هذه الأيام وذهني عالق بها.

التاريخ : المبدأ الجوهري في هذا التعليم أن يتجنبَ المرء ـ والمرأة ـ كل قوةٍ خطرة، والامتناع حتى عن معارضتها مُباشرةً بل يسعى لمسايرتها وإظهارِ الرغبةِ

في الاندماجِ بها، وهو يعملُ في الوقتِ نفسه على التخلّصِ منها، أو التغلّب عليها.

صوت : هل ترى أن في الإمكان تحويلُ كلِ سُمٍّ إلى ترياق؟

التاريخ : نحن نتحدثُ عن سُمِّ الفتنة، فلنحصُرْ جَهْدَنا الفكريَّ فيه الآن. ولنا أنْ ننظُرَ من بعد، في غيرهِ من السموم.

الفتاة : وكيف نبدأ؟ لقد شاقني هذا الموضوع كثيراً، وما زلت أتساءل كيف نبدأ؟

التاريخ : نبدأ بالملاحظةِ والتحليل: الذين يَعْمَلُون للفتنة يَسْتَخْدِمون قُوَىً تخالِفُ القانون الأخلاقي وتغري الناس، أي بعضَ الناس، بالانصراف إلى الأذى، والإزراءِ بالأدب، والاستهزاءِ بالحكمة، والتحوُّل عن العقل، واللجوء على مراحلَ إلى العنف، حتى يَعُمَّ وينتشر وتنتشرَ معه الفوضى، ومع الفوضى تَسُودُ الإشاعاتُ الكاذبةُ والدعاياتُ الفاسدة، والتآويلُ المُغْرِضة.

صوت : هذا مخيف.

التاريخ : هذا هو تحليلُ الفتنة. أو ردُّها إلى عناصرِها الأولى. أصحيح ذلك؟

الفتاة : كل الصحة . .

التاريخ : ما دام التحليلُ صحيحاً، لِنشْرَعْ في المداواة: أولاً: ترك القانونِ الأخلاقي يأخُذُ مجراه، وسير الحياةِ يبلُغُ مداه. ثانياً: لِتَكُنْ أُولى المحاولات في كف الأذى عن الناس، وذلك بكشفهِ وإظهار فاعلهِ فالمؤذي يَجْهَدُ في التخفي والتستر. ثالثاً: كل فتنة تُفْرِزُ الأبرياء من الناس وَتَحْمِلُ هؤلاء على الهربِ من الفساد واعتزالِ الشر، والاكتفاء بالسلامة. رابعاً: اللواذ بالصمت، وبذلُ العون للضحايا.

صوت : وكيف ينقلب السمُّ إلى ترياق؟

التاريخ : بالصمت، وبذل العونِ الصامت.

الفتاة : هذا في منتهى السهولة.

التاريخ : يبدو سهلاً. ولكنه في منتهى الصعوبة!

صوت : وما السرّ في صعوبته؟

التاريخ : الذين يُدَبِّرون الفتنة، أيّ فتنة، يَحْسَبون أنهم أذكياء، وَيُنَظِّمون تحركاتِهم على نحوٍ يَرْسُمون به

لكـل فردٍ غـايةً وأسلوبـاً، يستمِدونَهـا من سيـرَتـهِ ومعرفتِهم بأحوالِهِ، وقليلاً ما يبتعِدُون عن الواقـع، أو ظاهرِ الواقع على الأقل، فلا يملِكُ مقاومةَ هـذه الكتلة المنـظمـة، سـوى شخصيـة منـظمـة في فرديتِها، واعية من نفسها، عـارفةٍ مـا تريـد متيقظة لما يُرَادُ بها، ذلك هو سِرُّ الصعوبة.

الفتاة : لا أرى سراً إلا في أن يعرف الإنسـان، امرأة كـان أم رجلاً، ما يراد به.

التاريخ : الأهمُّ يا آنسة أنْ يعرِفَ ما يريد.

صوت : هنـا تنطرح قضيـة التحرر الفـردي. كيـف تنظر إلى هذه القضية؟

التاريخ : تحرُّر الرجل غيرُ تحرُّرِ المرأة.

الفتاة : لِمَ كان ذلك؟ ومن أين يَرِدُ الفرق؟

التاريخ : الفـرقُ بين تحررِ الـرجل، وتحـررِ المرأة يَنْبُعُ من اختلافِ الغايةِ التي يَسْعَى إليها كلّ منهما. ولهذا، كانت معرفـةُ الإنسان مـا يريـدُ، أهمَّ من معرفـةِ ما يُرَادُ به.

الفتاة : هذا شأن يحتلُّ أوسعَ رقعة من اهتمامي وتفكيري،

ولا أستطيع إلا أن أُلحّ في إضاءة كل جانب من جوانبه.

التاريخ : ليس التحرُّرُ مما يُنال بنَبْذِ الممتلكات وتجنُّب الآلام، والصُّدُوفِ عن مكامنِ الشر ومصايدِ الغِوايات والأمجاد، فإنَّ مثلَ هذا التخلّي الشامل عن متاعب الحياة يُوقِعُ صاحِبَهُ في عبودياتٍ أشدَّ مرارةً وقسوة. التحرر عمليةُ اندماجٍ في الكون. والمرأة لا تستطيعُ أن تَجِدَ لحياتِها قيمةً إلا بهذا الاندماج لأنها هي التي تقومُ بإنماءِ الإنسانية، على كل صعيد.

صوت : لا تملك المرأة أن تتحرَّر إذاً، من أنوثتها.

التاريخ : لك أنْ تَقِيْسَ وتقارن: هل تجدُ صلاحاً في تحررِ الرجلِ من رجولتِه؟

صوت : أنا لم أقل شيئاً من ذلك، بل أشجبه وأُنكر أن يكون «تحرُّراً».

التاريخ : أردتُ صَرْفَ انتباهك إلى القياسِ والمقارنة.

الفتاة : قد يكون الخطأُ في استعمال الكلمات «التحرر من الأنوثة» أو «التحرر من الرجولة» فالأنوثة ليس غِلّاً للمرأة أو قيداً، وكذلك الرجولة للرجل.

التاريخ : الخطأ في استعمال الكلماتِ أكيد، وشائعٌ في هذا العصر. ولكنَّ الخطأَ الأكبرَ قائمٌ في التصوُّر، فإنَّ تصوُّرَ المرأة، مجرَّدَ تصوُّرِها، أنْ تَخْلُصَ من كينونتِها الأنثوية ـ وهذا ما شاعَ في بعضِ الأوساطِ الحديثة ـ يُسِيءُ إلى الحياةِ نفسِها، ويعطِّلُ دورَها في الحضارة، أي يعطلُ الحضارة برمتِها، وفي أساسِها.

صوت : وكيف نقاوم هذه النزعات وأمثالَها التي أحدثت، ولا تزال تُحدث بلبلةً في العقول والأعمال والأدوار؟

التاريخ : هذه النَّزَعَاتُ الضارة تُقَاوَمُ بالرجوع إلى فكرة «النضج»، وهي الفكرة التي أَهْمَلها المعاصرون إهمالاً يُوشِكُ أنْ يكون تاماً. هناك نُضْجٌ في الأنوثة، ونُضْجٌ في الرجولة. ونتيجته لدى الطرفَيْن واحدة: القَبُول بالواقع، والانطلاقُ منه نحو الأفضل، والتطلعُ المستمر إلى زيادةِ المعرفة والتعمّقِ في الحس الإنساني.

الفتاة : معنى ذلك أن النضج يلغي الفروق بين الجنسين.

التاريخ : هناك نساءٌ يُظْهِرْنَ في الأزماتِ من الرجولة، ما لا يَظْهَرُ لدى معظمِ الرجال، والسبب في ذلك نضجُهن. وهذا ما نعود إليه في حديثٍ مقبل.

الفتاة : عرفنا الكثير عن الأفكار والنيات، ودرسنا التعبيرات والنزعات، وكان النضج آخر ما تيسر لنا البحث فيه. ولكن الشأن الطاغي من شؤون النفس، أعني به الرغبات وعلاقتها بالأعمال التي نؤديها، ظل غريباً عن أحاديثنا. كيف يمكن أن نرغب في شيء ولا نسعى للحصول عليه؟

التاريخ : هذه أيضاً مسألةُ نُضْجٍ وَفَجَاجَة. يقول الشاعر:

لا تطمحنَّ إلى المراتبِ قبل أنْ
تتكامَلَ الأدواتُ والأسبابُ

والذين يَرْغَبون في مكاسبَ ومراتبَ ومناصب دون إعدادِ أنفسِهم لها، وتهيئةِ الأدواتِ والوسائلِ التي تتحققُ بها، يَدُلّون بذلك. على فَجَاجَةٍ وسوءِ فَهْم.

صوت : العلماء يؤكدون ولديهم أدلّة لا تُدْحض، على

وجـود علاقـة وثيقة بين رغبـات الإنسان وأعمـاله، بين الأشيـاء التي نتعلق بها والمهمـات التي نؤديها للحصول على تلك الأشياء.

التاريخ : هذه حالاتٌ وأوضاعُ أعرِفُها، وأعرِفُ آراءَ العلمـاءِ فيها ولا بُدَّ من تفسيرٍ لكل امتنـاعٍ عن العمل مـع توافرِ الرغبة فِي النتـائجِ المُفتَرَضَة لـه أو المؤكدة. بَيْـدَ أنَّ تفسيرَ الفعـلِ بالـرغبةِ وحـدَها، أو الإرادة وحدَها، يَظَلُّ موضعَ جدلٍ ومَثار شك.

الفتاة : أود أن أكون أكثر واقعية، وأقرب الى المحسوس. هؤلاء الذين يرغبون مثلاً في «السلام» ولا يسلكون السبل التي توصل اليه، مـاذا ينقصهم، النضج أم الفهم، أم الفهم والنضج معاً؟

التاريخ : هـذا موقفٌ سليم، والأسئلة التي طَـرَحَتْها الآنسـة جـديرةٌ بـأكبرِ قَـدْرٍ من الاهتمـامِ والتفكيـر، وهنـا يَجِبُ التمييزُ بين الرَّغْبَةِ الصادقة الثابتة الراسخة في السلام، والرغبـة الكاذبـة، الرَّجْـرَاجة، المتقلبـة، لأنَّ السلامَ حالةٌ يَفيدُ منهـا الكاذبُ لتغـطيةِ نيـاتِه، ومراجعةِ أفكـارِه وإعادةِ النـظرِ في حسابـاتِه، فـإذا أَبْـدَى رغبـةً في هـذه الحـالـة دون سعي جـادّ في

السُّبُلِ التي تَوَصَّلَ إليها، أو اعتمادٍ للقواعدِ والأسسِ التي تُبْنَى عليها، ظَلَّ نُشْدَانُهُ للسلام، أو مناداتُه به، ضَرْباً من الخِداع.

صوت : الخِداعُ على أنواعهِ أَنَّى تَمَثَّل، وكيفَ تمثَّل، علامةُ ضَعْفٍ، وشعورٍ خفي بهزيمةٍ مقبلة، وهو يَلْبَسُ على الدوام ثوبَ المسالمة.

الفتاة : أفهم من ذلك أن الرغبة في شيء يمكن أن تكون سبباً ومبرراً في آن واحد.

التاريخ : ذلك يتوقفُ على الشيءِ المرغوبِ فيه، وأحوالِ الراغبِ وظروفِه.

صوت : وما القول في تصادم الرغبات واختلاف الراغبين؟

التاريخ : لا غنى عن الإشارة فِي هذا المَقَام إلى أنّ المرغوبَ فيها من المعاني المجردة كالحب، والألفة والكرامة، والسلام، والنزاهة، تتلاقى جميعاً ولا تتصادم، حين تشكل «حوافزَ» حقيقية للأعمال.

الفتاة : فإذا تعارضت التطلعات أو تصادمت في النفس أو المجتمع؟

التاريخ : إذا تعارضتِ التطلعاتُ الخَيِّرَة لتلك المعاني، كان الذكاءُ هو المُلام.

صوت : لا قيمةَ لرغبةٍ إذاً، مهما سَمَت أو نَبُلَتْ، إلا بالذكاء.

التاريخ : الذكاءُ عنصرٌ يتمتعُ بسلطانٍ عجيبٍ في مجالاتِ الحوافزِ وإظهارِ الفضائل وتوجيهِ الرَّغَباتِ وتحقيقِها، وليس للحب مثلاً أو للسلامِ أو للكرامة، أنْ تَبْلُغَ شيئاً من أهدافِها، أو تتمثلَ في الحياةِ العملية إذا لم يُسَيِّرْها الذكاء، وَيُشْرِف على خطواتِها.

الفتاة : لن تكون التربية فعّالة إزاء هذه الحقيقة الأخيرة التي كشفَتها لنا، إلا إذا انصرَفَتْ لتنمية الذكاء.

التاريخ : هذا استنتاجُ خاطىء.

صوت : كيف يكون خاطئاً، وقد بيّنت على نحو حازم وحاسم أن السلطان للذكاء في بناء الحياة النفسية؟

التاريخ : الأمرُ يختلفُ من زاويةِ التربية. أنا لم أقررْ أنّ السلطانَ كلَّه للذكاء. وأعودُ فأُذَكِّرُ بالمبدأ الذي أشَرْتُ إليه مِراراً وتكراراً وهو أنّ الإنسانَ وَحْدَةٌ

روحية متكاملة لا تتجزأ بين ذكاءٍ وعاطفةٍ وإرادة، أو بين فهمٍ وفِطرةٍ ونشاط.

الفتاة : ولكنك قررت أن الذكاء ذو أهمية كبرى.

التاريخ : هناك إجماعٌ لدى المفكرين المُحْدَثين، على أنّ الأهم في تربيةِ الإنسان ـ وهو غيرُ المهم ـ أنْ يتلقنَ فنَّ الحياةِ مع أمثالِه من الناس دون عِراكٍ أو مشاجرة، أي دونَ انسياقٍ مع بواعثِ الحِقْدِ وحوافزِ العَدَاء، ودواعي التسلط والرغبة في التفوق.. هذا وضعٌ تربوي أهم بكثيرٍ من الإحاطةِ بجغرافية القطبِ الشمالي مثلاً والتوسع في معرفة الفن المِصري القديم، وحل المعادلاتِ الجَبْرية، من الدرجةِ الرابعة والخامسة.

صوت : لا سبيل إلى الاعتراض على ذلك.

التاريخ : وثمة ما هو أهم، أي أُسُسُ التلقّن لفن الحياة، وهي أنْ يَظَل الإنسانُ سليمَ البُنْيَة، منيعاً بعقلِه وجسدِه متوازناً في تفكيرِه وشعورِه، عارفاً بقواعدِ السلوكِ الآيلة إلى تلك السلامةِ والمَنَعَة والتوازن الدقيق متحفزاً لتطبيقِها، مراعياً في ذلك الظروفَ والمُناخاتِ وتقلباتِها.

الفتاة : وماذا بعد؟

التاريخ : ها نحن نَصِلُ إلى العُقْدَةِ الكبرى وهي أنْ يستمر الكائنُ البشريٍ على جانبٍ من الكفاءةِ العملية تُتيحُ له أنْ يُشَكِّلَ حجراً مَكِيناً في بُنْيَانِ المجتمع كما عبّر أحدُ المفكرين، فإنَّ معنى الحياةِ الحقيقي لا يَكْمُنُ في الذكاء، بل في الشعور.

الفتاة : أصبحنا على التحقيق، في حيرة: أنت مع الذكاء طوراً، وطوراً آخر مع الشعور، ولا ندري أي السبيلين نسلك.

التاريخ : كل الذين يَنْظُرون إلى التاريخ من زاويةٍ واحدة يَقَعُون في حَيْرَة، شأنُهم بذلك، شأنُ الناظرين إلى الحياة والطبيعة.

صوت : أودّ أن أعرف بعد كل هذا الذي سمعناه عن فن الحياة، والكفاءة العملية، هل تعدّ العلماء في عداد الأذكياء؟

التاريخ : العلماء الذين يَنْقُصُهُم الشعورُ الإنساني ليسوا أذكياء إنهم يُشْبِهون الأولادَ الذين يَجْعَلُون الحياةَ لآبائِهم عِبْئاً لا يُطَاق، بما يُظْهِرون من أنانيةٍ وعقوقٍ وقِصَرِ نظر.

الفتاة : أي فئات المجتمع تحظى بإعجابك ورضاك؟

التاريخ : الشاعرات والشعراء.

صوت : بماذا يتميّز هؤلاء؟

التاريخ : هؤلاء أقربُ إلى الحياة من العلماء.

الحكمة والبطولة

صوت : تساءل أحد المفكرين عن الفيلسوف: من هو؟ وكان جوابه أنه إنسان يعارض الطبيعة بالقانون، والعرف بالعقل، والرأي العام بوجدانه، والخطأ بحكمه. ونحن لا نجد لديك شيئاً من ذلك. هل تعتبر نفسك فيلسوفاً أم عالماً أم شاعراً؟

التاريخ : العِبْرَةُ بالواقع، بما جَرَى وما يَجْرِي. والقيمةُ للأعمال وليست للاعتبارات. ومهمتي تتلّخصُ في عرضِ الوقائع، وبَيَانِ التجارب، ولا أتجاوزُ هَذَيْن: العَرْض والبَيَان بحالٍ من الأحوال.

الفتاة : كان من رأيك في آخر حديث جرى بيننا أن الشعراء أقرب إلى الحياة من العلماء. ألا ترى أن عرضَ الوقائع وبيانَ التجارب التي تتلخصُ مهمتُك بهما، أشياءُ يهتم بها العالم والشاعر والفيلسوف على السواء؟

التاريخ : يختلِفُ التأثرُ بالوقائع أو الأحداث، كبيرةً كـانت أم صغيـرةً، حَسَبَ الأمزجـة والأذواق والاتجاهـات أو النَّزَعات، فـلا غَرَابـة إذا حَظِيَتْ بـاهتمامِ الشـاعرِ والعالمِ والفيلسوف أما التجارب فإنها أنـواع: منها الآلية ومنها الطبيعية ومنهـا الحيَّة. التجـاربُ الآلية هي التي يقومُ بها الإنسان على آلة، أو تَصْـدُرُ عن آلة. والطبيعية هي التي تصدُرُ عن الطبيعة. وتتمثلُ بشكـلٍ طبيعي. أمـا الحيّـةُ، ومنهـا التجـاربُ الإنسـانيّـة، فهي من شـأنِ الحيـاة، والنفس التي تعاني الحياة أو تتمرسُ بها.

صوت : لم توضح لنا بعد أفضلية الشعراء على العلماء؟

التاريخ : أنا لا أقولُ بأفضليةِ فئةٍ على فئة. كـل الذي بيّنتـهُ أنّ الشعـراءَ أقربُ إلى الحيـاةِ من العلماء. وذلـك واضحٌ لا يَنْطَوي على ذَرَّةٍ من إبهـام: الشعـراءُ الحقيقيـون أذكياء، وشعـورهُم الإنسـاني مُرْهَف، ولهم خيـالٌ وعقـلٌ يُصَرِّفُ الخيـال ويتحكمُ بـه. والشعـراءُ يحِبّـون المرأةَ إجمـالاً ويـأْنَسُـون بهـا، وَتأْنَسُ بهم، وَيَفْرَحُون بما تُوْلِيهِم من قلبِها وعقلِها ونشـاطِها، وهي من جـانبِهـا تفرحُ بهم وتستجِيبُ لتطلعاتِهم الإنسانية والأدبيّة، مما لا نَجِدُ له مثيلاً،

على الدرجةِ نفسِها لدى غيرِهم. ذلك هو الواقع ولا شيءَ غيرُه.

الفتاة : ما من أحد يسمع هذا الإطراء ويخالجه شك في انحيازك للشعراء.

التاريخ : عجيبٌ هذا الأسلوبُ في الفهم. ألم تنظري إلى كلماتي الأخيرة؟.

صوت : ذلك هو الواقع، ولا شيء غيره.

الفتاة : إذا أخذنا بهذا الواقع، وَنَفَذْنا إلى أعماقِه، أمكنَ التعرُّف إلى البطولة، والقداسة والحكمة.

التاريخ : نعم، ذلك ما قصدتُ إليه من بعيد.

صوت : (يخاطب الفتاة): وكيف خَلَصْت إلى هذه النتيجة؟

الفتاة : أحسَبُ أنك لم تستوعب أغوار الكلام الذي قيل عن الشعراء.

التاريخ : ما من فتىً ألا وهو شاعرٌ بمعنىً من المعاني، ولكن على طريقتِه الخاصة، وهو شأنُ كل فتاة.

صوت : أرجو إيضاح هذا الذي تقول.

التاريخ : الشعر ـ وهو أرقى الفنون وأوسعُها انتشاراً ـ يتحيَّزُ في العاطفةِ والخيال، ويزدهِرُ بالخبرةِ والمعرفة،

وينمو بنمو العقل، وَيَرْقى بـرقي الإحساس العـام في المجتمع، ذلك هو جوهـرُه، أو لُبُّه إذا شئت. وكل من رَقَّتْ عاطفته، واتسَـعَ خيالـهُ، وأفـادَ في نفسـهِ من اختباراتـهِ، وتكدَّسَتْ في ذهنـهِ تأثـراتـهُ وملاحظاتـهُ، وأَعْمَـلَ العقـلَ في تحقيقِ رَغَبَـاتِـهِ، وتوجيهِ تصرفاتـهِ وتحركـاتهِ، كـان شاعـراً، ولو لم يَنْظُمْ بيتاً واحداً من الشعر.

صوت : هذا كشف رائع لما هو قـائم تحت القشور الأدبية والفنيـة. ولكن أين هي البـطولـة، والقـداسـة، والحكمة من ذلك كله؟

التاريخ : البـطولةُ مقـاومـةُ لمصـادفـاتٍ طُمِسَ معهـا الحق، وَتَوَارَتِ العدالة وبدا بها الباطلُ في موقِعِ انتصار، والقـداسـة إيمـان وتغليبٌ للحقيقـة على النفس، وتـطلعٌ إلى تعميمِ الإيمـانِ والغَلَبَـة على النفس، والحكمـة مـوقفٌ أو جُمْلَةٌ تتمثـلُ بهـا الفضـائـل، وتـزولُ عنهـا الشُبُهَـاتُ والتـأويـلاتُ الفـاسـدة أو المُغْـرِضَـة. وهـذه كلهـا: المقـاومـة، وتغليبُ الحقيقة، والمواقفُ السليمة، نِتَاجُ شعـورٍ صادق، وخيـالٍ سـديـد، وحب صحيـح، وعقـلٍ راجـح وسريرةٍ صافية.

الفتاة : الأمر الذي لم أوفق بعد إلى إدراكه، هو قلة هؤلاء الحكماء والأبطال والقديسين أو ندرتهم في كل عصر ومصر، رغم اقتناعي بصحة ما بينت وأوضحت من أن كل فتى ينطوي على شاعر وكل فتاة على شاعرة.

التاريخ : الواقع أنّ تحقيقَ الذات عمليةٌ تتّسِمُ بالعُسْرِ والتعقيد، لأنَّ لها عدةَ وجوهٍ نفسية واجتماعية مترابطة متداخلة. . البطل يسيرُ وَفْقَ نَغَمٍ روحي خاص به، يَهز قرارته، ويضعُه وجهاً لوجه أمامَ مصيرِه الذي غالباً ما يكونُ مأسوياً، ولكنه يَجِدُ مِتعةً في الاستجابةِ لهذا المصيرِ المؤلم، وسروراً في مغالبةِ الظروفِ القاسية، ولا يُذْعِنُ أبداً لامْلاءَاتِ المجتمعِ من حولِهِ، حتى ليبدو في كثيرٍ من تصرفاتِه شاذاً، أو غيرَ منطقي، وأحياناً مغايراً لما يعتبِرُه الناسُ رُشْداً أو أدباً.

صوت : والحكيم؟ ألا يخالف البطل في سيرته؟

التاريخ : الحكيم والبطل يلتقيان عند نقطةٍ مهمةٍ وخطيرة، هي أنّ كليهما يَسْعَيَان وراءَ غايةٍ واحدة: إعادة تشكيل المجتمع، وتغييرِ المُناخ الذي يُهَيْمِنُ على

عاداتِه وتقاليدِه وأحوالِه النفسية.

الفتاة : وأين يفترقان؟

التاريخ : في الأساليب والطرائق.

صوت : بماذا تتميز البطولة عن الحكمة؟

التاريخ : البطولةُ عكسُ المقامرةُ، الأولى ثورةٌ على الظروف، والمصادفات، والحظوظ، والمقادير المفضية إلى المَذَلّة والهوان، والثانية، أي المقامرة خضوعٌ لقدرٍ مُعين، وانصياعٌ للمصادفة، واتكالٌ على أوهامٍ يسمّونَها الحظوظَ وحُسْنَ الطالعَ، وما أَشبه من تصوراتٍ لا ظِلّ لها من حقيقة. أما الحكمة فإنها تتوضّحُ أيضاً ببيانِ أضدادِها كالحماقة، والرعونة والتسرع وفرضِ الرأي والنفس، علي الواقع، أي أنّ الحكيم يبتعِدُ عن رَغَباتِهِ وأَمانِيه ومطامِحِه، تاركاً للحقائقِ مجالها الذي تتحركُ فيه إلى أنْ تَبْلُغَ مداها، ثم يعمل، وهو مطمئنُ البال، على تحقيقِ الأحلامِ التي تراوِدُ البطل.

الفتاة : وكيف يكون الإنسان قديساً؟

التاريخ : حين يَمْـزِجُ الحكمة بـالبطولـة، وَيُوَفِّقُ بين مقـاومةِ القَـدَر والتغلّب على الصعـاب، والاستهـانـة بـالعذاب، والهـدوء في متـابعـةِ الحقـائق وإرشـادِ الناس، والتخلّص من الحَمْقى والأغبياء.

تحقيق الذات

الفتاة : القضية المهمة التي أثرتها في حوارنا الأخير، وحسبتها عمليةً تتسم باليسر والتعقيد، كانت «تحقيق الذات»، فهل لك أن توضح هذه القضية، وتبيّن لنا عسرها؟

التاريخ : لا غنى قبل الخوض في تحقيق الذات، عن التعمق في كثيرٍ من الموضوعات التي يكتنفها الغموض، ولم تجد بعدُ السبيلَ إلى التفكير العمليّ في عقول الأكثرية من الناس، فلا بُدّ من دراساتٍ مبدئية للعلاقة بين الحياة العاطفية والسلوك العملي، ثم للمشكلة الأخلاقية وطرائق حلها، وتنازع الواجبات فيما بينها، وتوزع النفس بين فكرة وعاطفة، إلى آخر ما يشبه ذلك . . .

صوت : لا أزال أحفظ كلمةً كنت، وما زلت، تردّدها على مسامعنا: يهمني أن لا يضيع الإنسان بين الكلمات

ومعانيها. وقد طرحت الآنسة موضوعاً محدّداً هو «تحقيق الذات»، فلنحصر حديثنا فيه!

التاريخ : أشارت الآنسة في بدءٍ من كلامها إلى العسر والتعقيد في هذه العملية، فلا يمكن حصر الحديث فيها، قبل الاطلاع على عناصر تكونها. ودعك من سيرها، وتطوراتها، والعراقيل والمصاعب التي تحدّ من انطلاقها، والمضيّ فيها. نحن في هذه الحال أشبه بجماعةٍ تزمع السفر إلى مكان مجهول، فلا ندحة عن اتخاذ الاحتياطات اللازمة، والتزوّد بكل ما نحتاج إليه، درءاً للأخطار، وتحسّباً لما يصيبُنا أو يُحتملُ أن يُصيبنا أثناء المسيرة.

الفتاة : نحن نعتمد على خبرتك ومعرفتك. ألا تكفيان في رحلةٍ كهذه؟

التاريخ : العارف بمكان الماء يدلّك على الحبل، والدلو، والبئر، فلا تكلفه أن يسقيك، حتى ولا أن يستقي لك! أنت الظامىء، وعليك أن تشرب، ولا يسعفُك أو يرويك أن يشرب لك غيرك!

صوت : هذا صحيح! نترك لك أن تدلنا وتقودَ خطانا،

ونعـدُك أن نؤدّيَ كـلّ مـا تـطلبُ إلينـا أداءَه من أعمال! أين نبدأ؟

التاريخ : كل قيادةٍ تحمل للمقودين ثماراً جمةً إلا في تحقيق الذات، فهي ضئيلة. وكل دليـل ينفع مـدلوليـه إلا في هـذه الحالـة التي يظلّ بهـا نفعُهُ قـاصـراً، لأن الـذات وحدهـا تعرف ذاتهـا أكثر من أي قـائـدٍ أو دليل!

الفتاة : لا نريدك أن تستقيَ لنا، ولا أن تسقينا. أين نبـدأ؟ أو كيف نبدأ؟

التاريخ : الظاهر أن تحقيق الذات يبدأ بتحقيق السيـادة على النفس، فالذي يخضع لهوى من الأهـواء، أو يغلّه حقدٌ من الأحقاد، وتستولي عليه رغبةٌ، أو لذةٌ، أو كآبةٌ، أو حالةٌ لا يملك لنفسه منها فكـاكاً، يصبح عاجزاً عن تحقيق ذاته.

صوت : علينـا أن نتحرر إذاً، من العبـوديات النفسيـة، في أول منزلة!

التاريخ : ذلك هو الظاهر!

الفتاة : أراكَ تصـرّ على كلمة «الـظاهر» في هـذا المقـام. فهل لذلك من سبب؟

التاريخ : نعم! هناك سببٌ جوهري، هو أن استئثار معنى من المعاني بقوى الحياة والنفس، يضعف النفس وحياتها، إذا تحوّل إلى هوى يوجّه حركاتها وسكناتها، والهوى لا يختلف عن العبودية، حتى عندما ينصرف إلى ما هو مرغوب فيه.

صوت : لا أرى أين يكمن الخطر في الحب مثلاً، أو الولع بالحكمة، ولو تحوّل إلى هوى!

التاريخ : كل مبالغةٍ تسيء... يُخشى أن يهدِمَ الحبُّ شخصيّة المحب إذا لم يرافقه فهمٌ للظروف وإدراكٌ للواقع، ويُخشى أن تنقلب الحكمةُ إذا بولغ في التمسّك بها، إلى ما يشبه الحماقة أو التفاهة.

الفتاة : وكيف يتاح للمرأة مثلاً أن تحقق ذاتها إذا هي احتاطت لكل ظرف، وتشدّدت في الصمت عما يخالجها، خشية أن تقع في المبالغة، أو سوء الإدراك للواقع؟!

التاريخ : لا تخافي على المرأة من هذه الناحية! إنّها أقدر من كل عالم وباحثٍ وفيلسوف، إذا هي - أقول «إذا» - أصغتْ لقلبها، وحكمت بصيرتها، في جميع أمورها.

الفتاة : ولكنّها معرّضةٌ للضياع والانخداع في كثيرٍ من الحالات.

التاريخ : إذا هي ضاعت أو انخدعت، كان معنى ذلك أنها لم تصغِ إلى قلبها، ولم تحكّم بصيرتها.

صوت : أنّى لصبيّة في الخامسة عشرة مثلاً أو السادسة عشرة، أن يكون لها قلبٌ يُصغى إليه، أو بصيرة تتحكم؟!

التاريخ : أخطاء البشر في هذا الشأن لا تحصى. وقد آن لهم أن يعرفوا أن الوعي يحتاج إلى وقت، وأن المرأة لا تختلف أبداً عن الرجل من هذه الناحية، وأن الزواج ينطوي على مهمات وتبعات لا يمكن أن يقوم بها، من قلّ وعيه، إلى أي جنس انتمى!

الفتاة : أنت ترى أن تحقيق الذات بالنسبة للمرأة، قضية وقت!

التاريخ : لا... أبداً لا! إنها قضية وعي ونضج. والوقت عامل نضج. والمرأة الواعية تحقق ذاتها، بالإصغاء إلى قلبها، وتحكيم بصيرتها، فلندعها تنمو بحرية هادئة، وانفتاح نيّر، وشعورٍ بالفرح،

ولنساعدها على التعرف إلى العالم وما يدور فيه، وهي في شوق فطريّ إلى هذه المعرفة.

صوت : والرجل؟ كيف يحقق ذاته؟ هل يختلف عن المرأة في هذا المجال.

التاريخ : بعض الشيء لا كله!

الفتاة : أين يختلف وكيف؟

التاريخ : كان الرجل ينشأ في معظم البيئات، وله أن ينصرف إلى الشؤون العامّة، وقضايا السياسة، وسنّ القوانين وتطبيقها، بينما ظلت المرأة، على العموم، منحصرةً في شؤون الحياة الخاصّة، وظلّت اهتماماتها مقتصرةً على جمالها مثلاً، وزينتها وملابسها، وانجذاب الأنظار والعواطف نحوَها...

ذلك واقع تاريخي أدّى إلى نتائج مهمة في تكوينها النفسيّ من جهة وتشكيل البُنية الاجتماعية، من جهة أخرى.

صوت : لم أدرك أثر الواقع التاريخيّ الذي عرضتَهُ في تكوين المرأة النفسي، ولا في تشكيل البنية الاجتماعية!

التاريخ : أنت تسمـع بشيءٍ يسمّى «حب الـوطن»، وحب العلم، وحب الفن.

صوت : نعم!

التاريخ : وأنت تعرف أن النـاس لا يفكـرون بـالمـرأة حين يتحدثون عن الوطن وحبه، والعلم وفوائده، والفن ومنجـزاتـه. وإنمـا تنصـرف الأذهـان تلقـائيـاً إلى الـرجال وبـطولاتهم الوطنيـة، والعلماء ومـآثـرهم واختراعاتهِم، وأهل الفن وما أحـدثوه في القصص والشعر والغناء والرسم والنحت والعمارة.

الفتاة : ذلك صحيح. ولكنه بدأ يتغيّر!

التاريخ : هذا هو الواقع التـاريخي الناجم عن عـزل المرأة، واعتزالها الحياة العامّة ولا يستطيع الرجل أن يحقق ذاته بعد اليوم، إلا باستعانة المرأة في ذلك!

بين المِهْنة والموهبة

صوت : كان آخر ما أدليتَ به من أفكار، أن الرجل لا يستطيع بعدُ أن يحقق ذاته إلا باستعانة المرأة في ذلك. هذا جديدٌ لا تعرفه العصور السابقة. كيف لنا أن نتبيّن حقيقته؟.

التاريخ : لا بد من التوضيح في هذا المقام، أي تحقيق الذات، أن ثمة في مجالات التربية والإرشاد والتوجيه، موقفين منفصلين، متصلين في آن: التكوين المهني، والتكوين الشخصي.

نحن نعرف مثلاً أن بعض أعلام الأدب نشأوا وتكونوا وتوجهوا في بداياتهم نحو مزاولة مهنة الطب، حتى إذا وُفّقوا إلى اكتشاف ما يختزنون في أنفسهم من نزعاتٍ ومواهب، تركوا الطب وانصرفوا إلى كتابة القصص مثلاً، أو العناية بالدراسات العلمية والفلسفية والنقد الأدبي، ولدينا

من هؤلاء ثلاثة يعرفهم المعاصرون أتم المعرفة، وهم: أنطون تشيخوف الروسي، وجورج دوهامل الفرنسي، وسمرست موم الإنكليزي.

أما عباقرة العالم القديم فكلّهم من هذا الطراز، أي مارسوا في بداياتهم أعمالاً، وانصرفوا إلى غيرها في النهايات.

الفتاة : ألا يمكن اعتبار هؤلاء وأمثالهم قديماً وحديثاً، نتاج ظروفٍ خاصّة، لا يمكن التعويل عليها في تركيز قاعدةٍ عامة لتحقيق الذات.

التاريخ : القاعدة العامة هي هذه: أن يكتشف المرء ذاته، ويمضي بنفسه لنفسه في تحقيقها.

صوت : ولكن لا غنى للمرء أو المرأة عن مهنةٍ يؤمّن بها قوته، فإنّ صنعةً في اليد أمانٌ من الفقر.

التاريخ : هذه من شأن المجتمع.

الفتاة : وهي من شأن الشخص نفسه أيضاً، أم ترى أنها من شأن الأهل؟

التاريخ : إنها من شأن الأهل، والمجتمع، والشخص.

صوت : لم توضح الفكرة الأساسيّة التي انطلقنا منها في هذا الحديث، وهي أن الرجل لا يستطيع بعد أن

يحقق ذاته إلا باستعانة المرأة.

التاريخ : تلك حقيقة لم يعرفها الأقدمون بالوضوح نفسه الذي عرفها به المحدثون. . .

أعطني شاعراً أو أديباً أو فيلسوفاً أو فناناً، تكوّن وأنتج دون أن يكون للمرأة يدٌ في تكوينه أو إنتاجه. وإذا أنت فكرت في الأنبياء. . . نعم! في الأنبياء والأبطال والقدّيسين والحكماء، وجدت ذلك أجلى وأسطع.

الفتاة : هذا في التكوين الشخصيّ! ما القول في التكوين المهني؟

التاريخ : المهنة، أية مهنة، تلبية لحاجة اجتماعية من الكناسة، إلى الزراعة، إلى الحدادة، إلى النجارة، إلى الخياطة، إلى الطبابة والهندسة والتعليم والمحاماة والصحافة. . . والحاجات الاجتماعية التي نشأت المهن تأميناً لها، غير منحصرةٍ في الرجال، كما أنها غير منحصرةٍ في النساء.

صوت : الشائع أن المهن أصناف. منها ما هو نسائي، ومنها ما هو رجالي!.

التاريخ : هراء! المهنة على ما أعرف مراس، وتجويدها يتم

أيضاً بالمراس، فإذا تمرست المرأة بالجنديّة، فاقت الرجال الذين لا يتمرسون بها.

الفتاة : ذلك في هذا العصر!

التاريخ : في كل عصر.

صوت : يبدو أن التجربة هي الأساس في التكوين المِهْنّي. علينا أن ننطلق منها في تقرير ما يصح تقريره. وهذا ما يتيسّر إطلاقاً.

التاريخ : تريد أن تقول: لا يمكن معرفة المهنة التي تصلح لفلان وفلانة من الناس قبل التجربة. والتجربة في هذا المجال، مُحال!

صوت : أقول: هذا ما يبدو. والدليل قائمٌ في سيرة الأدباء الذين تركوا الطب وانصرفوا إلى الأدب من تشيخوف إلى دوهامل إلى موم وأنتَ قدّمت دليلاً آخر، حين بيّنت أن تجويد المهنة بالمراس!.

التاريخ : الإشكال في اختيار المهنة قائم، ولا سبيل إلى إنكاره. ولكن النتيجة التي يخلص إليها الناس في مواجهة هذا الإشكال، غير صحيحة!

الفتاة : النتيجة دوماً واحدة: لا غنى عن التجربة!

التاريخ : أشكّ في صحة هذه النتيجة، فكثيراً ما تسفر

التجربة عن مضيعةٍ للوقت، وتفويتٍ لفُرصٍ غنيّة.

صوت : ماذا ترى إذاً، في هذه الحال؟

التاريخ : لا غنى عن الروية أولاً، والفهم الذي تؤدّي إليه الرويّة. هناك وجوه شبهٍ كثيرةٌ بين اختيار المهنة واختيار الزوجة للفتى والزوج للفتاة.

القتاة : أنت تُلغي العوامل المُلِحّة، وترفض الأخذ بالتجربة: الزمن يلحّ في بعض الحالات، والحاجة في حالات أخرى تلح، والمجتمع يلح أيضاً في معظم الحالات، ولا يبقى للروية فسحة، وضيق الفسحة يضيّق الفهم، أو يقضي عليه!

التاريخ : ومع ذلك أصرّ على الأخذ بالروية، وتوسيع الفسحة أمام الفهم. اللانجاح أفضلُ من الإخفاق. والامتناع عن التجربة أفضلُ من التجربة الفاشلة.

صوت : لم هذا الإصرار في مقاومة التجربة؟

التاريخ : لأني أعرف التجارب. هناك مثلاً رجالٌ لا يصلحون للزواج وحملِ تبعاته وهمومه، فإذا زُوّجوا أو تزوّجوا حلّت النكبة بالمرأة أو الأولاد أو كليهما معاً. والمنكوبات من النساء كالمنكوبين

من الأولاد، يشكلون هدراً لطاقات المجتمع، فمن الأفضل عدم التجريب!

الفتاة : ألا ينطبق ذلك على بعض النساء؟

صوت : وما هو وجه الشبه بين المهنة والزوجة في مثل هذه الحال؟

التاريخ : الذي يزاول مهنةً لا يحبها يحكم على نفسه بالضياع، ويهدر طاقةً من طاقات المجتمع، كان جديراً به أن يوفّرها.

الفتاة : وكيف نتلافى ذلك؟

التاريخ : بالروية والفهم. ودعكِ من الإلحاح وعوامله!

صوت : ما أصعب أن يُوجّه إليك اعتراض!

التاريخ : هذا أسهل الأشياء على الناس. الصعب أن يحقق الإنسان ذاته، وأن يفهم التاريخ.

الفتاة : لنا عودة قريبة إلى هذا الموضوع.

المُصادفات والأقدار

الفتاة : علينا أن نعود إلى الاشكال الخطير الماثل في اختيار العمل أو المهنة وقدر أيتهُ شبيهاً باختيار فتاةٍ لزوج أو فتى لزوجة. أنا أسأل: كيف حلّ الأقدمون هذا الإشكال؟

التاريخ : لا سبيل إلى الإفادة من حياة الأقدمين، في قضايا تتعلّق بتحقيق الذات!

صوت : يظهر أن لديك سبباً خفيّاً يجعلك صارماً وحاسماً في تناول هذه النقطة، فقد لاحظت أنك تتشدّد سلبياً عندها.

التاريخ : السبب واضح، وغير خفي: حقيقة الذات ليست من شأن الماضي. وهي لا تنكشف إلا مع الزمن. ولكل امرىءٍ وامرأة أن يكتشفها بنفسه لنفسه.

الفتاة : ولكن للمرأة، كما للمرء، أن تنشد العون لدى غيرها في محاولة الاكتشاف والتحقيق للذات.

التاريخ : نعم! في محاولة التحقيق. لا! في محاولة الاكتشاف.

صوت : لم أفهم بعد سر هذا التشدد في السلبية!

التاريخ : أجدني في حاجة إلى أدلة محسوسة تؤيد موقفي. أنا بدوري أسأل: هل كان لفتى مصري في عهد رمسيس الأول، أو لبابلي في عهد حمورابي، أن يفكر مثلاً في أن يكون صحافياً؟

صوت : لا . . . الصحافة مهنة جديدة نسبياً!

التاريخ : هل كان لبابلي أو مصري قديم أن ينشىء عيادةً نفسية؟

الفتاة : لا . . . هذه أيضاً مهنة جديدة!

التاريخ : هل كان لعربي عهدَ المناذرة في العراق، أو عهدَ الغساسنة في بلاد الشام أن يفكر في تأسيس دارٍ للإذاعة؟

صوت : لا . . . ذلك مستحيل!

التاريخ : الصحافة، والعيادة النفسية، والمؤسسة الإذاعية، ولها من أمثالها مئات، فتحت للتكوين المهني آفاقاً لم يعرفها الناس قبل قرون فلا يمكن تحديد المهنة لناشىء لم تتبلور نزعاته، ولم تعرف بعد مواهبه.

الفتاة : هذا بيان مقنع. وأود أن أعرف، لمجرد المعرفة، طريقة الأقدمين في معالجة هذه القضية والتصرف حيالها.

التاريخ : كانت المهنة تنتقل بالإرث من الآباء للأبناء، ومن الأمهات للبنات. فابن الحداد يصير حداداً، وابن النجار نجاراً، وابنة الغازلة غازلة، وابنة الخياطة خياطة... وهكذا، إلى ما لانهاية.

صوت : ولي سؤال يخص الماضي أيضاً، خطر الآن ببالي، وأنت الذي شبهت اختيار المهنة باختيار شريكة الحياة، فإذا كانت المهنة تنتقل بالإرث، في أغلب الحالات، فكيف كانت تتم زيجات الفتيان والفتيات؟

التاريخ : لا سبيل إلى العثور على قاعدةٍ، أو عُرفٍ شاملٍ في هذا الشأن!

الفتاة : هل يعني ذلك أن المصادفة كانت سيدة الموقف في هذه الأمور؟

التاريخ : يمكن القول بسيادة المصادفة، لأن العشرة هي التي تحدِثُ ضرباً من الإلفة بين أفراد الجنسين. والعشرة تخضع، أغلب الأحيان، للمصادفة.

صوت : وهذا هو ما يجري اليوم!

التاريخ : كثيرة هي الحالات التي ينسحب فيها الماضي على الحاضر، في بعض المواقف والأفكار، ولا بد من النظر في حدود العشرة ومناسباتها، كالحال في أعمال الزراعة، والحرف اليدويّة، والحلقات العامّة، والاحتفالات في مواسم خاصّة. لقد كانت هذه الحدود، أعني حدود العشرة تضيق حيناً حتى تقتصر على الأهل والأقارب، وتتسع حيناً كما هي الحال في المدارس المختلطة الحديثة.

الفتاة : لا تزال المصادفة، كما فهمتُ من كلامك، هي السيدة قديماً وحديثاً، في حوادث الحياة الخاصّة، ومشاكل الوجود الشخصية!

التاريخ : إلى أين تريدين الدخول من هذا الباب الذي تفتحينه على مصراعيه؟

الفتاة : أريد الوصول إلى معرفة رأيك في القدر! أليست المصادفة هي القدر؟

التاريخ : أنا لا أعطي رأياً، ولا أقدم نصيحة. أنا أبسط الوقائع، وأعرض التجارب، وأبين آراء الآخرين وفق ما رشحت إلي. وليس لي موقف خاص.

الرأي للإنسان. والموقف يتخذه الإنسان: كل حسب طبعه وذوقه وعقله ومزاجه.

صوت : ما جوابك على الشق الثاني من كلام الآنسة: أليست المصادفة هي القدر؟ أو... لنغير طرح المسألة: كيف وردت فكرة «القدر» على الذهن البشري؟

التاريخ : المصادفات وقائع: منها ما يرضي، ومنها ما يسخط. والساخطون على الواقع كالراضين، ينظرون إليه من خلال ميولهم وعواطفهم ومصالحهم وقديماً قال الشاعر العربي: «مصائب قوم عند قوم فوائد» والعكس صحيح: «فوائد قوم عند قوم مصائب!».

الفتاة : والقدر أو الأقدار، ما هي؟

التاريخ : القدر وصف للواقع، ولكنه وصف ينطوي على تفسير، حين يرى المؤمن بالقدر تعبيراً عن مشيئة الله في وقائع الحياة والكون والطبيعة.

صوت : هل ترى في ذلك جواباً عن سؤالي: كيف وردت فكرة القدر على الذهن البشريّ؟

التاريخ : الأشياء التي وردت، ولا تزال ترد على الذهن البشريّ، لا تعدو أن تكون واحداً من ثلاثة:

وصف لغير منظور، أو تعليل لمنظور، أو تفسير لواقع. وفكرة القدر وصف وتعليل وتفسير في آن واحد! أو هي على الأقل محاولة تعليل وتفسير.

الفتاة : والتفسير ما هو؟

التاريخ : هناك أشياء يعرفها الإنسان، وكلمات يفهمها، وإلى جانبها أشياء لا يعرفها، وكلمات لا يفهمها. والتفسير هو أن يردّ الإنسان إلى ما يعرف، الأشياء التي لا يعرفها، والكلمات التي لا يفهمها إلى الكلمات التي يفهمها.

صوت : يبدو، حسب هذا التعريف، أن للتفسير طابعاً شخصيّاً!

التاريخ : لا أعرف أحداً يجادل في ذلك.

الفتاة : وهل ينطبق ذلك على تفسير الخيارات البشرية؟

التاريخ : نعم! اختيار المهنة له تفسير، وكذلك اختيار الزوج، واختيار الصمت، واختيار الكلام، إلى آخر ما هنالك من اختيارات. والتفسيرات كلها شخصية.

صوت : والتغيّر، والتغيير، أي تغيير الاختيار وتغير الظروف. هل يخضعان لتفسير؟

التاريخ : هذا موضوع آخر، ندرسه في حوار آخر.

أسباب ونتائج

صوت : دار حديثنا آخر مرة حول المصادفات والأقدار. وقد خطر لي سؤال، وأنا أفكر في تلك الأمور، أجدُ صعوبةً في صياغته، وأرجو أن لا أكون مضحكاً، إذا أنا أوردته هكذا: هل يمكن للكائن البشريّ، ذكراً كان أم أنثى، أن لا يحب؟ وبعبارةٍ أخرى، هل يحدث الحب نتيجة قدرٍ أو مصادفة؟

التاريخ : (يخاطب الفتاة): ألديك اعتراضٌ يا آنسة، على هذا السؤال؟

الفتاة : لم أفكر من قبل في مشكلةٍ كهذه! ولا أدري إن كان ينشأ لديّ اعتراضٌ من بعد.

التاريخ : قلنا: إن القدر كلمة تصف حادثاً لا يعرف الإنسان سببه، وهي تنطوي في الوقت ذاته على تفسير، أو نية تفسير. وتفسير الغامض من الأحداث، يحمل شعوراً بالغموض.

صوت : نحن ندور إذاً في فلك السببيّة.

التاريخ : السببية قانونٌ يهيمن على العالم.

الفتاة : ولكن هناك عالمين: الماديّ والمعنوي، أو الطبيعيّ والأخلاقي.

التاريخ : هذا خطأ فاحش. هناك عالم واحد، وله قوانينُهُ التي تنطبق على النفس والطبيعة، على المادة والمعنى. ولا جدوى من هذه الثنائية التي أفضت إلى اختلال في توازن الناس، ولا سيما في هذا العصر.

صوت : تلك فكرة جديدة، لا عهد للبشرية بمثلها.

التاريخ : كلامُك هُراء. هل لديك لائحة بالأفكار دقيقةٌ، تميِّز بها الجديد من القديم؟! أنا أخبرُ منك بالفكر البشري وعهوده!

الفتاة : صحيح! أنت أخبرُ بهذه الشؤون.

صوت : أنا أعتذر، وأرجو أن تمحوَ ما قلتُهُ لك، كما أرجو أن توضح لي قانون السببية وانطباقه على المعنويات والماديات سواء بسواء.

التاريخ : أعود فأكرر. هناك عالم واحد، تمتزج فيه الماديات بالمعنويات والمعنويات بالماديات، ولا

مجال للتفرقة بين الطبيعة وغير الطبيعة في حياة الفكر.

الفتاة : وما القول في قانون السببية؟

التاريخ : كان مفكرو الهند الأقدمون أعقلَ من أبناء هذا الزمان، وأرحب صدراً وأفقاً، إذ قرّروا، وكانوا على صوابٍ فيما قرروا، أن كل فكرة وكلمة وعمل تصدر عن الإنسان، سببٌ يؤدّي حتماً إلى نتيجة معيّنة. إنها ـ أي الفكرة، والكلمة، وحتى الإشارة، فضلاً عن العمل ـ بذرة تفضي بالضرورة إلى ثمرة.

صوت : علينا أن نرجع إلى الماضي إذاً، في تحري أسباب ما يحدث في الحاضر.

التاريخ : الفكرة يا صاحبي، والكلمة، والإشارة، والفعل، حلقات في سلاسل متصلة.

الفتاة : ألا يمكن أن يحدث نوع من الانقطاع في واحدة من هذه السلاسل؟

التاريخ : الاعتقاد أن انقطاعاً يمكن أن يحدث بين الأسباب والنتائج، ليس إلا وهماً من أوهام العالم الحديث، لأن أبناء هذا العصر انقطعوا بفعل

العداوات والحروب والفتن والكوارث، عن الأصول الفكرية والعاطفية والأدبية التي تشدّهم إلى بعضهم البعض، فخيّل إليهم أن ذلك من فعل الطبيعة، وأن العلم يقرّ هذه المسالك والآراء. والحقيقة أن بذور العذاب الذي يعانيه المعاصرون زُرِعت بأيدي أسلافهم، ربما عن غير وعي في حين، أو عن وعي في حين، ولكنها أثمرت في هذه الأيام، ولا دخل للعلم، أو للطبيعة في هذه الحالات الشاذة.

صوت : بدأت أدرك المعنى الحقيقي لما يسمّونه القدر!

الفتاة : تفضل واشرح لنا هذا الذي أدركته.

صوت : إذا كانت الأحداث سلسلة متصلة الحلقات في كون تترابط به الأسباب والنتائج دون انقطاع ـ وهذا هو الصحيح ـ فلن يكون في مستطاع الكائن البشري، امرأةً كان أو رجلاً، أن لا يحب... أو إلّا أن يحب، ولن يكون القدر في مثل هذه الحال، شيئاً غريباً مفاجئاً، بل المنطق أو الحق بعينه.

الفتاة : (تخاطب التاريخ بقوة) هذا مدهش حقّاً.

التاريخ : أيكون مدهشاً توالُدُ الأسباب والنتائج؟ وأين هي

الدهشة في سعي الظامىء لنيل الماء؟ أو سعي الذكر في طلب الأنثى؟ لقد نسي زميلك وهو يشرح ما انتهى إليه إدراكه، حديث البذرة والثمرة، في كل ما جرى ويجري.

الفتاة : المدهش الذي خالجني الشعور به، أن ينسحب قانون السببية على الأفكار والعواطف.

التاريخ : قد يبدو ذلك مدهشاً في هذا العصر الذي أهمل الناس فيه ـ إلا أقلهم ـ حقائق الحياة، ليتعلّقوا بمظاهر الوجود وقشوره. عودي أيتها الفتاة، إلى ما بيّناه من أن الفكرة، والكلمة، وحتى الإشارة، فضلاً عن العمل، بذرة تفضي بالضرورة، إلى ثمرة.

صوت : تريد أن تقول: إن الحب نتيجة منطقية لكلمة أو إشارة عابرة.

التاريخ : نعم! قد يحدث ذلك، ولكن دون وعي، أو إدراك صافٍ لما يحدث في أغلب الحالات. وكلمة «القدر» وصف لتلك الحالات.

الفتاة : وهل ينطبق ذلك على البغض أو العداوة؟

التاريخ : نعم! البغض موقف سلبي، يشكل استمراراً

لنفـور، وتمكينـاً للنفـور في النفس، وهـو ميـل لـلابتعـاد عن شيءٍ أو شخص بينمـا الحب ميلٌ للاقتراب من شيءٍ أو شخص. والأنس به.

صوت : ألا يعني ذلك أن الحب والبغض شيءٌ واحد؟

التاريخ : هنـاك من يـرى أن البغض حـبٌّ مقلوب، فـإن الاهتمـام بشيءٍ أو شخص بغيـة الإسـاءة إليـه في حالة البغض، هو الموقف نفسه بغية الإحسـان إليه في حالة الحب. الاهتمام هو المنطلق الواحد لكل منهما.

الفتاة : ألا يمكن أن يجتمعا في نفس واحدة؟

التاريخ : يمكن أن يجتمعا، ولكن في زمنين مختلفين.

صوت : أفهم من ذلك أنه يمكن تحويل البغض إلى حب، والحبّ إلى بغض.

التاريخ : تحويل البغض إلى حبّ، ممكن، والعكس موضع شك وجدل.

الفتاة : لم كان العكس موضع شك؟

التاريخ : لأن البغض مـظهـر من مـظاهـر الحب، وأنـانيـة المبغض هي البـاعثة على تصـرفاتـه، وتشويـه مـا يدور في نفسه!

صوت : وكيف للأنانية أن تفعل هذا الفعل في تشويه النفس.

التاريخ : هذاموضوع آخر، لنا أن ندرسه في حديثٍ آخر.

القول والفعل

الفتاة : عرفنا أن السببية قانونٌ ينطبق على الطبيعة كما ينطبق على النفس والحياة، وأن الأسباب والنتائج تتوالد في كل شيء، حتى في الأفكار والعواطف. ولكن الإنسان معرّضٌ، في عاطفته وفكره على السواء، لما يسمونه «الوهم» فكيف لنا أن نميّز الواقع من الوهم حين تخطر لنا فكره، أو نشعر بعاطفة؟

التاريخ : لا غنى عن لفت الانتباه في هذا الشأن، إلى أن الواقع درجات، وإدراكه درجاتٌ أيضاً، فإن هذا الذي يشاهد الشمس تطلع من الشرق، وتجري نحو الغرب، إنما يشاهد واقعاً، ويدرك واقعاً منظوراً، فلا يصح أن نلومه إذا وصف ما شاهد وعبّر عما أدرك، شأنه شأن هذا الذي يرى قطعة من سطح الأرض، ويقيس عليها بقية القطع التي لا يراها، فلا يخطر بباله بعد أن الأرض كلها كرة

تدور حول الشمس، في حركة منتظمة، دقيقة.

صوت : هـذا في أمرٍ محسـوسٍ وواضـح، فكيف إذا تعلّق بأمور غير منظورة كالعواطف والأفكار؟!.

التاريخ : ذلـك ما أردت الـوصول إليـه، ولكنـك لم تمهلني لأبيّن أن العـاطفة ـ ومثلهـا الفكرة ـ درجـات، وأن حالهما في ذلك لا يختلف عن الواقع الملموس أو المحسوس.

الفتاة : وكيف نميّـز بين درجة ودرجـة في العـاطفـة أو الفكرة؟

التاريخ : الفعل هو المرجع، وهو البرهـان، وهو الـذي يتيح لنـا أن نميّـز بين الـواقـع والقيمـة في الحيـاة الشخصية. فالذي يحبّ، ولا يفعل شيئاً ينهـض بـالدليـل على عاطفتـه، لا يمكن الأخذ بـأقوالـه، وإنما يظلّ حبه دعوى تحتاج إلى بيّنة، والفعـل هو البيّنة.

صوت : أفهم من ذلـك أن على المحبّ أن يعبرَ من القـول إلى الفعـل. هـل لي أن أعـرف كيف تتم عمليـة العبور هذه؟

التاريخ : العبـور من القول إلى الفعـل يتمّ بصورةٍ عفـويـة،

ودون أدنى تكلف، حين يكون القول صادراً عن حقيقة في النفس، أو القلب، سواء كانت تلك الحقيقة فكرةً أو عاطفة.

الفتاة : هناك إمكانات ووسائل يقتضيها الفعل، ولا يملكها كل إنسان ليعبر من القول إلى الفعل... أعرف شاباً أحبّ فتاةً إلى درجة لا تختلف عن العبادة. وكان يود أن يهديها كلّ ما تقع عليه عيناه من عطورٍ وزيناتٍ وملابس وأطايب. ولكن إمكاناته لم تكن تسمح له بتلبية هذه الرغبة الحارّة في نفسه، فهل يصح النيلُ من صدقه، لأنه لا يملك وسائل «البيّنة» على دعواه في الحب؟!.

التاريخ : (يضحك): أجدُ هذا الاعتراض، وإن بدا مُضحكاً، يحمل الكثير من العمق الذي يدعو إلى التأمل والاستغراق في التأمل، ويفسح في المجال أمام كل إنسان ليعيد النظر في مسالك الحياة حين تملأ القلب أو النفس. وكان أول ما خطر لي، وأنا أستعرض ما يدور في سريرة ذلك العاشق الذي سردت الآنسة علينا قصته، أن أسأل: وما هو موقف تلك الحبيبة من عاشقها وعجزه عن تلبية الرغبات التي تعتمل في نفسه؟

صوت : المسألة المطروحة ليست في موقف المحبوبة، وحلّها ليس من شأنها أيضاً. المسألة هي هذه: إذا كان الصدق في الحب مثلاً، منوطاً بالقدرة على العبور من القول إلى الفعل، وإذا كانت إمكانات هذا العبور ووسائله غيرَ متوفّرة، فهل يمثل العجز عن الفعل عيباً في الحب أو في صدقه؟!

التاريخ : أدّى بنا الاستطراد إلى شيء من الالتباس، والالتباس أدّى إلى الضياع عن الموضوع. وكانت المسألة في الحقيقة، تدور حول التمييز بين الواقع والقيمة في الحياة الشخصية، ثم انتقلت إلى القدرة على الفعل والعجز عنه، وهذا الانتقال جرّ إلى مسالك الحياة في النفس والقلب. لنعُدْ إلى موضوعنا! قلنا: إن من يحب ولا يفعل شيئاً ينهض بالدليل على عاطفته، لا يمكن الأخذ بأقواله. أريد أن أوضح ذلك في حب الوطن. إذا أنت لم تفعل شيئاً لمواطنيك يشعرون معه بحبك أو بقيمتك في حياتهم، كان شأنك في ذلك، شأن أي غريبٍ عن الوطن. وهذا هو معنى قولنا: الفعل هو المرجع، وهو البُرهان. أما وضُح الموقف؟

الفتاة : أعتقد أنه اتضح أكثر من قبل، وزال الالتباس. ولكن الأمر يظلّ معلّقاً على إمكانات المحب ووسائله. أليس كذلك؟

التاريخ : لنبق في إطار الوطن وحبه، ولنبتعد، موقتاً، عن الغرام ومشاكله العويصة... المراد هنا من «الفعل ـ البرهان»، أن يعمل كلّ حسب طاقته، على نفع مواطنيه، أو دفع الأضرار عنهم. ولا جدوى من تكليف أحدٍ فوق ما يطيق. هل من حاجةٍ بعدُ إلى مزيد من الشرح؟!

الفتاة : أنت ترى إذاً أن مشكلات الحياة الشخصية مما يمكن فصله عن الحياة العامّة.

صوت : هذا استنتاج مجمل يحتاج إلى تفصيل.

الفتاة : ألم تسمع: «لنبتعد عن الغرام ومشاكله العويصة.». إنه بذلك يضع فاصلاً بين الحياتين: الشخصية والعامّة.

التاريخ : لست أنا الذي وضع هذا الفاصل: هناك فردٌ إزاء مجتمع، ومجتمع إزاء عالم. ولا نكران للعلاقات القائمة بين الأفراد والمجتمعات ولا بين المجتمعات والعوالم. وللحياة الشخصية مشكلاتها

المتصلة بالحياة العامة ومشكلاتها.

الابتعاد المؤقت الذي أشـرت به عن البحث في الغـرام، إنما كـان أسلوباً في التفكيـر لإيضاح العبـور من القـول إلى الفعـل، في إطـار السلوك الـوطني. أما السلوك الشخصي فله أسلوب آخـر، لا سبيـل إلى الخوض فيـه إلا من نـاحيـة عـلاقتـه بالحياة العامة، وصونها من كل أذى أو مكروه.

الفتاة : أريد أن أصل إلى السلوك الشخصيّ وأسلوبه، وأن أعـرف رأيك فيـه، وكيف نعبر بـه من القـول إلى الفعل.

التاريخ : أنت تعرفين أن الموضوع هذا دقيق. والدقة فيه أن لكل رجلٍ وامرأة، في كل جيـلٍ وبلد، طرائق لا تحصى في القول والفعل، ثم في العبور من القول إلى الفعـل، أو من الفعل إلى القـول، فـلا يمكن بحالٍ من الأحوال، وضع قاعدةٍ عامّـة، أو نصيحة شـاملة، أو إرشاد يصـح توجيهـه إلى الجميع دون استثناء.

صوت : يبدو أنك تقصد «الغرام» في هذا الكلام!

التاريخ : نعم! الغرام قضية شخصيـة. وأسلوب السلوك فيها

شخصي محض، يختلف باختلاف الأجيال والبلدان والمناخات والرجال والنساء.

الفتاة : عفواً! أنا أهدف إلى تبيين الفرق بين الغرام بالوطن، وغرام الرجل بالمرأة.

التاريخ : هذا عالم آخر، يمكن أن نلجه في حوارٍ آخر.

الوطنية والاستبداد

الفتاة : الجانب الذي لم يتضح بعد، هـو ذلك الفـرق بين حب الوطن، وغيره من أنواع الحب الأخرى. فهل لك أن تجلو الغامض من هذا الأمر على نحو يتاح معه تلقينه للأطفال واقناع الكبار.

التاريخ : تلقين الأطفـال عمليـة تختلف كـل الاختـلاف عن اقناع الكبار والجمـع بين التلقين والاقناع مخـالف لمنـطق الأشياء وقـوانين اجتمـاعهـا. أنت تعـرفين حكاية الـوحدات المتجـانسة التي يسـردُها معلمـو الحسـاب حين يقررون أنـه لا يجوز جمـع خمس بصـلات مثلاً على خمس بقـرات، لأن الوحـدات التي يـراد جمعها غيـر متجانسة. التلقين والاقنـاع كالبصلة والبقرة لا يصح، ولا يمكن جمعها.

صوت : هـل تعني أنـه لا يمكن الجمـع بين حب الـوطن وحب المرأة؟

التاريخ : لم أقل شيئاً من ذلك ولا خطر ببالي شيء من ذلك. نحن نبحث في التلقين والاقناع. أنت عندما تلقن الطفل نشيداً وطنياً يختلف موقفك جذرياً عن محاولتك اقناع آخر برأيٍ تراه في مصلحة الوطن.

الفتاة : لندع التلقين والاقناع جانباً، ولندرس الفرق بين حب الوطن وأنواع الحب الأخرى.

التاريخ : هناك حب الأم طفلها، وحب الشاعر قصائده، وحب المواطن وطنه فهل تريدين بيان الفروق بين هذه الأنواع من الحب؟

الفتاة : من الحب ما هو طبيعي، ومنه ما هو مخالف للطبيعة. الطبيعي أن تحب الأم طفلها، والفنان فنه، والمواطن وطنه وهذا ما قاله مفكر عربي عاش قبل نحو من عشرة قرون: «ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم فلو لا ما منّ الله تعالى به على طوائف الأمم، وعصائب الزمر تحبيب ما حبّب وتأنيس من أنس. . لما رضيت المهج الكريمة بمجاورة البلاد والديار، ولا سكنت القلاع في قلل الجبال والقلاع.

صوت : وكيف يكون الحب مخالفاً للطبيعة؟

التاريخ : أن تـدّعيَ الحق في بلدٍ لا تعرفـه ولا يعرفـه آباؤك وأجدادك، وتزعم على الأثر انه وطنك وأنك تحبـه وتمضي في معاداة ساكنيه والمقيمين على أرضه.

الفتاة : وهل لمثل هذه الدعوى أن تبصر النـور؟ وهل يبلغ ضعف العقـول عنـد بعضهم منـزلة تحملهم على مثل ذلك السلوك؟

التاريخ : تلك هي دعـوى الصهـاينـة وهـذا هـو العقـل الإسرائيلي.

صوت : أيصح أن نسمي ذلك «عقلاً»؟

التاريخ : المهم هي الصفـة التي تضـاف إلى العقـل، أو يوصف بها العقل.

الفتاة : وإذا تنافت هذه الصفة مع جـوهر مـا تضاف إليـه، أي مـع العقل نفسـه، فكيف ترى أن نفهمهـا، أو كيف سبق لغيرنا أن فهمها؟

التاريخ : إذا تنافت الصفة مـع حقيقة المـوصوف كـانت من صنـع الخيـال، فليست هنـاك «دائـرة مـربعـة» ولا مـربع دائـري، هـذا مـا يؤكـده العقـل الـريـاضي السليم.

صوت : هل يعني ذلك أن إسرائيل كدولةٍ أو كشعب من صنع الخيال؟

التاريخ : نعم إسرائيل كدولة، ثم كشعب، من صنع خيال مريض؟

الفتاة : ولكنها تحولت إلى واقع ملموس.

التاريخ : انها واقع سقيم مريض شأنها شأن الخيال الذي أنشأها فهي تقوم كواقع، بالقمع والتعذيب ونسف البيوت وحجز الحريات ونفي المواطنين في جانب، وتعيش في الجانب الآخر على الصدقات والمعونات والاعتداءات والجبايات الظالمة واغتصاب الأراضي، ونهب الحقوق.

صوت : أنا أعرف أنهم ينادون بالسلام ويحاربون النازية، ويحسبون أنهم واحة الديمقراطية في الشرق، من أقصى اليابان إلى شطآن البحرين الأبيض المتوسط والأحمر، ويمضون غرباً في دعواهم هذه حتى تشمل افريقيا كلها.

التاريخ : كنا قد أوضحنا من قبل، أن الفضيلة في السريرة لا في اللسان، والبيّنة الصحيحة إنما تكون بالفعل لا بالقول، والمناداة بالسلام ذروة النفاق في سيرة

إسرائيل، لأن الطريق إلى السلام أوضح الأشياء في الحياة، ولا أقل من أن يفكر الإنسان في النأي عن الاعتداء حتى يهتدي إلى السلام. ولكن هؤلاء الذين قيل لهم: إنهم شعب بلا أرض وأن فلسطين أرض بلا شعب وصدّقوا ما قيل دون روية أو تفكير، نقلوا المرض في خيالهم إلى غيرهم من شعوب الأرض.

الفتاة : الناس لا يعرفون ذلك وإذا عرفوا شيئاً منه، جاءت معرفتهم ناقصة مبتورة مشوهة.

التاريخ : تحتاج الحقيقة لتنتصر - والانتصار غير الظهور في هذا المقام - إلى ثلاث قدرات متكاملة: قدرة الناس على الفهم والاستيعاب، وقدرة على تمييز اللباب من القشور والظاهر من الباطن، وقدرة على العبور من التصور إلى الفعل ولا تتيسر هذه القدرات للكثرة الكاثرة، ولذلك دبت الفوضى في أذهان الغربيين إلا أقلهم واستحوذت على عقولهم، وأقنعتهم مصالحهم الضيقة، بما لفق الصهاينة من دعايات وأكاذيب حتى إذا انكشف عمق الواقع عن أن اليهود ليسوا شعباً، وإنما هم أفراد نشأوا متباعدين في اللغة والوطن والثقافة

والتاريخ،وأن فلسطين كأرض لها شعبها الذي يقيم عليها منذ آلاف السنين أخذت الحال تسوء. وأوضاع الحضارة تتقلقل.

صوت : لقد علمتنا أن الحقيقة منتصرة لا محالة مما يعني أن حاجتها إلى القدرات الثلاث التي ذكرتها أمر مشكوك فيه، أو غير وارد على الأقل.

التاريخ : الذين يعتدون على الحقيقة ويحاولون طمسها ويجدون «مصلحتهم» في تشويهها، هم الذين يساعدونها على الظهور بفعل اعتداءاتهم ومحاولاتهم وتشبثهم بالفاسد من المصالح والنيات والأعمال. وبهذا يشقون للحقيقة طريقها إلى الظهور وهم لا يشعرون. وظهور الحقيقة غير انتصارها كما أوضحنا قبل قليل.

الفتاة : المعروف أن اليهود، كما ذكر الزميل يحاربون النازية، فما شأنهم هذا وهل يصح تصديقهم، في محاربتهم هذه؟
وما شأن اليهود مع النازية؟

التاريخ : النازية والصهيونية في جوهرها شيء واحد. النازية تصوّرت ثم اعتقدت أن «ألمانيا فوق الجميع» والصهيونية ـ وهي اليهودية السياسية ـ تصورت ثم

اعتقدت أن «اليهود شعب مختار». والواقع أن ألمانيا رقعةٌ من اليابسة تقع في الوسط من قارة يعرفها الناس باسم أوروبا، فلا هي فوق الجميع ولا هي دون الجميع والصهيونية فكرة أو خاطرة من خواطر الخيال الجامح أوردها الغرور على أذهان مريضة، وعمل العاملون على انتشارها، ووجد فيها بعض المنتفعين ما يؤيد مطامعهم أو أحقادهم التاريخية فمدوها بالقوة والمعونة وهكذا تحول الوهم في بعض وجوهه إلى واقع والواقع غير الحقيقة بل قد يكون مخالفاً لها في كثير من الحالات. ولا يزال الصراع قائماً بين الحقيقة وهذا الوجه المصطنع، المقنّع من وجوه الواقع.

صوت : ألا ترى أن النازية انتصرت في مستهل أمرها؟

التاريخ : كان انتصارها مقدمة لانكشاف حقيقتها وانهزامها، وهذا ما سيحدث حتماً للصهيونية.

الفتاة : هناك أسئلة كثيرة راودت الأذهان ولا تزال تراودها. منذ أكثر من نصف قرن إلى اليوم، ولم تجد بعدُ الأجوبة الشافية الوافية.

التاريخ : هل لي أن أعرف بعض هذه الأسئلة؟

صوت : أنا أضعك في الجو المشحون بتلك الأسئلة، وقد عرفنا أن انتصار النازية في مستهل أمرها كان مقدمةً لهزيمتها النهائية. لماذا لم يقم هتلر بإنزال جيشه في بريطانيا، على أثر انتصاره الساحق في دنكرك؟ لماذا لم يستول على جبل طارق، ويضرب حصاراً يشل به تحركات الحلفاء؟ لماذا لم يترك موسوليني لمصيره حين غزا البانيا واليونان؟ لماذا. . .

التاريخ : (مقاطعاً) هل أنت تسأل لمجرد الأسئلة أم انك تنتظر جواباً عن كل سؤال؟ . . .

صوت : أنا أقدم أمثلة عن أسئلة وردت ولا تزال ترد؟

التاريخ : كل واحد من هذه الأسئلة يحتاج إلى مجلد قد لا يكفي للإجابة عنه.

الفتاة : لنبدأ بإحجام هتلر عن غزو بريطانيا. كيف تفسر هذا الاحجام؟

التاريخ : الواقع أن هتلر لم يكن على شيء من «الاتزان» الفكري. وكل تصرفاته داخل المانيا وخارجها من بعد تُشير إلى انسياحٍ مع انفعالات وخيالات بمعنى، إنه لم تكن لديه خطة سياسية شاملة يحاول تنفيذها بأناة وروية ويتخذ معها الاحتياطات

لما قد يتعرض له من عثرات وزلات. وكان إحجامه عن غزو بريطانيا في اللحظة المناسبة، أي بعد اقترابه من شطآن الجزر البريطانية صيف عام ١٩٤٠ راجعاً إلى افتقاده تلك الخِطّة العملية الشاملة شأنه في ذلك شأن يوليوس قيصر.

صوت : يبدو أن هناك وجوه شبه كثيرة بين هتلر ويوليوس قيصر.

التاريخ : هناك وجوه شبه بين سير الذين تسوقهم الأقدار والمصادفات إلى «الاستبداد» ولا يفكرون بما يعملون.

الفتاة : وكيف نعثر على وجوه الشبه هذه؟

التاريخ : نعثر على ذلك في المواقف الداخلية التي يتّخذها المستبد، فإن يوليوس قيصر تعرض كهتلر لأكثر من مؤامرة استهدفت القضاء على حياته، وحب الوطن يعني رعاية المواطنين، فلا يأتلف هذا الحب مع الاستبداد بالسلطة.

* * *

الاستبداد والوطنية (٢)

صوت : المسألة التي تركنا حديثها لهذا اليوم، آخر مرة، كانت تناقض الوطنية مع الاستبداد، وقد رأينا كيف سيق هتلر إلى الهزيمة، لأنه لم يحسن التوفيق بين شعوره الوطني المزعوم، وسلامة الإخراج لهذا الشعور. وقد جعله ذلك الاضطراب الأساسي في مسالكه، عرضةً للمؤامرات الداخلية والخارجية على السواء.

الفتاة : كنا قد طرحنا عدداً من الأسئلة حول سلوك ذلك الرجل، باعتباره شغل العالم داخل ألمانيا وخارجها طيلة ربع قرن، ولم يتسع الوقت لتلقي أجوبة عن تلك الأسئلة والبحث فيها.

التاريخ : رأينا أن هتلر لم يكن يعرف ماذا يريد، وأنه لم تكن لديه خطة متكاملة تنطوي على احتياطاتٍ دقيقة لما قد يحدث، وهذان هما السببان الرئيسان لهزيمته.

صوت : هل يُفْهَمُ من ذلك أن ليس للاستبداد أثرٌ يذكر في تلك الهزيمة.

التاريخ : القول العربيّ المأثور: «من استبدّ برأيه هلك» يفسر الاستبداد والهلاك الذي يفضي إليه. والذي يجهل ما يريد يشبه السائر على طريق لا يعرفها، ولا يعرف ما توصل إليه، ومن يتبع هواه من غير تدبّر للعواقب ودون مشورة يطلع بها على ما يدور حوله، هو المستبد، أكان اسمه يوليوس قيصر أم أدولف هتلر.

الفتاة : ضعنا عن الموضوع: لماذا أحجم هتلر عن غزو بريطانيا في الوقت الذي بلغ به نقطةً قريبة منها؟

التاريخ : الجواب عن كل سؤالٍ حول هتلر وتصرفاته من ألفها إلى يائها، نجده في غموض الرؤيا والرؤية لديه، لأنه لم يفرّق بين الوطنية والاستبداد، بين حبّ الوطن وحب الذات. هذا الغموض، أو هذا الضيق في أفق الفكر، أبعده عن الشورى من جهة، ونأى به عن التفكير في العواقب، من جهة أخرى.

صوت : هذا هو الجواب العامّ عن كل سؤالٍ حول

الاستبداد ومسالك المستبدّين. ويظل إحجام هتلر في بعض الحالات، وإقدامه في حالاتٍ أخرى، موضع تساؤل ومثار جدال.

التاريخ : هناك حالات تفرض الحكمة فيها، أن نترك للوثائق والوقائع والأوضاع والأرقام، أن تجيب عن الأسئلة والتساؤلات.

الفتاة : وماذا نترك للإنسان في مثل هذه الحالات؟

التاريخ : للإنسان وحده أن يستنتج، أن يستخرج العبر، أن يتلقى الدروس التي تمليها الوثائق والوقائع، وكلها تحتاج إلى تدقيق وتمحيص.

صوت : الباحثون يختلفون. كيف نثق بصحة النتائج التي يصل إليها فلان، وهي تتعارض مع نتائج توصل إليها غيره؟

التاريخ : الحيرة أمام النتائج المتعارضة تسوق إلى إعادة النظر في الفهم، إلا أن من الوقائع ما يُطمس أو ينسى، وهذه تلقي ضوءاً جديداً ينير الذهن، ويصحّح الاستنتاج.

الفتاة : هل تقدم لنا مثلاً على الوقائع المنسيّة أو المطموسة؟

التاريخ : قد يكون أبرز مثلٍ على هذه الوقائع، في درس الحرب العالمية الثانية الذي نعرض له الآن، ما جرى لنائب هتلر رودولف هس.

صوت : ومن هو رودولف هس؟ وماذا جرى له؟

التاريخ : كان رودولف هذا نائب الفوهرر، وزعيماً بارزاً من زعماء الحزب النازي، ووزيراً للرايخ بلا وزارة، ومستشاراً سرياً في مجلس الدفاع الألماني، وكان قبل كل شيء، من أقرب المقرّبين لهتلر، على مدى عشرين عاماً، والناطق السريّ بلسانه. وقد شوهد ليلة السبت من ١٠ أيار (مايو) عام ١٩٤١ يحطّ وحيداً بطائرته في اسكتلندا على بعد ٣٥٠ ميلاً شمالي لندن، بينما كان سلاح الجو الألماني يقذف لندن بالحمم.

الفتاة : ذلك حادث عجيب! وما هي المهمة التي حملت هس إلى اسكتلندا؟

التاريخ : الحادث يبدو عجيباً. ولكنه يشرح الغامض من الأحداث التي تلته. وكانت مهمة رودولف هس أن يقنع بريطانيا بوضع نفسها في تصرف ألمانيا، لينقضّا معاً على روسيا، من بعد!

صوت : ألهذه الدرجة كان زعماء النازية من السذاجة أو الغباء؟

التاريخ : هذا ما حدث، أو هذا ما أثبتته الوثائق والمذكرات والمذاكرات التي جرت في نورامبرغ.

الفتاة : وما نوع هذا الرجل الذي أقدم على مثل تلك المغامرة؟

التاريخ : كان رودولف هس يتمتع بشعبيةٍ فائقة في ألمانيا كشخص جريء، وشخصية محبوبة. يضاف إلى ذلك أنه حاز ثقة هتلر، وعرف بإخلاصه ووفائه له، وانصرف منذ نعومة أظفاره إلى الرياضة البدنية، وولعه بالطيران، وقد ولد في مصر، ودرس الألمانية في مدرسة انجيلية في الاسكندرية، وكان والده يرغب في إرساله إلى أوكسفورد ومنعه اندلاع الحرب العالمية الأولى من تحقيق هاتيك الرغبة. ثم تطوّع رودولف وخدم إلى جانب هتلر في ثُلّة بافاريا الأولى لمشاة الاحتياط. ولم يلتقيا إلا بعد الحرب. درس في ميونيخ، وهناك، في جامعتها، تأثر أكثر ما تأثر بالأستاذ كارل هاوشوفر، عالم الجيوبوليتا أو سياسة الجغرافية الأرضيّة.

صوت : وكيف انتسجت مودّته مع هتلر، وتنامت صداقتهما؟

التاريخ : كـان ذلك عـام ١٩٢١ في يـوم سمـع بـه رودولف خطاباً لهتلر كـان مؤثراً وبليغـاً، أدرك معه أنـه أمام شخصيةٍ جديرةٍ بالقيادة، وصمم على بذل العون له في هـذا السبيل، ووفق مـع الـزمن إلى تحقيق مـا يصبو إليه، عام ١٩٣٣.

الفتاة : يبدو أن أوضاع ألمانيا الداخلية في تلك الفترة هي التي عبدت الطريق أمام النازية للصعود.

التاريخ : هـذا حديث يـطول، يمكن اختصاره بـالعـودة إلى كتـاب هتلر الشهير «كفـاحي» ومنه يتضـح أن تنازع الأحـزاب، وتـوجّـه الشعب الألمـاني للثـأر، بعـد انكسـاره وتألّب أوروبـا عليـه، وتغلّب العنف على كـل مـا عـداه من مـطامـح وآراء ونـزعـات، هـذه العـوامـل مجتمعـة أدّت إلى تمكن النـازيين من السلطة، ولكنهـا كـانت سلطة هشـة، متخلخلة، توالت فيها حلقات العنف وتسلسلت، وانتقلت من داخل ألمانيا إلى خارجها.

صوت : وهل أتى هتلر على ذكر هسّ؟

التاريخ : كـان هس متحمساً في عـدائه لـروسيا. وقـد روى

هتلر أن معركة جرت في ميونيخ بين الشيوعيين والنازيين، قضي فيها على أكثر من مئة من الأوّلين، وقد تميّز اثنان من أتباعه: الأول إميل موريس الذي أصبح من بعد سائق سيارته الخاص، والثاني رودولف هس الذي تلقى ضربة على رأسه نجا منها، ولا يزال أثرها بارزاً، ثم ترقّى في ولائه للحزب ورئيسه، حتى أصبح نائب الفوهرر والناطق السري بلسانه.

الفتاة : هل يمكن أن تكون العلاقة بين الزعيم ونائبه قد ساءت دون أن يدري أحد؟ أم يكون هس ارتأى بمفرده أن يطير إلى بريطانيا تنفيذاً منه لرغبة عرفها وحده في نفس هتلر؟

التاريخ : لا تزال ملابسات هذه الخطوة على جانب من الغموض، وليس في الوقائع والظواهر والشواهد ما يشير إلى خلافٍ جوهريّ بين هس وهتلر، أو إلى خيانة من جانب الأول تجاه الثاني. هناك «مغامرة» حسبها رودولف «سلمية»، أو ضربة حَظٍّ ربما تؤدّي إلى نجاح باهر تحققه ألمانيا، وإذا أخفقت تحمّل وحده تبعة ما ينتج عن إخفاقها.

صوت : ولكن مقامه الرسميّ الكبير، وشخصيته في الحزب والدولة، يحولان دون الأخذ بالفرضية الأخيرة، إذ لا بد أن يؤدّي إخفاقه إلى اخفاق الحزب والدولة!

التاريخ : أنت تفكر الآن بوصفك خارج اللعبة، وقد انتهت المشكلة وحصل حلّها، ولم يكن ذلك واضحاً في الجو المحيط برودولف هس وحاشيته!

الفتاة : وما العبرة التي نستلها من تلك الحادثة الغريبة.

التاريخ : هذه الحادثة تجيب عن الأسئلة التي انطرحت على كثير من الأذهان والعقول، مثل: لماذا أحجم هتلر عن غزو بريطانيا حين كان على مقربة من شواطئها؟ أو لماذا أقدم على مهاجمة روسيا بعد نحوٍ من شهرٍ على خطوة نائبه رودولف؟ إلى آخره.

صوت : لم نعرف العبرة الحقيقية بعد!

التاريخ : العبرة الحقيقية هي أن تفرد الحاكم، واستبداده بالرأي، وامتناعه عن مشورة العقلاء والحكماء، يحمل معاشريه، وأصدقاءه والمحيطين به من ولاة الأمور، على التفرد أيضاً، والاستبداد، ونبذ الشورى.

الفتاة : الخطأ إذن كامنٌ في صميم النظام الذي ولي به هتلر الأحكام.

التاريخ : ذلك هو الصواب. ولا سبيل إلى تخطئة هس دون غيره من سَدَنَةِ ذلك النظام.

صوت : وكيف انتهى أمر ذلك المغامر أو المقامر؟

التاريخ : إلى العثار والبوار.

صوت : والنتيجة؟

التاريخ : لا وطنية عند مستبدّ، ولا استبداد مع الوطنية. تلك هي الخلاصة!

القِسمُ الثَالِث

نحـوَالمستقبَل

الفلاسفة والمستقبل
معالم ونظريات

الفلاسفة والمستقبل

كان الأقدمون يبذلون عناية فائقة في سبيل التعرف إلى ما يدور، أو يمكن أن يدور من حوادث في المستقبل، ونشأ عن هذا التوق الحار الشديد إلى تلك المعرفة، عدة أمور أو مؤسسات تعنى أكثر ما تعنى بحلّ الرموز، وتفسير الظواهر وتركيز العلامات الدالة على وقوع أحداث مقبلة، منها التنجيم الذي كان يراد منه في أول منزلة قراءة الطوالع في الكواكب، والكهانة التي تعتمد الحدس ونفاذ البصيرة، والفراسة التي تطالع في الأحوال الجسمية لدى الإنسان صورة عن غده، وعرافة الكف ليست سوى فراسة خاصة، غير أن جميع هذه الأشياء من تنجيم وكهانة وفراسة توارت مع الأيام، وأتى عليها التفكير العلمي، وانصرف الناس عنها، بعدهذا التقدم الهائل الذي سجلته مختلف التقنيات الحديثة في الحياتين: العامة والخاصة.

غير أن العلوم والتقنيات جميعها، لم تنقع غليل الفضول البشري إلى معرفة المجهول، ولا أجدت شيئاً في

دفع هذا الظمأ الذي يعانيه الإنسان لادراك المستقبل وتصور ما يكون عليه. وهنا، في هذه المرحلة من تطور الوعي، لجأ الناس في تفهم المصير، وتخيل الغد، إلى الفلسفة والفلاسفة، وراح المعاصرون يبحثون عن ريّ لظمئهم ذاك، في نظريات وآراء ودراسات نفسية وتاريخية واجتماعية، تستهدف إلقاء النور على الغيب وطرائق الاطلاع عليه، وولوج الدهاليز المظلمة التي لا يملك الحس ولا العلم العادي ولا اليقين المطلق أن تنفذ إليها.

كان السؤال الذي طرحه الفكر المعاصر، ولا يزال يحاول الإجابة عنه، هو: هل يمكن التنبّؤ بالمستقبل؟ وكانت صيغة هذا السؤال تختلف بين مفكر ومفكر، ومجتمع ومجتمع، وقد برزت في إطاره، أو في المحاولات التي بذلت للإجابة عنه، جملة ظواهر أدبية وفلسفية تفيد أن الإنسان يميل إلى اعتبار نفسه قادراً على التنبّؤ، وأنّ في امكانه، على نحو ما، أن يعرف أو يتعرف إلى بعض وجوه المستقبل.

هكذا، وبوحي من هذا الميل أو الشعور، ظهرت مؤلفات هـ.ج. ولز الكاتب الانكليزي الشهر الذي تصور ما يكون عليه العلم بعد زمن غير طويل، وما سيكون من أمر الإنسان في استخدامه لأغراضه السياسية والعسكرية وفي

حياته الشخصية،وصحت من بعد معظم نبوءاته في الأحداث التي شهدها العالم أثناء الحربين الكبريين الأولى والثانية. وتوالت الكتب التي تتناول المصير البشري، ومستقبل الحضارات، وأحوال الناس في غدهم القريب والبعيد، ولم يبق من مفكر إلا أدلى بدلوه في هذا الموضوع، من نقولا بردياييف، إلى الكسي كاريل، إلى غبرييل مارسيل، إلى برتراند راسل، إلى جان بول سارتر، إلى غيرهم.

ما هي الآن الأسس والمبادىء التي اعتمدها الفلاسفة المعاصرون في كشف المستقبل، والتحدث عن المصير، وبيان ما ينطوي عليه الغيب؟

ـ كان موريس ميترلنك يرى مثلاً، أن هنالك حالات صحية ونفسية يرهف بها حِسُّ الإنسان لدرجة يستطيع معها أن يطل على عالم الغيب أو يشارفُه، ولا سيما فيما يتعلق بشؤون حياته الخاصة ومستقبله أو مستقبل الذين يتصل بهم اتصالاً وثيقاً، فما علينا والحالة هذه، إلا أن نخلق هذه الحالات الصحية، أن ننبّه الأعصاب أو نخدرها على نحو خاص في موقف خاص، لينبعث في قرارة المرء شعور ينفذ منه إلى وعي المستقبل.

وهنالك آخرون يعتمدون المنطق الأخلاقي في تصور نتائج

الأعمال وعقبى الحوادث ونهايات المسالك، وهؤلاء هم الأكثرية، فقد وضع بردياييف كتابه «مصير الإنسان» انطلاقاً من هذا المبدأ، وهو أن الأخلاق هي العامل الأكثر جوهرية في توجيه الإنسان نحو مصير محتوم معين، والبرت شفايتسر الحائز جائزة نوبل للسلام، يرى أنّ الحضارة في جوهرها مجموعة صفات ومزايا اخلاقية في الدرجة الأولى، ويقرر أنّ ما يحتم مستقبل النوع البشري في دائرة الحوادث البشرية هو الحقيقة، والحقيقة في هذه الدائرة إنما تتكون من اقتناع داخلي ولا تملك الأحداث الخارجية اعطاءها، والصعيد الثابت هنا الذي يركز فوقه وجودنا، إنما هو المثل الأخلاقية العليا التي يقررها العقل. وبهذا، يظل مصير الإنسانية وقفاً على اتصالها الوثيق أو بعدها من تلك المثل. والصحيح الذي لا يرقى إليه شك، هو أنّ حسّ الإنسان يمكنه في بعض الحالات، من الاشراف على خفايا المستقبل، فإذا أحاط علماً بالظروف الحاضرة، وكان على معرفة دقيقة بأسرار الحوادث الماضية، وتخلّى عفواً عن رغباته الذاتية وأهوائه الشخصية في النظر إلى الأمور، استطاع، إلى حد بعيد، أن يكوّن رأياً صحيحاً حول ما يمكن أن يحدث في المستقبل، لأنّ هذه الحوادث لا تنبثق محض مصادفة، وإنما هي تقع نتيجة قوانين وتحتّمها أغلب الأحيان أوضاع وظروف خاصة،

والقانون الأخلاقي يهيمن على أعمال البشر، ويسمح بـالتنبؤ عما تفضي إليه هذه الأعمال.

أنت لا تحصـد مثلاً إلا مـا تزرع، فـإذا لم تزرع شيئاً أمكن التنبـؤ بـأن لن تحصـد شيئاً، وأنت أبـداً في عـافيـة ما دمت تتبع القواعد الصحيـة وتنـأى عن كـل ما من شـأنه أن يسيء إلى انتـظام وظائف أعضـائـك في المـأكـل والمشـرب والملبس والراحة والعمل والنوم، فإذا أخللت بتلك القواعـد، عرّضت صحتك للمرض، وهكذا في كل ما يتصل بحياتـك. ومـا يقـال في الأفـراد ونتـائج أعمـالهم وسلوكهم، يقـال في الشعوب والأمم.

المستقبل إذن رهن بالمعرفة في جـانب، والأخلاق في جـانب آخر، وانـطباق السلوك أولاً وأخيراً، على المعلومـات الصحيحة، والأخلاق الفاضلة...

معالم المستقبل

السؤال الذي ورد حين أصدر إرنست رينان كتابه الشهير «مستقبل العلم»، كان: على أي شيءٍ اعتمد هذا الرجل في بيان المستقبل، والتحدّث عنه؟

هنا، لا ندحة عن الإشارة إلى أن ظهور ذلك الكتاب، مجرد ظهوره، إنما كان ضرباً من تجربةٍ علمية لا يعوزها شيءٌ من أصول التجريب، وتطوّراته، ونتائجه، فقد كتبه مؤلفه عام ١٨٤٨، ونشره عام ١٨٩٠، أي بعد مضيّ واحد وعشرين عاماً على وضعه. وقد تضمّن، أهمّ ما تضمّن، اقتراح منهاجٍ يهدف إلى تجديد أوروبا من الناحيتين: السياسية والأخلاقية على أسسٍ ليست دينية، بل علمية.

وثمة واقعٌ آخر، يجب أن يحيط به القارىء، قبل الإجابة عن السؤال الذي انطرح، عند ظهور «مستقبل العلم»، وهو الشعور السائد في أوروبا حول تحسين الأوضاع العامّة، والسير نحو مستقبل يغاير الماضي، ويخلّص الناس

من عيوب الحاضر. والماضي لم يكن آنذاك سوى الثورة الفرنسية الكبرى، وحروب نابليون، وتوزّع المسالك والاتجاهات بين تجديد الفكر الديني، والإقبال على المباحث والكشوف العلمية، والاندفاع في سبل الرومانطيقية.

وقد تمثل تجديد الفكر الديني في صحيفة «المستقبل» التي أشرف على إصدارها ثلاثة من أعلام فرنسا في ذلك الزمن، هم: لا منّيه، ومونتالامبير، ولاكوردير، خلال العام ١٨٣٠ ـ ١٨٣١، وكانت تنزع إلى ضرب من المصالحة الفكرية بين التحررية السياسيّة والكاثوليكية.

لم يكن رينان من هذا الرأي، أي الرجوع إلى الدين، حتى ولو تحقّق تخليصُه من الشوائب التي علقت به وشوّهته، فالمستقبل، كما رآه، للعلم.

تصوّرٌ أم معرفة؟

يمكن الآن تبيّن الحالات والأوضاع والوقائع التي اعتمد عليها رينان في تقريراته عن العلم ومستقبله. وهي تتلخّص، كما يظهر من الكتاب نفسه، وسوابقه، وظروف تأليفه، والغايات المتوخّاة منه، في النقاط الآتية:

١ ـ الإحاطة بحاضر أوروبا، عند نهاية النصف الأول من

القرن الماضي، في جوانبه الثلاثة: السياسي، والعقلي، والأخلاقي.

٢ ـ تغلّب التيار العلمي على كل ما عداه من تياراتٍ فكرية.

٣ ـ تثبّت رينان نفسه مما يريد، وإيمانه بما يريد.

٤ ـ إعمال الخيال في منحنى الأحداث، انطلاقاً من الواقع في حياة الأفراد والجماعات على السواء.

٥ ـ إعمال البصيرة.

٦ ـ صفاء الذهن، ووضوح الرؤية.

٧ ـ الشعور المسبق القائم على الحدس.

هذه هي «مصادر التصور» التي يبدو أنها تعين على تبيّن المستقبل، وما يمكن أن يتحقق فيه، من خلال علامات، ومعلومات خاصّة. وتلك هي مستندات رينان.

بَيْدَ أنّ هذه المستندات لا تملك إيصال الإنسان إلى يقين، وتظلّ المشكلة الحقيقية قائمة: هل تدخل معرفة المستقبل حيّزَ الإمكان؟

يبدو، كما رأيت في محاولة رينان، أن المحاولة نفسها، حين تكون جادّة، ومُنصبّةً على موضوعٍ معين، تؤدّي ـ لا بُدّ ـ إلى «تصور» يقترب من المعرفة، ويصبح هذا التصور نفسه موضوع بحثٍ، يصحُّ أن يُحْذَفَ منه، ويُضافَ

إليه، وتعيين مواضع الصواب فيه والخطأ، مع مرور الزمن، وتراكم التجارب.

مجال نظريات

ذلك يفيد أن المستقبل يشكّلُ أخصب مجالٍ للنظريات، ما دامت مستندات التفكير فيه تؤدّي على الدوام، إلى تصورات يصحّ البحث فيها، ولا يهم بعد ذلك مدى اقترابها من المعرفة الصحيحة، أو ابتعادها عنها.

وقد عرف التاريخ، منذ أقدم العصور إلى اليوم، ألواناً من هذه النظريات لا يحصرها إحصاء. وما التنجيم، والمندل، وقراءة الكف، واللجوء إلى القيافة والعرافة والكهانة، ثم إلى الرمال والأصداف والمزارات، سوى محاولات - فاشلة - في التعرّف إلى بعضٍ من وجوه المستقبل الخاص والعامّ، على السواء.

غير أن هذه المحاولات التي نصفها أنها صبيانية تارة، وخرافية تارة، أفضت مع ارتقاء العقل، وتنامي الفكر، إلى نظراتٍ علميةٍ أو فلسفية. وظلّ الإنسان يأمل في العثور على جديدٍ، وهو يرتاد آفاق المستقبل، ويولج فكره في أدغاله، باذلاً ما في وسعه للإفادة هناك من خبرته، في شتى فروع المعرفة.

هذا العناد في الأمل الذي نجده لدى كل إنسان سويّ الفطرة، يؤكد أن مجالات المعرفة أرحب مما يتصوّر اليائسون، والمتشائمون، ودعاة الانهزام في كل مكان وزمان.

جزء من الزمن

المستقبلُ تتمّةٌ للحاضر، بنسبة ما يشكّلُ الحاضر تتمةً للماضي، فإذا استطاع الإنسان أن يحيط علماً بالحاضر والماضي، على نحو ما، وبدرجةٍ ما من الدقة، أمكنه أن يتصوّر المستقبل تصوراً يوازي بدقته وضبطه درجة إحاطته العلمية تلك.

هذا المنطق يعني أن الزمن وحدةٌ متكاملة موضوعياً، أو هو يشير، بعبارةٍ أكثر وضوحاً، إلى علاقةٍ لا تنفصم بين أحداث الحاضر، وما يجري في الأوقات التي تلي الحاضر (المستقبل)، مما يجعل «التوقّع» ظاهرةً تسيطر على السلوك البشري في الدقيق والجليل من الأعمال. وإن «أشدّ العادات البشرية المألوفة، تشهد بهذه الحقيقة، فالعقود الشرعية، والفهم الاجتماعي لكل نمط، والمطامح، والقلق، وجدول مواعيد القطارات، هذه كلها إشارات تافهةٌ من الوعي، بصرف النظر عن أنّ الحاضر يحمل في كيانه المتحقق نفسه،

علاقاتٍ بمستقبلٍ وراء نفسه، فإذا فصلت المستقبل، فإن الحاضر ينهار، لأنه يخلو من محتواه الصحيح، فالوجود المرافق يتطلّب إدخال المستقبل في مداخل الحاضر»[1].

ذلك بأن النظر في المستقبل يشكّل، بحكم كل توقّع على المستويين: العام والخاص، جزءاً من حاضر الإنسان. والعمل الذي يقوم به الإنسان في الحاضر، مستوحياً خلال قيامه به، نظره ذاك، يؤلّف بمعنى من المعاني، جزءاً من المستقبل أيضاً، كالذي يزرع اليوم زيتونةً أو شجرةً من الأشجار المثمرة، وهو يتطلع إلى اليوم الذي يأكل فيه ـ هو أو غيره ـ من ثمرها.

ثم إن «الحاضر يحمل في أساسه العلاقات التي ستكون له مع المستقبل، ولهذا، فإنه يشتمل في جوهره على الضرورات التي يجب أن يتطابق المستقبل معها، فالمستقبل موجود في الحاضر، باعتباره حقيقةً عامّة، تخص طبيعة الأشياء»[2].

إذا كانت تلك هي حقيقة المستقبل، أي جزء من

---

(١) انظر: الفريد نورث وايتهيد، «مغامرات الأفكار»، ترجمة: أنيس زكي حسن، بيروت، ١٩٦٠، ص: ٢٦٣.
(٢) المصدر السابق، ص: ٢٦٧.

الزمن، مرتبط أوثق الارتباط بالحاضر، يصبح الاطلاع على بعض ما يجري فيه، أمراً متاحاً لكثير من الساعين إليه!

آراء الأقدمين

يبدو أن الأقدمين كانوا أصفى ذهناً، وأعلى همّةً، وأثبت قدماً، في سعيهم لمعرفة المستقبل، وكشف الحجب عنه، مما جعلهم أكثر نفاذاً في إدراك العواقب، وتقدير النتائج، قبل الإقدام على العمل، ولا سيما في الحياة العامّة.

وقد درس المفكرون منهم هذا الجانب الخطير من الحياة العقلية، وأشبعوه درساً، وخرجوا من أبحاثهم وتأملاتهم، بجملةٍ من الأفكار والنظرات الصائبة التي لا يمكن دحضها، حول الزمان، والمكان، وأسرار الحياة والمجتمع، وقواعد السلام.

ولدينا نحن، في التراث العربي، ثلاثةٌ من كبار الباحثين في هذه الشؤون، هم: أبو الحسن المسعودي، وأبو علي المرزوقي، وعبد الرحمن بن خلدون.

المسعودي وضع كثيراً من المؤلفات التي فقدت، ولم يُعثر على شيءٍ منها في المخطوطات حتى الآن، مثل: «الرؤوس السبعة في الإحاطة بسياسة العالم وأسراره» و«الرؤيا

والكمـال»، و«القضايـا والتجارب»، و«طب النفـوس»، و«سرّ الحياة».

والمرزوقي وضع كتاب «الأزمنة والأمكنة».

أمـا ابن خلدون، وهو أشهـر المعروفين في الـدراسات الاجتماعيّة، فقد ظهرت مشـاركته في محـاولات التعرف إلى المستقبل، أكثر ما ظهرت، في «المقدّمة»(١).

يمكن تلخيص مـا ورد لـدى المسعـودي، في هـذه الفقرات: «إذا قويت النفس وزادت، قهرت الطبيعـة، وأبانت للإنسان كلّ سرٍّ لطيف، وخبرته بكل معنى شـريف، وغاصت بلطافتهـا في انتخاب المعـاني اللطيفة البـديعـة، فـاقتنصتهـا وأبرزتها، عن الكمال...

«قـالـوا: رأينـا الإنســان يُنسبُ إلى قسمين: النفس والجسـد، ووجدنـا الجسد مـواتـاً لا حـركـة له، ولا حسّ إلا بـالنفس، وكـان الميت لا يعلم سببـاً ولا يؤدّيـه، فـوجب أن يكون العلم للنفس، والنفوس طبقـات: منها الصـافي. وهي النفْسُ الحسية، والنفس البراعيّة، والنفس المجلية، ومنهـا ما

(١) تناول ابن خلدون في «المقدّمة السادسة» من الباب الأول، المـوضوعـات الآتيـة: في أصناف المـدركين للغيب من البشـر، تفسيـر حقيقـة النبـوّة، الوحي، الكهانة، الرؤيا، الاخبار بالمغيبات.

قوته في الإنسان أزيد منه، فلما كانت النسبة النّورية للإنسان إلى النفس، كانت تهدي الإنسان إلى استخراج الغيب وعلم آلاته، وكانت فطنته وظنونه أبعث وأعم، فإذا كانت النفس في غاية البروز ونهاية الخلوص، وكانت تامّة النور وكاملة الشعاع، كان تولجها في دراية الغائب بحسب ما عليه نفوس الكهنة. وبهذا، وُجِدَ الكهّان على هذه السبيل من نقصان الأجسام وتشويه الخلق، كما اتصل بنا عن شقّ، وسطيح، وسملقة، وزوبعة، وسديف بن هرماس، وظريفة الكاهنة، وعمران أخي عمر ومزيقياء، وحارثة بنت جهينة، وكاهنة باهلة، وأشباههم من الكهان»[1].

وجاء المرزوقي بعد المسعودي، وإذا به يهتدي إلى فكرةٍ بلغت الذروة في طرافتها وعمقها وخصبها، وهي هذه العلاقة بين الزمان والمكان، القائمة فطرياً في ذهن كل إنسان بحيث لا يسأل مرةً عن حادثٍ «متى» حدث، إلّا وأتْبَعَهُ عفواً، ودون تفكير، بقوله: «أين» حدث؟

وإذا كانت «الرّيادة» عملية استطلاع وكشف، وقمنا بتحويل وجهتها من «التماس النجعة، وطلب الكلأ، ومساقط

---

(١) أبو الحسن المسعودي، «مروج الذهب»، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الجزء الثاني، المكتبة العصرية، بغداد، ص: ٨٤.

الغيث» في الأمكنة، إلى تلمّس الأصول الفكرية، والبحث عن حقائق الماضي وخفاياه، وجدنا تفسيراً أو تعريفاً لكلمة «القيافة» التي لن يكون معناها سوى عملية ارتياد للماضي، ثم لن يكون معنى «الكهانة» سوى عملية ارتيادٍ ـ بالفكر ـ للمستقبل!

ونجد ابن خلدون يعمد أخيراً، إلى تصنيف النفوس البشريّة من هذه الناحية، ناحية الاشراف على المستقبل، وتحليل الموهبة لدى الذين اختصوا بإدراك الغيب، في بعض ما عرف من أخبارهم، ولم تَدَعِ الوقائع الثابتة سبيلاً إلى نفي ما كان منهم جملةً وتفصيلاً، وإذا به يقع على ثلاثة أصناف:

«صنف عاجز عن الوصول إلى الإدراك الروحاني، فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسّية والخيالية، وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين، وترتيب يفيد العلوم التصورية والتصديقية التي للفكر والبدن، وهذا هو نطاق الإدراك الجسماني، وإليه تنتهي مدارك العلماء.

«وصنف متوجّه بالحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية يتسع إدراكه عن

الأوليات، ويسرح في المشاهدات الباطنية، وهي رؤى لا تشتمل على نطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها. وهذه مدارك العلماء والأولياء، أهل المعارف الربانيّة.

«وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية إلى الملائكة في لمحة، يحصل له شهود الملأ الأعلى، وسماع الخطاب الإلهي، وهم الأنبياء في حالة الوحي...».

ورأي ابن خلدون في الكهانة - أو الاطلاع على المستقبل - أنها «من خواص النفس الإنسانية، لأن لها استعداداً للانسلاخ إلى الروحانية».

مع المفكرين المحدثين

المسألة في حقيقتها هي: هل يمكن التنبّؤ بما يحدث في المستقبل، على نحو يطمئنُّ القلبُ معه؟

- يؤكد ريوفورتشُن في «موسوعة العلوم الاجتماعية» الأمريكية أن «الكهانة» في جوهرها، طريقةٌ في الوصول إلى حكمٍ على المجهول، من خلال اعتبارٍ لأمر ينقصه اليقين والعلم الاستقرائي الدقيق الماثل، على درجةٍ ما، في المجتمعات الإنسانية كلها، لا يقدّم طريقةً واحدة لاكتشاف التطورات، والحالات، قبل حدوثها».

ويرى الدكتور ألكسي كاريل، صاحب «الإنسان، ذلك

المجهول» أن ثمّة أناساً يتفرّدون بخصائص عقلية وشعوريّة تمكنهم من «السفر» بالفكر، في عالَمِ الماضي، كما يتفرد آخرون بخاصّة السفر في المستقبل. وقد بنى هذا الطبيب الفيلسوف، رأيه في اكتشاف هذه الخصائص، على أساسٍ من فكرته في الزمن، وهي «أن الزمن لا يقاس في نسبته إلى كل واحدٍ منا، بعدد اهتزازات الرقاص في ساعةٍ معلّقةٍ على الحائط، فليس ثمة قياس مشترك للمدة. وكل واحدٍ منّا يقيس الوقت بطريقته الخاصّة... الزمن الحقيقي يُنقَشُ في أعضائنا، وفي أمزجتنا. وتتابع حالاتنا الوجدانية يعطينا عن هذا الزمن الحقيقي فكرةً أيضاً، فإن الكيان العضويّ يخضع لتغيرات كيفية وكمية. وثمة انطباق غير دقيق بين هذه التغيرات والزمن الفلكي. وكل فردٍ منا يشيخ حسب سرعةٍ خاصّة به».

إذا كنا نحمل الماضي في دمائنا، وتكوين أعضائنا ـ وذلك هو الصحيح المعقول ـ يصبح من اليسير على الفكر إذا صفا، أن يجوس آفاق ذلك الماضي، كما يصبح من المقبول أن «يسافر» في أبعاد المستقبل. ولكن الأمر يظلّ محصوراً في نطاق «الذات» بمعنى أن رؤية المستقبل، تظلّ ذاتيةً، ولا يمكن أن تأخذ صفة الموضوعية، إلا بعد حلول الأحداث التي رأتها ذاتٌ معيَّنةٌ من قبل، كما رأيت في الحديث عن

مستقبل العلم الذي قال به رينان.

وهذه النظرة العلمية الحديثة إلى الزمن، هي التي أملت على ليكونت دونوي، كتابه «مستقبل الروح»، حيث قرر أن هناك غريزةً إنسانيةً خالصة، تقف على طرف النقيض من كل ما رسب في النفس البشرية من نزعاتٍ حيوانية، وأنّ هذه الغريزة تكلم الإنسان بلسانٍ واضح، ليس للذكاء أدنى يد فيه، ولا ينخدع عنها أحد. والذين يصغون إليها يسلّمون بوجودها، ويتأثرون بمظاهرها لدى الأبطال الشهداء، والقديسين والأولياء، وكل من هم على شاكلتهم من ذوي النزاهة والعفة والتجرد الذين يضحون في سبيل المبادىء العامّة، ولا يأبهون لما يصيبهم من ألم، أو ينزل بهم من بلاء.

وهكذا يلتقي ليكونت دونوي مع المسعودي وابن خلدون، حين يشدّد على الالتزام بالقانون الأخلاقي، ويبين أن «المعجزة الكبرى هي أن القانون الصارم تمكن من أن يفرض نفسه فرضاً شاملاً على احترام الناس الذين يستخدمون ذكاءهم أحياناً لمحاربته، مؤكّدين بذلك حقيقته». ولن تكون الغلبة إلا له!

ماذا يقول العلم؟

هناك حدودٌ للممكن تتضح بها ومعها حدود المستحيل. غير أن الممكن عالَمٌ يتّسم أكثر ما يتّسم، بالانفتاح لعقل، والانغلاق لعقل آخر، فلا يتاح لأحدٍ رسم حدوده، إلا من زاوية ذاتيّة خالصة. وهذه الزاوية تنفرج أو تضيق حسب السن، والمعرفة، والخبرة، والظروف الخاصّة والعامّة.

تلك حقيقة علمية انطلق منها أرثر كلارك - وهو من رُوّاد الخيال العلمي الكبار في هذا العصر - في تأليف كتابه «وجوه المستقبل». واستطاع أن يكتشف قانونين اثنين، وضع صيغتهما على النحو الآتي:

أولاً - عندما يقدّرُ أحد العلماء المميَّزين، ولكنه آخِذٌ في الشيخوخة، أن شيئاً مّا يمكن أن يحدث، فهو بكل تأكيد قريبٌ من الصواب، ولكنه حين يعلن أن شيئاً ما مستحيل، فإنه يكون في أكبر احتمال، على خطأ.

ثانياً - الأسلوب الوحيد في استكشاف حدود الممكن، إنما هو أن نغامر قليلاً في تجاوزها، أي في المستحيل.

إذا أخذنا في تطبيق القانون الثاني، ونحن نحاول استكشاف المستقبل، نجد أننا مضطرون في أثناء محاولتنا هذه إلى الإخلال بالقانون الأخلاقي، في كثيرٍ من الحالات،

أي إلى «المغامرة». والمغامرة تتنافى والعقل، لا سيما حين تمس حقوق الآخرين، أو تعرضهم لخطرٍ من الأخطار الأكيدة. وهذا يسوقنا إلى أفقٍ فكريٍّ آخر، هو ما نسمّيه «الاعتبارات العامة»، والاعتبارات السياسية منها على وجه التحديد.

ولكن المستقبل، على نحو ما نعرف يقيناً من التاريخ، لا يقيم وزناً لكثيرٍ من الاعتبارات المتواضع عليها بين البشر، ويظلّ سائراً في طريقه جنباً إلى جنب مع القانون الأخلاقي... وهذا ما يفصح عنه سقوط الدول، وانهيار الحضارات في كثيرٍ من العصور والأدوار التاريخية المعروفة.

وهذا هو ما يقوله العلم!

إشارات وعلامات

هناك إشارات وعلامات لا غنى عن الوقوف عندها لكل من يبذل مسعى في إدراك المستقبل، والاطلاع على ما يمكن أن يجري فيه، أو يتحقق بحلوله.

نضرب مثلاً على ذلك في الاعتبارات التي استند إليها المفكر العربي المعاصر الدكتور جميل صليبا، حين وضع كتابه «مستقبل التربية في العالم العربي»، وتحدّث عن مستقبل الثقافة عامةً، وبيّن ما يلي:

«.... وعندي أن أسباب تأخر الثقافة ترجع كلّها إلى سببٍ واحد، وهذا السبب هو اختلال التوازن في مدنيتنا الحاضرة، بين نمو القوى المادّية، ونمو القوى الروحية. ونعني بهذا الاختلال أن التبدلات المادّية قد بلغت في زماننا غايةً ليس فوقها متجاوز لأمل، فكثر عدد السكان، وكثرت الاختراعات والحاجات، وتنوّعت آلات الإنتاج، واتسعت المعامل، وازدادت أسباب الرخاء المادّي بسرعةٍ هائلة، وبقيت القوى الروحيّة على ما هي عليه من بطء النمو وقلة التقدّم، ونشأ عن ذلك اضطراب روحيّ يشبه الاضطراب الذي يصيب الطفل في أزمات نموه... وما يقال على الفرد، يقال أيضاً على المجتمعات البشريّة، فهي تعاني اليوم أزمة نمو حادّة لسرعة تبدّلاتها المادّية، وبطء تبدّلاتها الروحيّة. وليس هذا الاختلال في التوازن بداعٍ إلى التشاؤم، لأنه لا بُدّ لهذه التبدلات المادية من أن تبلغ غايتها، وتقف حقبة من الزمن عند الحد الذي بلغته، ومتى تباطأ نموها لحقت بها القوى الروحية، وعاد التوازن إلى ما كان عليه قبل مرحلة النمو...»[١].

---

(١) أنظر: الدكتور جميل صليبا، «مستقبل التربية في العالم العربي»، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٩٠ - ١٩١.

ثم يضيف الدكتور جميل: «إذا شئنا أن نحقق هذا التوازن، وجب علينا أن نجدّد أنفسنا، وأن نجرّدها مما علق بها من أدران قديمة، فلا نتمثل تبدّلات الحضارة الحديثة جرعة جرعة، بل نوجّه روح الاختراع توجيهاً سريعاً يبدّل قيم الفكر، ويهيّىء للإنسان أسباب الحياة الكريمة، ويحسّن حالته الاقتصادية، ويعمل على تحقيق المثل العليا التي تطلعت إليها الإنسانية في أبهى عصورها، كالإيمان بالحرية، واحترام الشخصية الإنسانية، وتقديس القوى الروحية، وتنظيم الحياة الاجتماعية على أساس العدل والمساواة» .

كل هذه الملاحظات والتوجيهات تؤكّد أن معرفة المستقبل تنبثق في الدرجة الأولى من الإحاطة بالقانون الأخلاقي وحسن تطبيقه في الحياتين: العامّة والخاصّة، لأن هذين ـ المستقبل والقانون الأخلاقي ـ متلازمان في جانب، وكل واحد منهما إشارةٌ للآخر، وعلامةٌ دالّةٌ عليه، في الجانب الآخر.

الميزة الأساسية الكبرى

والظاهر ـ أقول: الظاهر ـ أن ثمة أفراداً، حُكِم عليهم

بالخيبة والإخفاق من خلال نجاحٍ يحققونه دون أن يكون لهم أدنى يدٍ في تحقيقه، بمعنى أن نجاحهم لم يكن نتيجةً لما أرادوا، أو لمعرفةٍ منهم بما كانوا يريدون. وهؤلاء يعتمدون عادةً على المصادفات التي ساقت إليهم فوزاً سابقاً، أو انتصاراً لم يكلفهم عناءً ولا جهداً كبيراً، وعند ذاك يتصرّفون دون تفكير في عواقب تصرفاتهم، ويضربون صفحاً عن نتائج الأعمال التي يقومون بها، ويستغرقون استغراقاً تامّاً في الحاضر ومعطياته، وتُعميهم رغباتهم الملحّة عن رؤية شيءٍ في المستقبل، وحتى عن التفكير في شيءٍ غيرها.

ولنا مثلٌ في موسوليني حين غزا أثيوبيا، فالأكيد الذي لا يرقى إليه ظلٌّ من شك، أن موسوليني لم يفكر ساعة غزا الحبشة عام ١٩٣٦، بما يمكن أن يحدث عام ١٩٤٣، أو ١٩٤٥، ولم يكن على علمٍ أو بيّنةٍ مما يريد، وكل ما كان قائماً في ذهنه أن يستعيد أمجاد روما عهد يوليوس قيصر ومن تلاه، ضارباً صفحاً عن الظروف والأوضاع والحقائق القائمة على الأرض!

وذلك هو شأن هتلر يوم ضمّ النمسا إلى ألمانيا، وحقّق ما سماه «الأنشلوس» غير عابىءٍ يومذاك بما يريده أهل النمسا أنفسهم، ولا تلفت إلى شيءٍ من النتائج التي يمكن أن يسفر

عنها اغتيال شوشنغ مثلاً، الذي كان يسعى إلى التفاوض معه!

هذه الأمثلة ـ وما أكثرها! ـ تفيد أن معرفة المستقبل، قريباً كان أو بعيداً، تقتضي في أول منزلة، أن يعرف الإنسان ما يريد، على أن يكون هذا الذي يُريد خِلْواً من كل سوءٍ أو ضررٍ يصيب الآخرين. وكلما اقترب الإنسان من معرفة نفسه، واستيقن من سلامة قصده، زاد اقتراباً من معرفة مستقبله، وإدراكاً لمستقبل غيره.

وتلك هي الميزة الأساسيّة الكبرى التي يتميز بها أولئك الذين «يشرفون على دراية الغائبات قبل ورودها».

المحتويات

مقدمة ٥

القسم الأول: أحوال وأقوال ١٣

الحكمة ١٥
العلم ٢٠
المعرفة والثقافة ٢٤
المصير ٢٨
الفكر ٣٢
الفهم ٣٧
الحقيقة ٤١
الوعي ٤٥
المنطق ٥٠
النقد ٥٥
الفن ٥٩
الذكاء ٦٤
السلام ٦٩
الحب ٧٣
الحرية ٧٩

السعادة (١) ٨٤
السعادة (٢) ٨٩
الصداقة (١) ٩٤
الصداقة (٢) ٩٩
الخيال ١٠٤
المثل الأعلى ١٠٩
المستقبل ١١٤
الحدس ١١٩
التجارب ١٢٤
الشخصية (١) ١٢٩
الشخصية (٢) ١٣٣

القسم الثاني: محاورات مع التاريخ ١٣٧

الشخصية والحضارة ١٣٩
الفرد والمجتمع ١٤٦
المناخ الروحي ـ الفكري ١٥٣
وحدة المعرفة البشرية ١٦٠
سقراط ١٦٦
ابيكتاتوس ١٧٣
الحب والنفس ١٩١
العنف: أسبابه ومظاهره ١٩٨
تجديد العلاقات الإنسانية ٢٠٤
الفلسفة والحياة اليومية ٢١١

النهج ٢١٨
الفكر العلمي ٢٢٥
القانون الأخلاقي ٢٣٢
الكنز العاطفي ٢٣٩
الفضيلة والسريرة ٢٤٦
النيات والأفكار ٢٥٣
السم والترياق ٢٦٠
النضج والأزمات الاجتماعية ٢٦٧
الرغبات والأعمال ٢٧٤
الحكمة والبطولة ٢٨١
تحقيق الذات ٢٨٨
بين المهنة والموهبة ٢٩٥
المصادفات والأقدار ٣٠١
أسباب ونتائج ٣٠٧
القول والفعل ٣١٤
الوطنية والاستبداد (١) ٣٢١
الوطنية والاستبداد (٢) ٣٣٠

القسم الثالث: نحو المستقبل ٣٣٩

الفلاسفة والمستقبل ٣٤١
معالم المستقبل ٣٤٦

للمؤلف

ـ روح العروبة	١٩٤٧
ـ الحجاج: طاغية العرب	١٩٥٠
ـ برنارد شو: العقل الساخر	١٩٥٦
ـ شعراؤنا (١١ حلقة)	١٩٥٩ ـ ١٩٦٥
ـ أبو العتاهية	١٩٦٢
ـ ابن حزم	١٩٦٢
ـ فلسفة الحب عند العرب	١٩٦١
ـ الفكر التاريخي في الإسلام	١٩٨١
ـ الصهيونية: جريمة العصر الكبرى	١٩٦٤
ـ معارك أدبية: قديمة ومعاصرة	١٩٨٤
ـ وحدة العرب في الشعر العربي	١٩٨٧
ـ المتنبّي: دراسة ومختارات	١٦٨٨
ـ ابن زيدون: دراسة ومختارات	١٩٨٩
ـ أبو العلاء المعري: دراسة ومختارات	١٩٨٩

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina